الطاهر أحمد الزاوى

تاريخ الفتح العربيّ فى ليبيا



تاريخ الفتح العربي

في ليبيا

تأليف

الطاهر أحمد الزاوى

الطرابلسي

الطبعة الثانية



دار المعارف

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

الإهـــداء

أهدى كتابى هذا :

إلى كل ليبي يحطم قيود الاستعمار ويطهر ليبيا من المستعمرين .

إلى كل ليبي يعمل على توفير الرخاء وهناءة العيش لليبيا .

إلى كل ليبي يرفع منار العلم فى ربوع ليبيا التى حرمت نوره منذ قرون .

إلى كل ليبي يفنى فى حب ليبيا ، والعمل على بناء مجدها وتمكين عزها .

الطاهر الزاوى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل العرب خير أمة أخرجت للناس ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحابته وأتباعه الذين جاهدوا فى الله وأخلصوا دينهم لله .

وبعد . فإن من أمجاد العرب ما لا يزال محجوباً بما تراكم عليه من غبار الماضى البعيد ، وتضليل الأوربيين وأذنابهم من أنصار المستعمرين وأصحاب الأغراض الدنيئة والنفوس المريضة .

ولقد كان لهم من أعمال البطولة — فى مشارق الأرض ومغاربها — ما لم يحفظ التاريخ مثله لغيرهم من أمم الدنيا . . ومن هذه الأمجاد وتلك البطولة ذلك الفتح المبين والنصر المؤزر الذى أحرزوه فى الشمال الإفريقى فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة وما تلاها من السنين إلى أن استقرت أقدامهم فيه وتم لهم الأمر فى سنة ٨٨ .

ولقد كان لهم فيها عشر جولات فى سبع وستين سنة . وكانت أولى هذه الجولات بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢٢ ، وآخرها بقيادة موسى بن نصير سنة ٨٨ هـ وفى هذه المدة ملكوا ما بين الإسكندرية وبحر الظلمات (الإطلنطى) ، وما بين البحر الأبيض وبلاد كاوار (السودان) .

ولقد كانت لهم فى إفريقية ملاحم تشيب الرضيع ، تذرعوا فيها بالصبر فكتب لهم النصر ، وأخلصوا فيها لله فوقاهم شر الهزيمة .

وإن تعجب فعجب أن يفتح العرب إفريقية وهم فى تلك القلة ، وهى مشحونة بالروم والبربر تكاد تغص بهم كثرة ، على ما بينهم وبينها من طول المسافة وبعد الشقة ، ولكنه الصبر على المشاق ، وقوة العزيمة التى رباهم عليها القرآن وتعاليم الإسلام ، فكانوا إذا اعتزموا الأمر لا يثنيهم عنه ثان . أما الموت وما دونه من المكاره فلا يبالونه : لأنهم تعلموا من القرآن « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ومما كان يحز فى نفسى أنى حينما كنت أطالع فتح إفريقية فى كتاب ما لم نجد فيه من آثار الفتح العربى فى ليبيا ما يعطى للقارئ صورة لهذا الوطن العربى وأعمال العرب فيه ، فأدركت أن ما يتعلق منه بليبيا لا يزال مبعثراً فى بطون الكتب ، ويحتاج إلى جمع وتنسيق ، فأردت أن أقوم بهذه المهمة كفاء لما لطرابلس علينا من فضل التربية وحقوق الأمومة ، وقياماً بواجب الوطن وما يتطلبه فى حياته الجديدة من تظافر جهود أبنائه على تدعيم نهضته الثقافية . . فاعتزمت الأمر ، ورجعت إلى كل كتاب علمت أنه يتصل بالفتح العربى فى ليبيا من قريب أو بعيد ، وأخذت منه كل ما يتعلق بليبيا .

ولم يكن فى وسعى أن أتجنب — فى كثير من المناسبات — الكلام على القيروان وبعض المدن الإفريقية لأن صلة طرابلس — إذ ذاك — بهذه المدن كانت صلة متينة ، صلة التابع بالمتبوع . وتحت هذه الظروف انساق بى الكلام على غير ليبيا مقتصراً فى ذلك على قدر الضرورة .

والمتتبع لتاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، لا يقع نظره إلا على غزاة تتابعت غزواتهم عليها ، لنشر تعاليم الإسلام تارة ، وللحكم والسيطرة تارة أخرى ، يتخلل هذا وذاك حروب طاحنة ، وثورات متوالية ، صرفت الليبيين عما يجب عليهم لوطنهم من توفير وسائل العمران ، ونشر المعارف ، والأخذ بنصيب من المدنية لا يقل عن نصيب جارتيها تونس ومصر .

ولقد كان لأعمال التخريب التى قامت بها الكاهنة من سنة ٨٢ إلى ٨٤ أكبر الأثر فى تأخر وسائل العمران فى ليبيا .

وإذا نظرنا إلى ما كانت عليه مدنها زمن الروم وقبيل الفتح العربى نجدها كانت فى حالة انحطاط مادى وأدبى نتيجة لتعسف الروم فى أحكامهم ، وقسوتهم فى جباية الأموال لتوفير ملذاتهم ، وإهمال شأن الإصلاح مما قعد بها عن اللحاق بجاراتها فى مضمار المدنية .

وليس ما جمعته هو كل ما كنت أتمنى جمعه ، ولكنه كل ما وجدته . وقد وجدت كل كتب تاريخ إفريقية تنقل عن « تاريخ الرقيق » فحاولت الاستفادة منه ، فلم أعثر عليه فى دار الكتب المصرية ، ولا فى غيرها من مكتبات مصر ، واستعنت ببعض من أعرفهم ممن لهم دراية بأسماء الكتب فلم أعثر له على خبر . وأعتقد أن تاريخ الشمال الإفريقى فى حاجة إلى هذا الكتاب الجليل . وأن كل كاتب فى تاريخ إفريقية — لم يستعن بهذا التاريخ — لن يصل فيما يكتبه إلى غايته .

وقد سميت ما جمعته « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » باعتبار أن المنطقة التى تكلمت عليها تسمى الآن « ليبيا » .

وإنى إذ أقدم إلى أبناء العروبة هذا الكتاب أعتقد أنى كشفت لهم عن حلقة من تاريخ قطعة من وطن العربية كانت مجهولة لكثير منهم ، وسيجدون فيه — وخصوصاً أبناء ليبيا — ما يفتح أمامهم باب البحث ، لإكمال الناقص من تاريخ ليبيا العزيزة .

وأرجو أن يكون فيه للمواطن الصالح ما يحمله على العمل لسعادة ليبيا ودفعها إلى اللحاق بمن تقدمها من الأمم فى ميدان الحضارة .

الطاهر أحمد الزاوى

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما وجده كتابنا (تاريخ الفتح العربى فى ليبيا) من رغبة القراء ، والإقبال على إقتنائه .

وقد وفقت إلى إصلاح الأخطاء التى وقعت فى الطبعة الأولى ، كما وفقت إلى زيادات وضعتها فى مواضعها من الكتاب ، وتحقيقات كثيرة ، مما زاد فى قيمة الكتاب التاريخية ، وأصبح من الضرورى للباحث عن تاريخ ليبيا الاطلاع على هذه الزيادات .

وقد صدر الكتاب فى ثوب أجمل بما تبديه دار المعارف من الاهتمام بمطبوعاتها ، ومادة علمية أوفى وأوسع مما كان عليه فى الطبعة الأولى .

والله ولى التوفيق . ونسأله العون على خدمة ليبيا العزيزة فى عهدها الجديد السعيد : عهد الاستقلال والحرية والثقافة . إنه سميع مجيب .

الطاهر أحمد الزاوى

نوفمبر سنة ١٩٦٣

التعريف بلوبيا

« لوبيا » بضم اللام وسكون الواو . وبالباء الموحدة والياء المثناة من تحت وألف : مدينة بين الإسكندرية وبرقة [1]. والنسبة إليها اوبى .

وكلمة لوبيا كلمة قديمة تتحدر من الجغرافية القديمة ، وقد هجر استعمالها منذ زمن بعيد .

وقد اختلف فى الجهة التى تطلق عليها كلمة لوبيا . . . فقال أبو الريحان البيرونى[2] : كان اليونانيون يقسمون المعمورة أقساماً ثلاثة ، ويعتبرون أرض مصر مجتمعاً لها ، فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبيا ، ويحدها من الغرب بحر أوقيانوس المحيط الأخضر. ومن جهة الشمال بحر مصر. ومن جهة الجنوب بحر الحبش . ومن جهة المشرق خليج القلزم ، وهو بحر سوف « أى البردى » . وهذا كله يسمى لوبيا .

وهذا التقسيم اليونانى لا يجد له مبرراً من التاريخ ، لأن أول عهد اليونان — وهم الإغريق — ببرقة كان فى آخر القرن السابع ق . م ، وذلك أن جماعة من سكان جزيرة ثيرا — وهى إحدى جزر بحر إيجا — ويقال لهم الثيرانيون نسبة إليها ، جاءوا فى هذا التاريخ إلى برقة بعد أن منعهم القرطاجنيون من الإقامة فى شمال إفريقية ، وبعد عشر سنوات من وجودهم فيها أسسوا مدينة قورين . وفى هذا الوقت كان الفينيقيون يملكون الشمال الإفريقى ، وكان قد مضى على تأسيس قرطاجنة نحو ١٤٠ سنة ، فكيف يصح أن يطلق اليونان اسم لوبيا على أملاك القرطاجنيين ؟ . وإذا قلنا إنهم أطلقوه عليها قبل أن يأتوا

---

(١) انظر النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٠٣

(٢) كان البيرونى من العلماء الذين امتازوا بالتدقيق والروح العلمى الصحيح ، ومن أكبر الباحثين الذين تركوا مآثر فى العلوم والتاريخ .

إلى برقة فهو أشد بطلاناً وأبعد عن الحقيقة . . . على أن نفوذ اللوبيين لم يتجاوز برقة ، وكانوا فى نزاع مستمر مع فراعنة مصر . ولما جاء اليونانيون إلى برقة ، وبعد أن بنيت قورين وتوطد ملكهم فيها اضطهدوا اللوبيين وأجلوهم عن لوبيا . وخلف الروم اليونانيين على برقة فكانوا أشد اضطهاداً للوبيين .

والحقيقة التى يؤيدها أكثر المؤرخين – بل كلهم إذا استثنينا ذلك التقسيم الباطل الذى ذكره أبو الريحان البيرونى – أن الأرض التى تسمى لوبيا هى الأرض الواقعة بين حدود مطروح الغربية وحدود برقة الشرقية . وفى هذه المنطقة كانت عاصمة لوبيا ، وفيها كان يسكن اللوبيون ، ومنها كانوا يهاجمون فراعنة مصر ، ويحاولون الاستيلاء على ضفاف وادى النيل .

وقد عدد المقريزى فى خططه كوَرَ مصر ، فذكر من كور الحوف الغربى : كورة الإسكندرية . وكورة مريوط . وكورة لوبيا ومراقية . . . وذكر فى تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة . . ونقل عن القضاعى ما نصه : « الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية . وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهى برقة » اهـ . وفيما ذكره المقريزى رد واضح على أبى الريحان ، وتحديد لموقع لوبيا ، وأنها من الأراضى المصرية ، وتقع شرقى حدود برقة .

واللوبيون كانوا من الجنس الأسمر ، وقد انقرضوا من هذه المنطقة ولم يبق فيها منهم أحد ، ولا فى غيرها بهذا الاسم . ويسكن الآن هذه المنطقة جماعات من سلالات العرب الخلص كأولاد علىّ وغيرهم ، ولا يربطهم بهذا الجنس إلا الآدمية . . ولا يوجد فيما بين الإسكندرية والمحيط الأطلنطى إنسان واحد معروف النسب إلى هذا الجنس . . . فإطلاق كلمة لوبيا على برقة وطرابلس إطلاق ظلموا به ذلك الشعب العربى الذى ما ينفك ينتسب إلى العرب .

وقد هجر اسم لوبيا منذ عهد اليونان فى قورين . وبعد أن فتحها العرب لم ينطقوا إلا بكلمة أطرابلس أو برقة .

وذكرت دائرة المعارف الإيطالية أن « اسم ليبيا قديم يتحدر من الجغرافية القديمة . وأول من أخرجه إلى الاستعمال العالم الجغرافى « ف مينوتلى » . فى كتابه «جغرافية ليبيا» المطبوع فى تورينو سنة ١٩٠٣ ليدل به على الولاية التركية التى تشمل طرابلس وبرقة. ثم اتخذته إيطاليا اسماً رسمياً لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها فى ٢٤ من يونية سنة ١٩٢٩ . ومن ذلك الحين شاع استعماله فى جميع أنحاء العالم، وشمل طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها » .

هذا ما ذكرته دائرة المعارف الإيطالية . ويفهم منه أن اسم لوبيا كان مهجوراً ، وأنه ما كان يطلق على طرابلس وبرقة ، وبعد أن هجر سنين طوالا أخرج ليطلق على الولاية التركية التى ما كانت تسمى به . ولم يكن لهم سند تاريخى فى هذا الإطلاق ، ولكنه اصطلاح الغرض منه دعاية استعمارية قصد بها القضاء على الأسماء العربية التى كانت تطلق على هذه المقاطعات الثلاث.

ولما أعلنت الدولة الليبية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ ، أقرت كلمة ليبيا وأطلقتها على ما أطلقها عليه الإيطاليون : على ما بين حدود مصر وتونس ، وما بين البحر الأبيض وحدود السودان ، كما سمت نفسها « الدولة الليبية » .

وقد اعترض كثير من الطرابلسيين على إطلاق كلمة ليبيا على بلادهم ، وعلى تسمية الدولة باسم « الدولة الليبية » ، لأن كلمة ليبيا كلمة دخيلة على العربية ، أحياها الطليان لأغراض استعمارية كما قدمنا آنفاً .

واقترح المعترضون أن تطلق كلمة طرابلس على ما أطلقت عليه كلمة ليبيا ، وأن تسمى الدولة « الدولة الطرابلسية » .

وكلمة طرابلس هى التى استعملها العرب منذ الفتح الإسلامى وجرى عليها العرف الدولى منذ مئات السنين .

وقد وجدت فكرة إطلاق كلمة طرابلس بدل كلمة ليبيا معارضة شديدة بدعوى أن اسم طرابلس لا يشمل برقة وفزان ، وما كانت برقة وفزان إلا قطعتين من طرابلس ، والاتفاق الذى يجعلنا نقر كلمة ليبيا ــ وهى الكلمة الاستعمارية

الدخيلة ــ كفيل بأن يجعلنا نقر كلمة طرابلس ، وهى الكلمة العربية الأصيلة . ولكن قاتل الله السياسة ، فقد أيدت الرأى المناصر لكلمة ليبيا وكتب له النجاح ، وأطلقت على طرابلس وبرقة وفزان .

وتتكون ليبيا من ثلاثة أقسام : طرابلس ، وبرقة ، وفزان ، ومن هذه الأقسام الثلاثة تتكون أراضى الدولة الليبية .

والدولة الليبية دولة ملكية ، وراثية ، دستورية ، اتحادية ، على طريقة النظام الفدرالى الأوربى.[1] ولها حكومة مركزية ، ووزراء ورئيس وزراء . وفى كل قسم من الأقسام الثلاثة حكومة رئيسها يسمى الوالى ، و إلى جانبه نظار بعدد ما فى الحكومة المركزية من وزارات ، كل ناظر يوكل إليه النظر فى شئون الناحية التى يمثلها الوزير فى الحكومة المركزية ، فناظر المعارف يمثل وزير المعارف فى قسمه المختص به ، وناظر المالية يمثل فى قسمه وزير المالية ، وهكذا . . . ولها مجلس نواب يمثل الأمة على النسبة العددية للأمة جمعاء . ولها مجلس شيوخ يمثل الأمة تمثيلا ثلاثيًّا على نسبة متساوية للأقسام الثلاثة التى تتكون منها الدولة من غير نظر إلى عدد سكان كل قسم على انفراده .

---

(1) ألغى هذا النظام وما يترتب عليه فى مارس سنة ١٩٦٣ وأصبحت دولة متحدة .

سكان ليبيا القدماء

تعاقبت على هذه المنطقة من ساحل الشمال الإفريقي التي تسمى الآن ليبيا أمم مختلفة ودول كثيرة . وأقدم هذه الأمم أمة البربر .

البربر

أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي

قال ابن خلدون : البربر جيل من الآدميين سكان المغرب من القدم ، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ، ومن الخصاص والشجر ، ومن الأشعار والأوبار . ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة ، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس . ومكاسبهم الشاء والبقر . والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم . شأنهم في ذلك شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والظعن في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة ، وأكثر أثاثهم من الصوف ويشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعهدونها بالحلق . ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا لأجلها بهذا الاسم .

لغز في البربر (١) .

قال عبد الله بن محمد المرغي ملغزاً في البربر :

وما أمةٌ سكناهمُ نصف وَصفِهم وعيشُ أعاليهم إذا ضُمَّ أوّلُه
ومقلوبُه بالضم مشروبُ جُلِّهم وبالفتح مَن كلٌّ عليه مُعَوَّلُه

---

(١) من الدرر الكامنة ج ٢ ص ٨٥٢ .

وما كان للبربر من الآثار تشهد أخباره كلها بأنهم جيل عزيز على الأيام ، وأنهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم . اهـ

وكلمة بربر أطلقت بأربعة إطلاقات فى أربعة عهود مختلفة . فأطلقت فى عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت . . . وأطلقت فى عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم . .. وأطلقت فى عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما . . . وأطلقها العرب فى عهدهم على الأمة التى تسكن الساحل الإفريقى لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة بربرة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة « وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى » . . . وكانت مواطنهم من الإسكندرية إلى بحر الظلمات ، ومن البحر الشامى إلى حدود السودان .

وقد تغير هذا الوضع فى عهد ابن خلدون ، فذكر أن إفريقية كلها إلى طرابلس كانت دياراً لنفزاوة ، وبنى يفرن ، ونفوسة ، ومن لا يحصى من قبائل البربر ، وكانت قاعدتها القيروان ، وهى لهذا العهد ــ عهد ابن خلدون ــ مجالات للعرب من سليم . . . وبنو يفرن . وهوارة مغلوبون تحت أيديهم ، وقد تبدّوا معهم ، ونسوا رطانة الأعاجم ، وتكلموا بلغات العرب ، وتحلوا بشعارهم فى جميع أحوالهم ، وقاعدتها لهذا العهد ــ عهد ابن خلدون ــ تونس ، وهى دار ملكها .

وأما برقة فدرست وخربت أمصارها وانقرض أمرها ، وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواتة وهوارة وغيرهم ، وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل برقة وزويلة وغيرهما ، فعادت يبابا ومفاوز كأن لم تكن . وهم فى إفريقية ــ كما قال ابن خلدون ــ « من أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها[1] » وكل

---

(١) يقول المؤرخ التونسى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : أول من عرف البربر هم قدماء المصريين فى زمان الفراعنة ، وكانوا يعرفونهم باسم « الليبو » المشتق من نعت بلادهم ليبيا وذلك أن البربر كانوا فى سنى الجدب يشنون الغارة على ساحات وادى النيل الخصيبة و بهذه الوسيلة احتكوا بالمدنية =

ما قيل فى تاريخ دخولهم إفريقية هو من قبيل التقريب ، وهو إلى التخمين أقرب .

وأصح ما قيل فى أصولهم هو ما قاله ابن خلدون : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح . وأن اسم أبيهم مازيغ . . . فلا يقعن فى وهمك غير هذا فهو الصحيح الذى لا يعدل عنه » .

ثم نقل عن جمهرة الأنساب لابن حزم ما نصه : « ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير ؛ وبعضهم ينسب إلى برّ بن قيس عيلان ، وهذا كلام باطل لا شك فيه . وما علم النسابون لقيس عيلان ولداً اسمه برّ أصلا . . . وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا فى أكاذيب مؤرخى اليمن » .

وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت ، وأن جالوت من ولد قيس عيلان فأبعد عن الصواب : ذلك لأن قيس عيلان من ولد معدّ ، ومعد كان معاصراً لبختنصر ، فأخذه أرمياء النبى وذهب به إلى الشام خوفاً عليه من بختنصر حينما تسلط على العرب وكان يقتلهم . وبختنصر هو الذى هدم بيت المقدس بعد ما بناه داود بنحو أربعمائة وخمسين سنة ، وإذا كان جالوت قتله داود بنص القرآن « وقتل داود جالوت » فكيف يكون جالوت المعاصر لداود من ولد قيس عيلان الذى وجد بعد جالوت بنحو أربعمائة وخمسين سنة ؟ . قال ابن حزم : هذا فى غاية البعد ، وأظنها غفلة من ابن قتيبة ووهماً .

ثم قال ابن خلدون : ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة ؛ فإن بين نسابة العرب خلافاً فيهم ، والمشهور أنهم من اليمنية ، وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها .

= المصرية ، واقتبسوا منها بعض أسباب الحضارة وشيئاً من العقائد والتقاليد التى انتشرت من هنالك فى الشمال بأسره .

ويفهم من كلام الأستاذ حسن حسنى أن البربر هم الليبيون . وهذا رأى لبعض المؤرخين . وهناك رأى آخر يقول إن البربر غير اللبيين ، وأنهم أقدم من الليبيين فى الشمال الإفريقى .

ويقول ابن خلدون أيضًا : إن أمة العرب لم يكن لها إلمام قط بالمغرب لا فى جاهلية ولا فى إسلام ، لأن البربر كانوا يمانعون عليه الأمم ، وقد غزاه إفريقش بن صيفى — الذى سميت به إفريقية — من ملوك التبابعة وملكها ، ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندمجوا فى أعدادهم وذهب ملك العرب منهم . ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم ، بظهور الدين فساروا فى المغرب ، وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه ، وعاينوا من حروب البربر شدة .

وذكر ما يزعمه نسابة البربر : أن لُواتة من حمير ، وهوارة من كندة من السكاسك ، وزناتة من التبابعة ، أو من العمالقة فروا أمام بنى إسرائيل ، وغمارة وزواوة ومكلاتة من حمير .. ثم عقب عليه بقوله : « وهذه كلها مزاعم . والحق الذى شهد به الموطن والعجمة ، أنهم بمعزل عن العرب ، إلا ما تزعمه نسابة العرب فى صنهاجة وكتامة » .. ثم أبدى ابن خلدون رأيه فقال : وعندى أنهم من إخوانهم . والله أعلم — يعنى إخوانهم البربر .

والقبائل التى ذكر بعض النسابة أنها من أصول عربية مثل كتامة وصنهاجة لا شك أنها تبربرت بطول الزمن فى لغتها وزيها وعاداتها ، لأنهم طرأوا على قبائل بربرية هى التى قال فيها ابن خلدون : « لا يعرف أولها ولا ما قبلها » ، فنسبتهم إلى العرب لا تعنى أولية البربر فى الشمال الإفريقى .

وكل ما جاء بعدهم من أمم إلى الشمال الإفريقى فإنما جاءوا من طريق الغزو والفتح لا فرق فى ذلك بين الفينيقيين ، والروم[1] والونداال ، والعرب .

ديانة البربر :

كانت ديانتهم قبل الإسلام المجوسية ، وكانوا فى بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون

(١) جاء الروم إلى إفريقية مرتين : مرة قبل الونداال ، ومرة بعدهم .

عليهم مثل حمير أبي القبائل اليمنية ، وإفريقش بن صيفي من التبابعة ، والفينيقيين وغيرهم ، فكان البربر فى عهود هؤلاء المتغلبين يدينون بدينهم . وبعد ظهور المسيحية[١] وفى حوالى سنة ٥٧٦ م نجح البيزنطيون فى قلب عقيدة الكثير منهم ، وأصبحوا مسيحيين .

ويظهر أن حكم هؤلاء المتغلبين كان قاصراً على الأمصار . قال ابن خلدون : وكان للبربر وراء هذه الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ، وملوك ورؤساء ، وأقيال وأمراء ، لا يرامون بذل . ولا ينالهم الروم والإفرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة اهـ .

وقد صبحهم الإسلام وحكام السواحل كلهم من الفرنجة : وهم المستولون على مدن الساحل الإفريقى كلها .

وكان حكام ساحل إفريقية يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية وكان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدى الجباية له أيضاً . وكذلك صاحب لبدة وطرابلس ، وصبراتة وصقلية .

وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم .

وكان الفرنجة هم الذين يلون أمر إفريقية ، ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية ، وإنما كانوا جنداً للفرنجة وأعواناً ، ومن حشودهم . وما جاء فى كتب فتح إفريقية من ذكر الروم فمن باب التغليب ، لأن العرب قبل فتح إفريقية لم يقاتلوا الفرنجة ، وإنما قاتلوا الروم فى الشام ، وعرفوهم فأطلقوا هذا اللفظ على فرنجة إفريقية[٢] .

وكان هرقل الرومى ملك النصرانية كلها لا فرق بين الرومى والفرنجى ، فظن العرب أن الروم هم الغالبون على أمم النصرانية فغلبوا اسمهم عليهم ، ودرجت أخبار فتوحات العرب على ذلك . فجرجير صاحب سبيطلة الذى قتل

---

(١) أول ما ظهرت المسيحية فى أوربا كانت فى إيطاليا زمن قسطنطين الأكبر حوالى سنة ٣٣٠ م .

(٢) من ابن خلدون .

فى الفتح من الفرنجة . وكذلك الأمة التى كانت غالبة على البربر بإفريقية ونازلة مدنها وحصونها كانت من الفرنجة .

وكان جيش جرجير خليطاً من الفرنجة والروم والبربر .

وكلمة فرنجة يقصد منها الفرنسيس . . قال ابن خلدون: هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالإفرنسيس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة ، ما بين جزيرة الأندلس ومضيق قسطنطينة ، أخذوا بدين النصرانية من الروم ، واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم ، وأجازوا البحر إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة ، وجلّولاء ، وقرطاجنة وغيرها من الأمصار ، وغلبوا من كان بها من البربر حتّى اتبعوهم على دينهم . . وجاء الفتح العربى فانتزع من أيديهم سائر أمصار إفريقية وإقريطش (جزيرة كريد) ومالطة وصقلية . واجتاز العرب خليج طنجة ، وغلبوا القوط والجلالقة ، والبشكنس ، وملكوا الأندلس ، وخرجوا منها إلى بسائط هؤلاء الفرنجة ، فدوخوها ، فلم تزل فى نفوسهم من ذلك ضغائن ، وكانوا يطمعون فى إرجاع ما غلبوا عليه . وكانت الحروب الصليبية نتيجة لهذه الرغبة . وكان النصر الذى أحرزه صلاح الدين الأيوبى ثأراً لما أصاب المسلمين من هؤلاء الفرنجة . ا هـ ملخصاً من ابن خلدون .

وقد دلت آثارهم ومدنهم الصحراوية القديمة على أنهم كانوا يميلون إلى إنشاء عواصمهم حول الجبال وما وراءها إلى الجنوب خوفاً من غزو أمم الشمال التى كانت تسكن جنوبى أوربا على الساحل الشمالى للبحر الأبيض .

قال ابن خلدون : كان البربر قبل الإسلام أهل قوة وكثْرة فى إفريقية والمغرب . وكانوا يعطون الطاعة للفرنجة الذين كانوا يملكون الضواحى كلها . وعلى البربر مناصرة الفرنجة كلما احتاجوا إليهم . ولما دخل المسلمون إفريقية ناصروا جرجير عليهم . ولما قتل المسلمون جرجير تشتت شملهم وتعددت

رياستهم . . وكان كسيلة من أقوى رجالاتهم وأشدهم فالتفوا حوله . وهو من قبيلة أوْربة البربرية ا هـ .

ونقل ابن خلدون عن ابن أبي زيد أن البربر ارتدوا بإفريقية ثنّى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، وزحفوا فى كلها على المسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا فى أيام موسى بن نصير . ولما جاز إلى الأندلس أخذ معه بعضاً من رجالاتهم ليجاهدوا معه واستقروا هناك ، فاستقر الإسلام بالمغرب ، وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة . ثم سرت فيهم دعوة الخارجية ممن قدموا من العراق ، ووجدت من عامتهم صفاء فاعتنقوها وتعددت طوائفهم فيها وتشعبت طرقها إلى أن رسخت فيهم ، وتطاولت نفوسهم إلى الفتك بالعرب فقتلوا يزيد بن مسلم سنة ١٠٢ هـ .

هوارة :

ومن أشهر قبائلهم فى طرابلس قبيلة هوارة . وهى بطن من البرانس تنسب إلى هوارين أو ريغ بن برنس جد البرانس . ومن بطون هوارة غريان ، وورفل ، وسراتة وسلاتة ، ومجريس .. (وسلاته ، وغريان ، ومجريس أبناء هوار) .

وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس إلى ما يقارب سرت . وإلى قصر ميمون من ناحية الجنوب . . وما زال وادى ميمون معروفا إلى الآن فى أراضى ورفلة ، وبه آثار قصور ما زالت موجودة إلى الآن . . وكانوا ظواعن وأهلين . ومنهم من رحل إلى بلاد السودان ، وما زالوا يقال لهم هكار ، قلبت العجمة واوها كافاً أعجمية تخرج بين الكاف والقاف العربيتين . وكان لهوارة ذكر فى الردة ، وكانوا متعصبين للخوارج ، ثم اعتنقوا مذهب الإباضية واستقروا عليه . . ثم غلبتهم العرب على أمرهم ، وتوزعتهم فيمن توزعوا للخدمة ، ويملكوهم تملك العبيد للجباية منهم . . قال ابن خلدون : ثم جرت عليهم الدول

أذيالها ، وأناخت عليهم بكلاكلها ، ومنهم أوزاع فى مصر متفرقون ، أوطنوها أكَرة وشاوية[1].

نفوسة :

ومن أشهر قبائلهم فى طرابلس قبيلة نفوسة . وهى من البرابر البتّر ، تنسب إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس ، وهو ما دغيس الأبتر جد البرابر البتّر . وكانت من أكبر قبائل البربر . ومن بطونها بنو زمور ، وبنو مكسورة ، وماطوسة . وكانت بطونهم بجهات طرابلس وما إليها — وما زالت جماعات منهم كثيرة تسكن الجبل المعروف بهم إلى الآن (جبل نفوسة) وكانت مدينة صبرة (صبراتة) فى مواطنهم وتنسب إليهم .

لواتة :

ومن أشهر قبائلهم لواتة . وكانت زمن الفتح العربى تسكن برقة . وهى من أكبر بطون البربر البتّر ينسبون إلى لُو الأصغر ، ابن لُو الأكبر ، ولو الأصغر هو نفزاو . والبربر إذا أرادوا العموم فى الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا لُوات ، فلما عربته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به الهاء[2] .

زواغة :

ومن قبائلهم زواغة ، وهم من البرابر البتّر ، وهم أوزاع فى القبائل ، ومنهم جماعة بنواحى طرابلس . ومدينة زواغة ما زالت تعرف بهذا الاسم ، وهى غربى صبراتة بنحو عشرة ك م . وقد خربت ولم يبق منها إلا أطلالها . ويسكن تلك الجهة الآن جماعات من العرب .

---

(١) الأكرة : الذين يؤجرون أنفسهم للخدمة . والشاوية : الرعاة .

(٢) من ابن خلدون .

لماية :

ومن قبائلهم لَماية ، وهى من البرابر البتر . وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط . ولما انتشر مذهب الإباضية فى إفريقية . أخذوا به . . ولماية البلد المعروفة فى طرابلس بين زنزور والزاوية مسماة باسمهم ، لأن جماعة منهم كانت تسكنها .

الفينيقيون

أمة عربية قديمة من الأصل السامى ، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية . وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام . ومن أشهر مدنهم صيدا ، وصور ، وطرابلس الشام ، وبيروت . وكانوا يترددون على الشمال الإفريقى منذ القرن الثانى عشر ق م . وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التى تروج فيها . وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة فى الدرجة الأولى من شئون حياتهم . ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية [١].

ولما مات ملكهم معطجين [٢] ترك بنته عليصار وولده بيجماليون ، وكانت رغبته أن يشتركا فى الملك بعده ، ولكن الأهالى ولوا عليهم بيجماليون ، وتركوا عليصار وكانت تسمى « ديدو » ، وكانت متزوجة من « طيخاربعل » رئيس حزب الأشراف ، فقتله أخوها « بيجماليون » بعد مدة من توليه الملك ، فاستاءت ديدو من عمل أخيها ، فثارت عليه لتخلعه من الملك ، ولكنه تغلب عليها فركبت البحر هاربة ، وأخذت معها جماعة من أكابر قومها حتى وصلت الشمال الإفريقى ، فسميت « ديدو الهربانة » .

---

(١) . خلاصة تاريخ تونس .

(٢) يقال إن هذا هو الملك الذى قال الله فيه « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » .

قرطاجنة :

ولما وصلت ديدو الشمال الإفريقي نزلت إلى البر ، واشترت من البربر قطعة أرض . وبنت عليها مدينة « قرطاجنة » (سنة ٨٤٠ ق م[١]) . ومعناها المدينة الجديدة . وهي من أعظم المدن التي عرفت في الشمال الإفريقي . . وتطلق قرطاجنة على ثلاث مدن : قرطاجنة إفريقية وهي أعظمها ، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق ، وقرطاجنة الحلفاء بكورة تُدمير بالأندلس .

نظام الحكم فيها :

وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري ، وكان يدير شئون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار . وكان لهم رئيسان ينتخبان في كل سنة ، ودياناتهم الوثنية ، وأكبر آلهتهم « بعل » .

ولما استقر ملك الفينيقيين في شمالي إفريقية ، وقوى سلطانهم فيها أخذوا يفكرون في توسيع نفوذهم طمعاً في الاستيلاء على البلاد كلها . . وفي سنة (٤٨٠ ق م .) صاروا يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات كما شمل ساحل أوربا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك أعمدة هرقل .

---

(١) وقيل بنيت سنة ٨٨٠ ق م . وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد بعاز ملك يهوذا سنة ٨٤٦ ق م . . .

الروم

من الأمم التى سكنت الشمال الإفريقى الروم . وقد جاء فى كتاب « المسالك والممالك » : أول ما دخل البربر إفريقية ملأوا سهولها وجبالها ، واضطر أهلها — وكانوا من الروم — إلى الجلاء إلى صقلية . . وهذا يفيد أن الروم وجدوا فى الشمال الإفريقى قبل البربر . ولا يستبعد هذا لقربهم من الشمال الإفريقى ، وإذا صح هذا فهو فى تاريخ غير معلوم البداية ولا النهاية ، لأن تاريخ وجود البربر فى إفريقية غير معلوم البداية . . وإذا كان التاريخ لم يعين لنا فى هذا الدور زمن وجود الروم فى إفريقية ، فقد عينه لنا فى عودتهم على أثر تغلبهم على القرطاجنيين . وذلك أن القرطاجنيين لما ملكوا إيطاليا الجنوبية أساءوا معاملة أهلها واستبدوا بهم ، فلم يطيقوا صبراً على هذا الاستبداد فحاربوهم ، ودامت الحرب بينهم أكثر من مائة سنة فقد وقعت بين الروم والقرطاجنيين ثلاث حروب[1] فى المدة ما بين سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ ق م .

الحرب الأولى ابتدأت من سنة ٢٦٤ ، وانتهت سنة ٢٤١ ق م . انهزم فيها الجيش الرومى بإفريقية . . وانهزم فيها الجيش القرطاجنى بصقلية .

الحرب الثانية ابتدأت سنة ٢١٨ ، وانتهت سنة ٢٠٢ ق م . انتصر فيها « حنبعل » القائد القرطاجنى بإيطاليا فى واقعة « كان[2] » ، وقتل فيها من الروم ما يربو على سبعين ألفاً . وكانت سنة ٢١٦ ق م . وكان حنبعل من أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضى فى هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء . . . وانتصر عليه الروم فى واقعة « جامة[3] » سنة ٢٠٢ ق م . ففر إلى الشام ومات بأنطاكية .

---

(١) تقسيم هذه الحروب منقول من خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسنى عبد الوهاب التونسى .

(٢) بلدة غربى إيطاليا كانت تابعة لها . والآن تابعة لفرنسا وتقع فى جنوبيها

(٣) قرية قرب مدينة الكاف غربى المملكة التونسية ، ويسميها الروم زاما

الحرب الثالثة ابتدأت سنة ١٤٩ وانتهت سنة ١٤٦ ق م ، ورجحت فيها كفة الروم على القرطاجنيين ، واستماتت القرطاجنيون فى الدفاع عن عاصمتهم ، وانتهز البربر فرصة رجحان كفة الروم فانضموا إليهم بزعامة ماكسن البربرى ، وكان ذلك نتيجة لما قاسوه من ظلم القرطاجنيين واستبدادهم بهم . . وكانت هذه الحرب القاضية على القرطاجنيين ، فملك الروم قرطاجنة ، وخربوها وأحرقوها بالنار ، وأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة ١٤٦ ق م . . وزال ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة . واستولى الروم على جميع البلدان التى كانت تابعة لقرطاجنة ومن ضمنها طرابلس . . وهذا أول عهد الروم بالشمال الإفريقى فيما حدد التاريخ زمنه .

الوندال

هم من الأصل الجرمانى « الألمان » ، زحفوا فى القرن الرابع الميلادى على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة ، وكانوا يسكنون فيما وراء جبل طارق الذى كان يسمى إذ ذاك « أعمدة هرقل » .

وسبب احتلالهم قرطاجنة أن ملك روما كانت تنوب عنه فى حكم إفريقية امرأة يقال لها « إيلاليديا » ومقر حكمها قرطاجنة ، وكان « بونيفاس » أحد ولاة الروم على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها ، ولم تطق صبراً على معاكسته إياها . وفى سنة ٤٢٩ م [١] أرادت أن تنتقم منه ، فشق عصا الطاعة على روما سنة ٤٢٧ م ، والتجأ إلى الوندال فى إسبانيا واستنجد عليها بملكهم « جنسريك » ، فلبى طلبه ، واجتاز من إسبانيا إلى المغرب ، واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى إلى أن احتل قرطاجنة سنة ٤٣٥م [٢] ، وقضى على ملك روما فى إفريقية [٣] ، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة ، وأصبح الشمال الإفريقى

---

(١) وقيل سنة ٤٢٧ . (٢) وقيل سنة ٤٣٩م.

(٣) وفى أيام حكمهم الأول أيام قسطنطين الأكبر سنة ٣٣٠ انتشرت الديانة المسيحية فى أوربا وما اتصل بها .

كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية . وأحسن الوندال معاملة البربر فكانوا عوناً لهم على غيرهم .

واستفحل أمر « الوندال » فاحتلوا روما سنة ٤٥٥ م . وأطلقوا أيدى الجند فيها ١٥ يوماً فنهبوا كل ما فيها من دخائر نفيسة . وعبثوا بالنظام الرومى فى إفريقية حتى قضوا على آثاره فيها .

وبعد أن مات «جنسريك» ملك الوندال سنة ٤٧٧ م تولى بعده ابنه «هنريق» ، وكان قاسياً على الكاثوليك . وفى سنة ٤٨٣ م قبض على خمسة آلاف من رهبانهم ، وشردهم فى الصحراء ، واغتصب أموالهم وكنائسهم . وفى سنة ٥٢٣ م تولى على الوندال « هلدريق » ، وكان ضعيف الإرادة ، منحل العزيمة ، فخلعوه وولوا مكانه « جليمير » .

الروم مرة ثانية :

ولما خلع « هلدريق » استنجد بيوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه وكانت فرصة اغتنمها يوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما ، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال . وهاجم بيليساريوس القائد الرومى قرطاجنة سنة ٥٣٤ م ، وأسر ملك الوندال « جليمير » واسترد جميع البلاد التى كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة « القسطنطينية » وزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة . وأسس الروم على أطلال قرطاجنة الفينيقية قرطاجنة رومية ، وتأنقوا فى عمارتها وحضارتها ما شاء لهم الفن والعلم . وقد جلبوا إليها الماء من عين زغوان جنوبى تونس بنحو تسعين كم فى ساقية بنيت على قناطر وحنايا وسدود ، أتقن صنعها على شكل هندسى فى غاية القوة والإتقان ، يعلون بالمنخفض حتى يصل إلى المستوى المطلوب ، وينزلون بالمرتفع إلى حيث المستوى المطلوب .

وقد عنى الروم بتعمير إفريقية فجلبوا الماء إلى قرطاجنة وحفروا الآبار والصهاريج والمآجل وادخروا فيها ماء المطر للانتفاع به فى الصيف ، وأسسوا

فيها مدناً كثيرة ، وحسنوا مواصلاتها فأنشأوا طرقاً كثيرة ، ومنها طريق كان يصل بين طرابلس وعنابة ببلاد الجزائر ويمر بأكثر مدن الساحل .

وقد بلغ عدد سكان إفريقية فى هذا العهد أربعة ملايين من النفوس ، وكان عدد سكان قرطاجنة وحدها لا يقل عن خمسين ألفاً .

وقد عنوا بفن النحت فكان لهم السبق فى صنع التماثيل الحجرية ، يدل على هذا ما كشف عليه الحفر فى مدينتى لبدة وسبراتة ، ومنها ما زال ماثلا إلى اليوم فى كرزة .

ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل فى الروم بسنة تقليد الضعيف للقوى ، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد ، ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم ، وأصبحوا روما فى كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم . وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب فى الدولة ، فإن سبتيم سيفاروس — وهو بربرى الأصل — انتخبه الجند إمبراطوراً لعرش الروم سنة ١٩٣ م ، ومات محارباً بإنجلترا سنة ٢١١ م وخلفه ابنه .

وكان هذا الاندماج فى بربر السواحل وما قاربها ، أما البربر الذين يسكنون الجبال وما وراءها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ، ولم يتأثروا بعادات الروم ، ولذلك نراهم كثيراً ما قاوموا الروم وحاولوا إجلاءهم عن وطنهم ، ولم يتركوا فرصة للثورة إلا ثاروا عليهم للتخلص من حكمهم . وفى القرن السابع الميلادى تقلص نفوذ الروم من دواخل ليبيا وانحصر فى السواحل .

وفى كل مرة احتلت فيها قرطاجنة كان السبب المباشر فى التغلب عليها هو اختلاف الرؤساء ، وجور الحاكمين ، وتذمر السكان من الذل الذى كانوا يلاقونه من الطبقة الحاكمة .

وكانت طرابلس دائماً تابعة لقرطاجنة ، ومحط أساطيل الدول التى تغلبت عليها فى هذه الحقب الطويلة والأزمان البعيدة ، وكانت قبل الفتح الإسلامى

عامرة بالأشجار والبساتين والمزارع ، وصهاريج المياه ، والسدود التى فى مجارى الأنهار لحبس المياه للانتفاع بها فى الصيف ، والفساقى ، والآبار المحفورة فى الأرض ، والمآجل ، وما زالت آثار هذا العمران موجودة إلى الآن .

وبقيت إفريقية تحت ملوك الروم بالقسطنطينية إلى أن فتحها العرب سنة ٦٤٧ م فأجلوهم عنها . . ولأجل هذا نرى الطليان يقولون إن طرابلس بلدنا ، ولقد كذبوا على التاريخ وخالفوا الحقيقة ، فإن بلادهم الأصلية هى روما وما حولها من بلاد شمال البحر الأبيض المتوسط . وإنما جاءوا إلى طرابلس فاتحين وأخذوها بالقوة من الفينيقيين والوندال ، كما أخذها منهم العرب فى الفتح الإسلامى بالقوة .

وكان من أهم أسباب انهيار الدولة الرومية هو ما سرى فيها من أنواع الترف والانحلال الخلقى والاختلافات الطائفية . وهذه العوامل ما فشت فى أمة إلا أدال الله منها ، وأزالها من الوجود ، واستبدل بها أمة صالحة للبقاء ، وقد كانت هذه الأمة هى الأمة العربية والحمد لله .

فتح برقة [1]

كانت برقة قبل الفتح الإسلامى تابعة للإسكندرية تحت حكم دولة الروم الشرقية ، كما كانت جميع البلاد الإفريقية تابعة لهذه الدولة . وما كاد العرب ينتهون من فتح مصر والإسكندرية حتى اتجهت أنظارهم نحو إفريقية لفتحها ، وتخليص سكانها من ظلم الروم وجبروتهم . وكان فتح مصر والإسكندرية مشجعاً على فتح إفريقية لما وجدوه فيهما من ثروة تمكنهم من جعلهما قاعدة لغزو إفريقية إتماماً لسلسلة فتوحاتهم الموفقة ، ولاستئصال نفوذ الروم من إفريقية .

وكانت أخبار فتح العرب فى مصر والإسكندرية قد انتشرت فى كل البلاد المجاورة لهما . وقد اشتملت هذه الأخبار على ما أبداه العرب من شجاعة فى مقاتلة العدو ، وعلى ما أظهروه من عدالة فى أحكامهم ، ومساواة بين الناس فى الحقوق ، واحترام معابد المسيحيين واليهود وأملاكهم وأعراضهم ، فكانت هذه الأخبار — من حيث شجاعة العرب وإقدامهم — مرهبة لسكان برقة ، ومثبطة لعزائمهم ، ومن حيث عدالتهم وحسن معاملتهم مطمئنة لنفوسهم ، وباعثاً لرغبتهم فى التخلص من حكم الروم الذين سلبوهم نعمة الحرية واتخذوا منهم عبيداً ، ومن برقة مزرعة يعملون فيها ليوفروا لهم رغد العيش ومتع الحياة . وهم محرومون من كل شىء حتى مما يشبع بطونهم ويغطى أجسامهم ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى احتراف اللصوصية لكسب لقمة العيش

* * *

انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية فى النصف الأخير من

(١) برقة : بفتح الباء والقاف غير مضافة . وهذا هو الفتح الأول فى إفريقية .

سبتمبر سنة ٦٤٢ م [١] الموافق لذى القعدة سنة ٢١ هـ ، وسار بجيشه إلى برقة لفتحها ، فلم يحاربه أهلها ، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة — على حرب لا قدرة لهم عليها ، وطلبوا من عمرو الصلح فصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار فرعونى يدفعونها إليه جزية فى كل سنة ، فكانوا يرسلونها إليه بدون أن يحوجوه إلى جابى خراج يرسله إليهم .

وجاء فى رواية هذا الصلح : « على أن يبيعوا من أولادهم فى جزيتهم » .

ويفهم من هذه العبارة أن عمراً شرط عليهم ذلك فى حالة العجز عن الدفع . . وهذا أمر غير مألوف عند العرب فى فتوحاتهم . ولم يؤثر عن عمرو ولا غيره من قادة العرب أنهم شرطوا على المصالحين بيع أولادهم فى دفع الجزية . ويظهر أن البربر هم الذين اشترطوا على أنفسهم توكيداً لالتزام الوفاء ولو أدى ذلك إلى بيع أولادهم . وإلى هذا الرأى ذهب صاحب « فتح العرب للمغرب » : وذكر أن مثل هذا الالتزام كان متعارفاً فى تلك العصور فقد نقل عن المستشرق « ديل روى » : « أن أهل كورسيكة كانوا يبيعون أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية » . ويظهر من هذا أن بيع الأولاد كان أمراً عادياً حتى سهل على البربر أن يشترطوه على أنفسهم لعمرو وكتب فى الوثيقة على أنه التزام منهم لا شرط عليهم . وهذا هو ما يتفق مع ما اعتاده العرب فى فتوحاتهم كلها .

والذى يتفق مع المنطق المعقول أن الذى يهم العرب إنما هو دفع الجزية . أما الطرق التى يتوصل بها المصالحون إلى تحصيلها فهى موكولة إليهم .

وتم فتح برقة سنة ٢١ هـ . وفى بعض الروايات أن برقة فتحت سنة ٢٢ هـ . وقد يكون هذا التاريخ أقرب إلى الصحة لأنه من المعقول أن يبقى عمرو فى

---

(١) فتحت الإسكندرية عنوة . وجاء فى كتاب عمرو يصفها إلى عمر بن الخطاب قوله : « إن فيها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، وأربعين ألف يهودى يؤدون الخراج » . فرد عليه عمر بأن يمنع النهب ، ويحفظ غناها لبيت المال ونشر الإسلام ، (الوافى فى المسألة الشرقية) .

الإسكندرية بعد التغلب عليها حتى تستقر الأمور ويأمن الثورة . وإذا قدرنا أن المسافة بين الأسكندرية وبرقة لا تقل عن عشرين يوماً على أقل تقدير اتضح لنا أن المدة الباقية من شهرى ذى القعدة وذى الحجة لا تكفى لاستقرار الأمور فى الإسكندرية، لذلك يبدو أن القول بفتحها سنة ٢٢ هـ أقرب إلى الصحة .

وكانت « برقة قبل الفتح الإسلامى تسمى « أنطابلس » وهى كلمة رومية معناها بالعربية « خمس مدن » وهذه المدن هى : « طوشيرا » ، وسميت فيما بعد « أوسينولى » . واسمها عند العرب الآن طوكرة . . و « سيرين » . أو قورين . واسمها الآن قرنة . أو شحات. . « وردبرنيق » . وقد بنيت على بعض أنقاضها بنى غازى . . « وأبولونيا » . واسمها الآن سوسة . . « وبارش » ، وسميت فيما بعد أبطوليمائيس . واسمها الآن المرج . . . وهى مدن قديمة أسسها اليونان فى أزمان مختلفة كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى، وكان لها شأن فى التاريخ القديم ، وما زالت معروفة إلى الآن ، وقد أدخل العرب على بعض الأسماء شيئاً من التغيير ليسهل عليهم النطق بها .

وقد خرب العرب أسوار هذه المدن لأغراض حربية وهى الخوف من ارتداد أهلها ومحاربة العرب من وراء الأسوار . ولهذا الغرض نفسه رأينا فى هذا العصر الحديث أن الفرنجة كلما احتلوا بلداً من بلاد العرب ، فأول ما يضعون أيديهم على الحصون وعلى المواقع الحربية ، وكل ما يمكن التحصن به من هجومهم ، ووضعوا فيه من الجند والمدافع ما يمكنهم من صد أى هجوم عربى . وإذا كان المستعمرون الآن عندهم من الجيوش ما يمكن توزيعه على القلاع والحصون ، ومع ذلك فأول ما يبادرون بالاستيلاء على الحصون ومواقع الدفاع ، فإن العرب لم تكن جيوشهم فى بادئ الأمر من الكثرة بحيث تمكنهم من هذا ، لذلك كانوا يضطرون إلى هدم أسوار المدن التى كانوا يفتحونها ، ثم يتركونها ويذهبون إلى غيرها .

وفكرة هدم أسوار المدن المحتلة وحصونها فكرة حربية قديمة يعتبرها الغزاة

من أقوى أسلحة الهجوم ، كما أن إقامة الحصون والأسوار يعتبرها المدافعون من أقوى أسلحة الدفاع . وما زالت هذه الفكرة متبعة الآن فى عصر الذرة والطائرات .

وفى هذا الدور من فتوحات العرب لم يتخذوا عاصمة فى برقة ، بل ولا فى غيرها . وفى القرن الثامن م بنوا مدينة المرج وجعلوها عاصمة برقة ، وما زالت إلى الآن عاصمة الجبل الأخضر ، وهى تقع فى الجنوب الشرقى من مدينة بنى غازى بنحو مائة ك م . وكان من عادات العرب أنهم يبنون عواصم البلاد التى يفتحونها بعيدة عن البحر خوفاً من غزو الفرنجة ، وأيضاً لأنها تكون أقرب لأهل النجعة منهم إلى مراعى حيواناتهم ومنابت زروعهم .

وأطلق العرب كلمة القيروان على فورين . ومن أجل هذا رأينا الطليان كثيراً ما يطلقون كلمة قيروان على هذه الناحية ، كما أطلقوا كلمة برقة على ما يشمل قصور حسان فى سرت . وقد استقرت الأمور على أن يكون الحد الفاصل بين برقة وطرابلس هو المقطاع أو عين الكبريت حيث بنى الطليان قوساً هناك وجعلوه حدًّا فاصلا بين طرابلس وبرقة[١] .

وعاصمة برقة الآن بنى غازى ، وقد بنيت على جزء من مدينة برنيق القديمة .

ومن أشهر مدن برقة — بعد بنى غازى — درنة ، وهى مدينة على الطراز العربى ، بنيت على مكان مدينة درنيس القديمة . وكانت غير مسورة ، وبعد الاحتلال الإيطالى أحاطوها بسور من الناحية الغربية .

ويشقها نهر يجرى ماؤه دائماً من الجنوب إلى الشمال ويبتدئ جريانه من وادى الضحاك بقرب الظهر الأحمر وكلما انحدر إلى الشمال أضيفت إليه عيون أخرى إلى أن يمر بعين منصور قرب المدينة ، وهى من أكبر العيون التى تمد هذا النهر .

---

(١) بنى هذا القوس سنة ١٩٢٩ ، ويبلغ ارتفاعه ٣٣ متراً .

ويوزع ماؤه على بساتين وبيوت المدينة ، وما من بيت إلا وبه بستان يحتوى على كثير من أشجار الفاكهة من البرتقال والعنب ، ويضرب المثل برمانها وموزها فى الجودة . . وأكثر سكان المدينة من أصول طرابلسية هاجروا إليها من طرابلس ، وما زالوا ينتسبون إلى أسرهم الطرابلسية : مصراتة ، وورفلة ، وتاجورة وغيرها .

وقد اشتهرت أراضى برقة بالخصب منذ القدم ، وإذا قدر لها من الأيدى العاملة ما يكفى لإصلاحها فستكون مصدراً للثروة لا ينضب .

فتح زويلة

زويلة مدينة من مدن فزان القديمة ، وتقع فى الجنوب الشرقى من مرزق بنحو ١٥٠ كم ، وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقى بنحو ٧٧٠ كم ، ويعبر عنها بعض المؤرخين بزويلة السودان احترازاً عن زويلة إفريقية التى بناها عبيد الله المهدى بقرب تونس . . وكانت زمن الفتح الإسلامى عاصمة فزان بدل مرزق . . وسميت زويلة بعد الفتح الإسلامى بلد الأشراف ، كما سميت زويلة بنى خطاب ؛ لأن بنى خطاب البرابرة أقاموا فيها ، وأسسوا فيها حكومة ، وسيأتى الكلام عليها . وبقرب زويلة من الجهة الشرقية كثير من قبور الشهداء الذين استشهدوا فى فتحها . ويسميها السكان قبور الصحابة .

ولما كان عمرو بن العاص فى برقة ، وقبل أن يتوجه إلى طرابلس ، أرسل إليها جيشاً من المسلمين بقيادة عقبة بن نافع ، فسار فى الجنوب الغربى حتى وصلها وتم فتحها على يديه سنة ٢٢ هـ ، وفرض على أهلها ٣٠٠ رأس من العبيد . قال فى (المسالك والممالك) : « إنها ليست بجزية ولا خراج » .

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة يخبره بأنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن ما بين زويلة وبرقة أصبح سلماً ، وقد حسنت طاعتهم ، وأدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينها وبين برقة ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها فى الفقراء ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر أو نصف العشر [٢] ، ومن أهل الصلح ما صالحهم عليه .

---

(١) بفتح الزاى وكسر الواو .

(٢) الزرع الذى يسقى بالآلات وفى سقيه مشقة زكاته نصف العشر ، والزرع الذى يسقى بالمطر ، أو بما لا مشقة فيه فزكاته العشر .

وليس فى جواب عمرو ما يدعو إلى الشك الذى وقع فيه صاحب « فتح العرب للمغرب » لأن عمراً كان عنده من الوقت ما يمكنه من تطبيق نظام الزكاة فى برقة ، وبعد فتح زويلة أصبح ما بينها وبين برقة سلماً . وفرض عليهم عقبة ما يطيقونه وهو ثلاثمائة رأس من العبيد . وقد طبق فى كل بلد ما يتفق مع وضعها مما جاء فى كتاب عمرو ، فلا داعى للشك ، ولا يوجد ما يمنع الحقيقة .

سار عمرو إلى طرابلس على طريق الساحل ، وهو آمن أن يؤتى من الجنوب لوجود عقبة فى الجنوب ، كما أمن عقبة أن يؤتى من الخلف أو الشمال لوجود عمرو فى الشمال . وقد خلف كل منهما برقة ، وقد عقدوا معها الصلح وأصبحوا معها فى أمان . وهى خطة حربية حكيمة دلت على مهارة عمرو وعلمه بقيادة الحروب .

ويظهر أن عقبة لم يمر فى طريقه إلى زويلة ببلاد ودان ، لأنه سيأتى أن عمراً أرسل إلى ودان بُسْر بن أبى أرطاة لفتحها . . إذاً فمن المحقق أن عقبة أغذ فى السير إلى زويلة وخلف بلاد ودان عن يمينه ، وأن عمراً لم يأمره بفتحها حتى اضطر عمرو إلى أن يرسل اليها بعثاً آخر وهو يحاصر طرابلس لئلا تكون شوكة فى ظهره ، ولئلا تقطع الطريق على عقبة إذا رجع من فتح زويلة . وسار عمرو إلى طرابلس ، وفى طريقه إليها مر بسُرت ففتحها .

مدينة سرت

سرت بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن [1]. وهى تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ ك م . وتقع فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو٥٥٤ ك م ، وكانت محاطة بسور من التراب . وهى غير سرت المعروفة الآن ؛ لأن سرت هذه أنشئت فى العهد التركى سنة ١٣٠٣ ﻫ .

وقد ذكر العياشى فى رحلته ما يقرب من تحديد مكانها فقال :

مررنا بالزعفران ، وهو أحساء[2] على ساحل البحر ماؤها عذب ، وإلى جنوبيه كثبان من الرمل الأحمر تظهر من بعيد ، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت وهى ثلاثة قصور يخزن فيها العرب ما ثقل حمله . اﻫ .

والمفهوم من كلام العياشى أنها تسامت الزعفران من الجنوب . والزعفران ما زال معروفاً إلى الآن سنة ١٣٨٣ ، ورحلة العياشى كانت سنة ١٠٧٢ وعاد منها سنة ١٠٧٣ .

وتسمى الآن قرارة الأقواس . وقد طرأ عليها هذا الاسم بعد أن خربت وبقيت أكواماً من التراب والحجارة ولأنها كانت بها أقواس قائمة ، ومن أجل ذلك سميت قرارة الأقواس. وما زال الطاعنون فى السن من سكان تلك الناحية يعرفون أنها سرت القديمة . وما زالت بها أكوام من الحجارة والتراب تدل

---

(١) يبتدئ امتداد خليج سرت من مدينة مصراته ، إلى الجنوب حتى بويرات الحسون . ثم يتجه شرقاً إلى العقيلة على مسافة ٥٨٥ كم من مصراته ثم يتقوس إلى الشمال حتى مدينة بنى غازى ، مسافة ٢٨٥ كم ومدينة بنى غازى فى الشرق تقابلها مدينة مصراته فى الغرب ، ويقع خليج سرت جنوبى الخط الاعتبارى الذى يصل بين المدينتين .

(٢) الأحساء : جمع حسى ، وهو بئر قليلة الغور يتجمع فيها الماء بطريق الرشح من جوف الأرض ، وتوجد فى الأراضى الرملية وبخصوصاً على ساحل البحر .

على بقايا قصورها الثلاثة التى ذكرها العياشى فى رحلته . وفى حوالى ٣٠٠ سنة أصبحت أثراً بعد عين . وفى زمن العياشى كان للعرب فيها ثروة وصولة ونفوذ .

ونقل فى حقائق الأخبار عن البكرى أن سكان مدينة سرت (القدماء) ، كانت لهم رطانة يتفاهمون بها ، ليست بعربية ولا قبطية ، ولا بربرية ، ولا عجمية . اهـ . ولا يستبعد أن تكون هذه اللهجة سودانية سرت إليهم من السودان لكثرة الاتصال بهم بسبب التجارة .

فتح مدينة سرت

مر بها عمرو فى طريقه إلى طرابلس ففتحها ، ولم يجد عناء فى فتحها ، ولم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً ، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر ، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام ، وساروا فى طريقهم إلى طرابلس ، ومروا فى طريقهم إليها بلبدة .

لبدة [١]

كانت منطقة لبدة موطناً لجماعات بشرية فى عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك بعض حجارة وجدت على ضفاف وادى الرملة ، وقد أسس بها الفينيقيون المراكز الأولى للبدة وصبراتة .

ولبدة مدينة عظيمة من مدن الشمال الإفريقى الكبرى، أسسها الفينيقيون فى أوائل القرن العاشر ق م . عند بداية استعمارهم إفريقية . وهذا التاريخ يقرب من تاريخ إنشاء قرطاجنة . وكانت معروفة عند القرطاجنيين باسم « لبكى » ، وقد حرفها اليونانيون إلى « لبشس » . وبقيت هذه الكلمة مستعملة إلى القرن الثالث ق م . ثم حرفت فى اللغة اليونانية من « لبشس » إلى « لبتس » لسهولة النطق فى اللغة اليونانية بكلمة « لبتس » عن « لبشس » . . وبما أن « لبتس » اسم لمدينة فى « بيزاشينا » [٢] خافوا أن يحصل التباس بين المدينتين ، فأضافوا إلى لبتس الإفريقية كلمة « مانيا » ، فصارت « لبتس مانيا » ومعناها لبدة العظيمة ، أو لبدة الكبيرة .

---

(١) ملخص ما ترجمه ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتى من دائرة المعارف الإيطالية .

(٢) لعلها من البلاد اليونانية .

وقد استطاع الفينيقيون أن يعمروا البلاد بسرعة نظراً لخصوبة أرضها، واعتدال مناخها وصلاحيته للسكنى، ولأن لها ميناء مأموناً وصالحاً للملاحة ولوقوعها على نهر عين كعام [١]، الذى يقع شرقيها بقليل.. ومما زاد فى سرعة عمرانها العلاقات الطيبة التى نشأت بين السكان والفينيقيين نتيجة لحسن معاملتهم لهم [٢].

وذكر هيرودوت واقعة كبيرة وقعت عند مصب «شنبس» وادى عين كعام. ويستنبط بعض المؤرخين أن هذه الواقعة كان لها أثر سيئ فى تأخر لبدة وتدهور حضارتها.. وقد اعتراها الانحطاط فى أواخر القرن السادس ق م وفى هذا الوقت حاولت عصابة من اليونان برياسة الأسبرطى ديور أن تنشئ مستعمرة عند مصب نهر «شنبس» نهر عين كعام، منتهزة فرصة ما اعترى لبدة من التأخر والانحطاط، وقد تم لها ما أرادت.

وكانت تقصد إلى أن تحل محل الفينيقيين فى هذه المنطقة. ولكن القرطاجنيين خافوا تسرب نفوذ اليونان غربى سرت فلم يلبثوا أن هاجموها وخربوا مستعمرتها وطردوها هى ومن معها، ولم يمكنوها من الرجوع مرة أخرى. واستولوا على لبدة وما حولها، وأعادوا إليها ما فقدت من عمرانها وحضاراتها [٣].

وتوطد ملك القرطاجنيين فيما بين السرت الكبير والسرت الصغير [٤]، وأطلق على هذه المنطقة اسم «أمبوريا»، وصارت جزءاً من أملاك الإمبراطورية القرطاجنية، وبقيت لبدة المركز الرئيسى للمنطقة فيما بين السرتين، وتتمتع باستقلال داخلى.. وبقيت تحت حكم القرطاجنيين إلى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد.

---

(١) كان يسمى نهر «شنبس».

(٢) لم نطلع على ما كان بينها وبين المدن الإفريقية من علاقات

(٣) يظهر أن اليونانيين جاءوا إلى لبدة من برقة، وقد ترتب على تغلب القرطاجنيين على اليونان أن أقيمت الحدود بين مملكة قرطاجنة واليونان فى برقة.

(٤) السرت الكبير هو خليج قابس بتونس. والسرت الصغير هو خليج سدرة بليبيا.

وفى أوائل هذا القرن أصبحت تابعة للنوميديين فى الفترة ما بين الحربين القرطاجنتين الثانية سنة ٢١٨ ، والثالثة سنة ١٤٩ . وكانت تبعيتها للنوميديين شكلية لأنها كانت مقصورة على دفع الجزية .

وفى سنة ١١١ ق م أرسلت وفداً إلى روما طالبة صداقتها والتحالف معها للتخلص من حكم النوميديين . وفى سنة ١٠٧ ق م . أمدتها روما بأربع كتائب من الجنود لمحاربة النوميديين . ويظهر أنها لم يمكنها التغلب عليهم ، وبقيت تحت سيادتهم الإسمية متمتعة باستقلالها الداخلى إلى أن احتلها الروم سنة ٤٢ ق م ، وانتهى حكم النوميديين .

وبدخولها تحت الروم صارت جزءاً من إفريقية . هذا بالنسبة للسواحل أما الدواخل فبقيت تحت سلطة حاكم من نوميديا حتى أوائل القرن الثالث م حيث أقيم خط دفاع ضد سكان الجنوب ، وسموه ليمس تريبوليتانوس .

وقد تعرضت لبدة لغارات الجرمنتيين فيما بين سنتى ٢٤ و ١٧ ق م ، واستعانوا بقبائل أخرى من الجنوب ، وذلك بسبب نزاع قام بينها وبين « أويا » طرابلس الآن بسبب اختطاف الماشية ، والتعدى على بعض الأشخاص ، فاستنجدت « أويا » ، طرابلس بالجرمنتيين وبعض قبائل الجنوب ، فخفوا لنجدتها ، وهاجموا لبدة فتغلبوا عليها ، وخربوا ضواحيها ، واضطر السكان إلى الاحتماء بأسوار المدينة حتى أدركهم « فاليريوفيستو » بجيشه وطرد الجرمنتيين ، وأعاد إلى المدينة طمأنينتها وما فقدته من أهمية كانت تتمتع بها كمحطة للقوافل . التى كانت تصل ساحل البحر الأبيض بالجنوب والسودان .

وفى سنة ١٤٦ م ظهر فى لبدة « ستيميو سيفير » وهو من إحدى الأسر الكريمة فيها ، فتولى عرشها ، فعنى بشئونها ، ونشر فيها العلم والأمن ، وأمعن فى مطاردة المعتدين عليها من قبائل الجنوب حتى أقصاهم عنها . وعنى برقيها الداخلى ، فوفر لها سبل الحياة الصالحة بما أنشأ فيها من وسائل العمران والتقدم . . وتقديراً لأعمال هذا الرجل المصلح واعترافاً بإخلاصه أطلق السكان على أنفسهم اسم الستيميين تيمناً باسم ستيميو ، واشتهروا بذلك .

وفى القرن الثالث الميلادى – زمن الإمبراطور سيفيروس سيبتيموس ، من سنة ١٩٣ إلى ٢١١ م . وزمن ألكسندر سيفيروس[1] من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٣٥ م ، بلغت لبدة مبلغاً عظيماً فى الحضارة والتقدم العمرانى . وفى هذا العصر كان سكانها خليطاً من القرطاجنيين والروم واليونان والليبيين ، وبلغ عددهم ثمانين ألفاً . وكانت أويا « طرابلس » فى هذا العهد لم تبلغ شأواً يمكنها من مزاحمة لبدة فى النفوذ والسلطان .

وفى القرن الرابع أصدر دقيانوس أمره بإعطاء أويا لقب ولاية . وكانت لبدة لها الصدارة ، فأخذت أويا تزاحمها فى صدارتها ومكانتها .

وفيما بين سنتى ٣٦٣ ، ٣٦٦ من القرن الرابع م اعتدى الاستريانيون على ولاية لبدة فألحقوا بها أضراراً بالغة [2]، وخصوصاً بالمدينة حتى ساءت أحوالها وأخذت فى الانحطاط حتى طمع فيها الوندال .

وفى سنة ٤٥٥ م احتلها الوندال [3]، ولكنهم لم يعنوا بها وتركوها للفوضى ، وامتدت إليها يد النهب والسلب من القبائل البربرية المقيمة فى المدينة وحولها ، وأكبرها قبيلة لواتة [4]. وفى هذه الفترة أصيبت بفيضان كبير من وادى عين كعام فحطم الجسور والأسوار ، وكان له أسوأ الأثر فى شل الأيدى العاملة ، وتسرب اليأس إلى النفوس من القدرة على الإصلاح . فأهمل شأنها ، وزحفت الرمال عليها ، ودبت روح التمرد فى القبائل القاطنة حولها . ولم تأت سنة ٥٣٣ م

---

(١) ولد فى طرابلس ، وعنى ببرقى المدن الثلاث ، فكانت تأتيها القوافل المشحونة بالعاج والذهب ، وخشب الأبانوس ، وريش النعام والعبيد . وكانت هذه البضائع تصدر من موانى المدن الثلاث إلى أسواق روما وجنوبى أوربا . وكان زيتونها خير ما ينتج فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

(٢) وفى بعض الكتب أن قبيلة بربرية خربتها سنة ٣٧٠ م ، وهذا يوافق زمن احتلال الروم الأول لقرطاجنة

(٣) يلاحظ أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة ٤٣٥ م . وجاء فى كتاب جوزيف كاكيا عن طرابلس : أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة ٤٢٩ م ، وهذا يخالف ما نقلناه عن دائرة المعارف الإيطالية . واحتلوا صقلية سنة ٤٤٠ م ، وروما سنة ٤٥٥ م ، ومالطة سنة ٤٥٦ م .

(٤) كان الوندال ولواتة كل منهما يناصر الآخر .

حتى حولت هذه القبائل الفوضوية المدينة إلى خراب ، وطمع البيزنطيون فى احتلالها .

وفى سنة ٥٣٣ م احتل البيزنطيون لبدة . وكان احتلالهم لها بداية عهد جديد لعمرانها واسترداد بعض ما فقدت من حضارتها واتخذت مقراً للحاكم العسكرى . وقد أصلح جوستنيان كثيراً مما امتدت إليه أيدى الفساد فى العهد الذى قبله . وأدخل عليها الروم من فنون العمارة والزخرفة ما زاد فى ضخامتها وجمالها . يشهد بذلك ما اكتشف من آثارها الجميلة زمن الاحتلال الإيطالى من سنة ١٩١١ إلى أواخر سنة ١٩٤٢ .

ولكن اللواتيين دأبوا على الثورة والتخريب ، ولم يخضعوا لما أقيم فى لبدة من حكم وانتهى الأمر بانسحاب حاكم البلد « سيرجو » منها .

وبعد جوستنيان أخذت البلاد فى الانحطاط ، والسير إلى الخراب بخطى واسعة .

وفى سنة ٦٤٣ م وصلت إليها طلائع العرب الأولى للفتح الإسلامى ، فلم تجد فى لبدة من العمران إلا بقايا من قصورها العظيمة ودورها الفخمة ، وإلا بقايا من السكان خليطاً من أجناس متعددة يعيشون فيما بقى من خرائب دورها وقصورها . وقد مر بهم العرب الفاتحون فى ذهابهم وإيابهم ، فلم يكن لهم معهم شأن ، نتيجة لما هم فيه من ضعف واستكانة ، وفقر مدقع .

وقد أتت الكاهنة على ما بقى فيها قابلا للإصلاح ، كما أتت على عمران غيرها من مدن إفريقية .

وتقع لبدة شرقى مدينة طرابلس بنحو تسعين ك م ، وقد أكل البحر جزءاً كبيراً منها . وبنيت مدينة الخمس فى أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها .

ولما بنى مراد أغا جامعه الذى بتاجورة نقل إليه منها أعمدة الرخام التى أقامه عليها . وكثيراً ما نقلت منها أعمدة الرخام للجوامع .

فتح لبدة

مر بها المسلمون فوجدوها خراباً مهدمة ، وحواليها قليل من السكان خليطاً من البربر والروم ، ولم ينقل أحد من المؤرخين أنهم وجدوا فيها أى مقاومة . وواصلوا سيرهم إلى طرابلس .

وكانت فى قديمها على جانب كبير من العظمة العمرانية والأبهة المدنية .

وقد كشف الحفر فيها عن آثار فى غاية الروعة وجمال الفن . . وقد وضع ما أمكن نقله فى متحف خاص هناك . . أما بقايا القصور الضخمة ، وأعمدة الرخام وغيرها مما لا يمكن نقله فما زالت فى أمكنتها ماثلة للعيان تسترعى النظر وتبهر العقول .

ولم ينته الحفر فيها إلى غايته . وكثير من روائع فنها ما زال مدفونا .

طرابلس الغرب

نبذة من تاريخها القديم

طرابلس مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال ، أو قرطاجنية .

وفى حوالى سنة ٧٩٥ ق م ، شمل النفوذ القرطاجنى ما بين خليج قابس وخليج سرت ، وأسسوا موانى صبراتة ، وأويا ، ولبتس مانيا ، وربطت هذه المنطقة مع إفريقية بطرق القوافل ، ومع قرطاجنة بطريق ساحلى يبلغ طوله ٥١٢ ميلا .

والثابت أنها أنشئت بعد صبراتة ولبدة ، ولم يعين أحد زمن إنشائها وكانت أقل منهما أهمية ، وكانت تسمى « أويا [1] » .

وفيما بين سنتى ٢٤ ، ١٧ ق م حصلت فتنة بين لبدة « وأويا » طرابلس بسبب نهب بعض الماشية ، فأرسلت لبدة رسلا إلى « أويا » ، طرابلس للتفاهم وإزالة الخلاف ، فاعتدوا عليهم ، وازدادت الفتنة حتى انقلبت إلى حرب بين الطرفين .

وكان الجرمنتيون إذ ذاك يسكنون فزان ، وكان لسكان أويا صلة بهم فاستنجدت أويا بالجرمنتيين وبعض سكان الجنوب على لبدة ، فأنجدوها وهاجموا لبدة فتغلبوا عليها ، وخربوا ضواحيها ، والتجأ السكان إلى المدينة ،

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن إسمها « أوايات » ويظهر أنه اسم بربرى حرفه الروم إلى « أوا » ، وأن أوا كانت مدينة قديمة ، فخربت وبنيت على أنقاضها مدينة طرابلس الآن .

وذكرت فى دائرة المعارف الإيطالية باسم « أويا » فكتبناها كما جاءت فيها . . . وذكر فى بعض المصادر أن اسمها « أناس » ولا أعلم مبلغ صحته .

فدافع عنها « فاليريوفيستو » وطرد الجرمنتيين [١] .

وفى أوائل القرن الثالث الميلادى أقيم خط دفاعى ضد الهجوم من قبائل الجنوب وسمى هذا الخط « ليمس تريبوليتانوس » ، ومنذ ذلك الحين أطلق اسم « تريبوليتانوس » على المنطقة الواقعة بين السرتين : السرت الكبير وهو خليج قابس ، والسرت الصغير وهو خليج سرت . .

وكلمة « تريبوليتانوس » تفيد معنى « إقليم المدن الثلاث » ، وهى لبدة ، وطرابلس ، وصبراتة . . ومع طول الزمن وكثرة الاستعمال اختصرت إلى تريبولى ، ومعناها أيضاً المدن الثلاث ، لأن كلمة «ترى» معناها ثلاثة، وكلمة « بولى » معناها مدينة .

ومما يدل على أن كلمة تريبولى تشمل الإقليم كله أن الطليان بعد احتلالهم طرابلس سنة ١٩١١ ، كانوا يسمون كل مدينة باسمها ، فيقولون لبتس ، وصبراتة ، وأويا .

وكانت أويا فى منتصف القرن الثالث الميلادى مركزاً دينيًّا مسيحيًّا .

وفى العهد الرومى ، وقبل عهد دقيانوس كان نظام الحكم فى المنطقة الواقعة بين السرتين أن يكون فيها نائب للملك ، وحارس على أموال الإمبراطورية .

وفى القرن الرابع الميلادى أصدر دقيانوس أمره بإعطاء « أويا » طرابلس ، لقب ولاية وأصبحت عاصمة المنطقة كلها . ومن ذلك الحين أخذت تزاحم

---

(١) الجرمنتيون : سكان جرما عاصمة فزان إذ ذاك ، وما زالت آثارها موجودة (انظر فزان) . وقد أطلقت دائرة المعارف الإيطالية على الجرمنتيين كلمة بربر ، ولا ندرى هل هم من البربر حقيقة ، لأن البربر كانوا موجودين فى إفريقية إذ ذاك ، أو لأنهم كانوا يطلقون كلمة بربر على القبائل الهمجية فأطلقت عليهم لهمجيتهم .

ويلاحظ أن الصلة بين طرابلس وفزان كانت موجودة من قبل الميلاد ، وقد تطورت هذه الصلة مع الزمن حتى أصبحت فزان تابعة لطرابلس . واستمرت هذه التبعية زمناً طويلا قبل العهد التركى ، وطول العهد التركى ، وأيام الاحتلال الإيطالى . وهذا مما يدحض أكاذيب الفرنسيين من أن فزان تعتبر امتداداً للقطر التونسى فهى تابعة لتونس . وهذا كذب على التاريخ ، وإخفاء للحقيقة لإشباع الرغبة الاستعمارية التى أنست المستعمرين كل صفات الإنسانية التى تميزهم عن البهائم ووحوش الصحراء .

لبدة فيما كان لها من الصدارة ، وما كانت تمتاز به من الأهمية التجارية والعمرانية . وقد شجع « أويا » طرابلس ، على هذه المزاحمة ما أحاط بلبدة من ظروف التأخر والانحطاط بسبب ثورات بربر لواتة وأنصارهم .

وفى زمن دقيانوس كان لهذه المنطقة حكومة إقليمية مستقلة لها حاكم مدنى وحاكم عسكرى .

* * *

ذكرنا فيما تقدم أن الفينيقيين هم أول من أسس مدينة طرابلس فى زمن غير معين ، إلا أنهم لم يحيطوها بسور . ولما احتل الروم الشمال الإفريقى ، وتولى أسفاروس قيصر (أحد قياصرة الروم) أحاطها بسور من الشرق ، والغرب والجنوب [١] . . . وعلى الرغم من أنها إحدى المدن الثلاث التى أطلق عليها الروم كلمة تريبولى فإنها لم يكن لها من أبهة المدن وعظمتها ما كان للبدة ، وصبراتة ، لا فى الاتساع ، ولا فى ضخامة البناء ، ولا فى الزخرفة والفن المعمارى . وكانت فى زمن قرطاجنة مشمولة بنفوذها دائماً ، وكل دولة تستولى على قرطاجنة تستولى على طرابلس .

وكانت طرابلس زمن الفتح الإسلامى تابعة لدولة الروم بالقسطنطينية التى كانت تسمى بيزنطية [٢] ، وكانت ولاية واحدة مع برقة تابعة لمصر . . ويقول بعض المؤرخين إنها كانت تابعة لجرجير حاكم سبيطلة . ولكن مؤرخاً واحداً ممن اطلعت على كتبهم لم يذكر أن جرجير حاول الدفاع عنها من غزو العرب بأى وسيلة ، بل ولا عن صبراتة وشروس . وانتهى عمرو بن العاص من فتح منطقة تريبولى كلها ، وجرجير قابع فى سبيطلة لم يحرك ساكناً وهذا يدل على أنها لم تكن تابعة له ، وإنما كانت تابعة لنفوذ مصر كما قدمنا .

---

(١) أكمله هرثمة بن أعين من الشمال سنة ١٧٩ هـ .

(٢) انقسمت دولة الروم سنة ٣٩٥ م إلى قسمين : غربية وعاصمتها روما ، وشرقية وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية) .

وفى زمن الفتح الإسلامى كان أكثر سكان المدينة الروم الذين نسميهم الآن الطليان ، أما خارج السور إلى فزان فكان يسكنه قبيلة هوارة ، وغيرها من قبائل البربر ، وتسكن نفوسة الجبل ، وتسكن لواتة برقة وسرت مما جعلهم يغيرون على لبدة .

فتح طرابلس

لما انتهى عمرو من فتح برقة سار فى طريقه إلى أن وصل طرابلس ، ولما وصلها ، قال ابن عبد الحكم : نزل على القبة التى على الشرف من شرقيها . ولا شك أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب المعروفة الآن ، لأن الشيخ الشعاب توفى سنة ٢٤٣ ﻫ . وابن عبد الحكم ألف كتابه فى النصف الأول من القرن الثالث ، وتوفى سنة ٢٥٧ بعد وفاة الشيخ الشعاب بأربع عشرة سنة ، فمن المعقول أنه روى عمن أخبره بوجود القبة فى مكان مرتفع كما هو الواقع ، فنقل هذه الرواية الصحيحة كما هو مشهور عنه فى دقة النقل .

ولما حاصرها المسلمون امتنع أهلها عن التسليم ، وتحصنوا داخل السور .

ويقول صاحب البيان المغرب : إن سكانها استنجدوا بسكان جبل نفوسة ، لأنهم اعتنقوا النصرانية تبعاً للروم الذين كانوا يحكمونهم . ولو صح هذا الاستنجاد لوجد العرب مقاومة من قبيلة نفوسة التى جاءت من الجبل لنجدة من بداخل السور ، ولكن واحداً من المؤرخين لم يذكر أن العرب وجدوا أى مقاومة خارج السور ، مما يبعث الشك فى هذه الرواية . ولعل جماعة من بربر نفوسة كانوا داخل السور وقت حصار المدينة ، فاعتبرهم بعض المؤرخين نجدة .

وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه ، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه .

وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق ، والغرب ، والجنوب ، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر .

وبقى المسلمون على حصارها نحو شهر لايقدرون منها على شىء ، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة

فلم يجدوا . . . وفى ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف ، أو للصيد كما يقول ابن عبد الحكم ، وكانوا مسلحين بسيوفهم ورماحهم ، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا ، وقد يكون البحر فى حالة جزر مما زاد فى اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر ، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة ، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة ، وهو مكان مرتفع يقع فى الشمال الغربى من المدينة ، وقد أعملوا سيوفهم فى رقاب الروم ، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير (١) ، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم ، وتكاثر المسلمون ، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار ، وتدافعوا فى الطرقات المؤدية إلى السفن التى كانت راسية على شاطئ المدينة ناجين بأنفسهم إلى عرض البحر ، واستولى المسلمون على المدينة وغنموا كل ما فيها ، وكانت غنائم كثيرة ، باعها عمرو وفرق ثمنها على المسلمين .

ولم يبد الروم أى مقاومة لا خارج السور ولا داخله . وقد أصابهم من الخوف والذعر — حينما اقتحم العرب عليهم المدينة — ما دل على انهيار قواهم وعدم استعدادهم للحرب ، وعلى أنهم كانوا فى حالة ضعف وانحلال لا تقل عن الحال التى كان عليها أهل برقة ، نتيجة لاضطهاد البيزنطيين ، وفساد حكمهم وقسوتهم فى جباية الأموال حتى أصبحوا فى حال فقر مدقع .

وقد استغرب صاحب « فتح العرب للمغرب » كيف يمكن لهذا النفر القليل من المسلمين أن يقتحموا مدينة على أهلها ، وقال إنها اشتبهت على من رواها بقصة فتح بابليون فى مصر .

ومن رأيى أن القصة لا غرابة فيها ، ولا تستدعى الطعن فى راويها . فقد ذكر ابن عبد الحكم أنه « خرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من عسكر

---

(١) كان المسلمون إذا اختلطوا بالعدو وقت الحرب هللوا وكبروا : أى قالوا الله أكبر ، يقصدون إرهاب العدو بهذه الكلمة المقدسة .

عمرو متصيداً فى سبعة نفر» ، وذكر قصة لا تخرج عما ذكرنا . وأكثر المؤرخين ذكر القصة بدون لفظ المدلجى . وذكر بعضهم أن المدلجى ومن معه لم يدخلوا المدينة وحدهم بل ندبوا معهم جماعة . وهذا ينفى ما تخيله المؤلف من الغــرابة وقد أجمعوا على أن العــرب دخلوا المدينة من غير أبوابها ولم يذكروا كيف دخلوها إلا ابن عبد الحكم والذين تابعوه على رواية القصة بذكر المدلجى أو بدونه . والذى يعرف طبيعة الأرض من الناحية التى دخل منها العرب ، ومن الناحية التى كان يعسكر فيها جيشهم ، وبعد مسافتها على السور لا يستغرب ذلك ، فإن الجهة التى دخل منها العرب تؤدى إلى مرتفع من الأرض يقرب من ارتفاع السور إذ ذاك وهو يقع بجوار كنيسة قديمة ، وما زال مرتفعاً إلى الآن . والعرب كانوا يعسكرون على مرتفع من الأرض خارج السور يقرب من ارتفاع السور على مسافة منه لا تزيد على كيلومتر تقريباً ، يضاف إلى هذا ما استولى على نفوس الروم من الخوف والفزع ، وما يشعرون به من الضعف وعدم القدرة على المقاومة ، فبمجرد أن اقتحم العرب المدينة ، وصعدوا إلى المكان المرتفع الذى أشرنا إليه ، وعلت أصوات النصر من العرب ، وأصوات الخوف من الروم سمعهم من كانوا خارج السور ، فأسرعوا إليهم ، وطبيعة الأرض إذذاك لاتنافى سماع الصوت وقدلاتنافى الرؤية أيضاً . . ولو اطلع صاحب « فتح العرب للمغرب » على طبيعة الأرض لما وجد فى الأمر غرابة ، ولعلم أن هناك فرقاً كبيراً بين سور طرابلس إذ ذاك وحصن بابليون ، وبين قوة الأقباط فى مصر وقوة الروم فى طرابلس . ولعل هذه الغرابة سرت إليه من تشككات المستشرقين فإنه كثيراً ما يروى عنهم فى كتابه هذا .

ولما تم استيلاء العرب على المدينة أمنوا من بقى فيها ، وكفلوا لهم أموالهم ومنعوا التعدى على أعراضهم ومعابدهم وأنفسهم .

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة ، مما يدل على أنهم كانوا فى حكم المستسلمين . . ويقال إن المسلمين بنوا فيها مسجداً ، وأن مسجد أحمد باشا بنى على أنقاضه .

وقبل أن يغادرها المسلمون هدموا سورها ، لأنهم يخافون من انتقاض الروم عليهم وتحصنهم بالسور ، خصوصاً وأن المسلمين كانوا قليلين بالنسبة للروم وأنصارهم ، وكان العرب حديثى عهد بالبلاد ، وكانت عاصمة المسلمين التى يأتيهم منها المدد بعيدة وهى إذ ذاك المدينة المنورة .

وكل هذه مبررات لتخريب الحصون وهدم الأسوار . . وتم فتح طرابلس سنة ٢٢ ه .

صبراته[1]

مدينة قديمة ، تقع غربى مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط . . أنشأها الفينقيون حوالى سنة ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق م . وهى من أعظم المدن التى كانت فى الشمال الافريقى . وكانت أكبر من طرابلس ، وأعظم منها عمراناً ومدنية ، وأروج تجارة . وكانت مركزاً من أهم المراكز التجارية الفينيقية فى إفريقية لسهولة مينائها ، وارتباطها بالدواخل بواسطة الطرق التجارية وكانت تحت نفوذ قرطاجنة ،

وقد اتخذت لها موقفاً وديًّا مع الروم فى حروبهم مع القرطاجنيين . وكانت هى وأويا ولبدة إقليماً واحداً هو إقليم طرابلس الآن ، وفى ذلك العهد كان يطلق عليه كلمة تريبولى ، إلا أنها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الداخلى .

وفى بداية القرن الثانى الميلادى تحسن مركزها السياسى ، وأصبح لها حق سك النقود ، ونالت قسطاً كبيراً من الازدهار والتقدم . ولم يدم هذا الازدهار طويلا .

---

(١) ملخص مما ترجمه لنا ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتى من دائرة المعارف الإيطالية . كان العرب يسمونها صبرة . قال فى الروض المعطار : صبرة مدينة بناحية طرابلس افريقية .

وفى القرن الثالث الميلادى أدركتها الشيخوخة ودخلت فى دور الانحطاط وفى القرن الرابع كثرت فيها الثورات الداخلية ، وامتدت أيدى الثوار إلى السلب والنهب ، وصارت بحالة من الضعف لفتت إليها أنظار الوندال فاحتلوها حوالى منتصف القرن الخامس م فدمروها . ثم احتلها البيزنطيون فى القرن السادس الميلادى . وفى حوالى النصف منه أمكنهم أن يعيدوا إليها شيئاً من الرخاء والطمأنينة ، وأعادوا بناء أسوارها ولكن على محيط أصغر وأصلحوا كثيراً مما أفسده الوندال ، وأضافوا إليها من فن العمارة الشىء الكثير . وقد كشف الطليان عن بعض آثارها بعد أن احتلوا طرابلس سنة ١٩١١ ، فظهر فيها من آثار الفن وأبهة المدنية ما يبهر العقول .

وقد زرتها فى نوفمبر سنة ١٩٥٠ وشاهدت ما كشف الحفر عنه من تماثيل آدمية[1] وحيوانية ما زالت فى غاية الابداع والاتقان . ووجدت فيها مقادير كبيرة من الفسيفساء ما زالت محتفظة بنضارتها وألوانها الزاهية ، كما كشفت الحفر فيها عن ملهى ما زال محتفظاً بمدرجاته ومسرحه ، وغرفه المطلة عليه ، وفيه كثير من الأجزاء لاتحتاج إلى إصلاح .

وقد بنى الطليان مكاناً فى وسط آثار المدينة التى ما تزال قائمة فى كل مكان منها ووضعوا فيه ما عثروا عليه من صور وتماثيل آدمية وحيوانية ، وكل ما كان صالحاً للبقاء . ووضعوا فيه ما عثروا عليه من فسيفساء ، ونسقوها تنسيقاً فنياً رائعاً غاية فى الجمال والروعة . وإنك لتجد تمثال الإنسان منحوتاً من الرخام ما زال محتفظاً بجميع أجزائه حتى بتجعد شعره وطوايا ملابسه ، وحتى بمميزات الذكورة والأنوثة .

---

(١) توجد مثل هذه التماثيل فى كرزة – مكان فى بادية أولاد أبى سيف ومن أملاكهم – ما زالت متماسكة الأجزاء ومحتفظة بمميزاتها . وتسميها العامة المساخيط ويعللون ذلك بأنهم كانوا يعصون الله كثيراً فسخطهم ، يعنى بدل صورهم من آدمية إلى حجرية . . وكان البربر قبل الفتح الإسلامى يسكنون هذه الجهة . وبها صنم كانوا يقربون له القرابين ويتبركون به فى أموالهم ، ويستشفون به من أمراضهم . انظر كتاب (المغرب) .

فتح صبراتة

لا شك أن أخبار حصار العرب لطرابلس وصلت إلى صبراتة ، وليس من المعقول أن يبقى العرب محاصرين لطرابلس نحو شهر ، ولا تصل أخبارهم إليها ، خصوصاً لما بينها وبين طرابلس من الروابط . . ويظهر أنه لما طال حصار العرب لطرابلس ظن أهل صبراتة أنهم لا يقدرون على فتحها ، فاستكانوا لهذا الظن وأمنوا . وإذا عجز العرب عن فتح طرابلس — فى ظنهم — فهم عاجزون عن فتح صبراتة من باب أولى ، لأن سورها أقوى من سور طرابلس وسكانها أكثر من سكان طرابلس ، فلم يهتموا لأمر العرب كثيراً ، ولم يعملوا على وقاية مدينتهم من إغارة المسلمين . وبغير هذا التخمين لا يمكن أن يفسر كيف أخذوا على غرة ، وقد علموا بوصول العرب إلى طرابلس وحصارهم لها . وقد نقل ابن غلبون ما يؤيد هذا الرأى .

ولما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالاسراع بالمسير إلى صبراتة لفتحها ، وبقى هو فى طرابلس للإشراف على أمورها وأسرعت الخيل فى المسير برياسة عبد الله بن الزبير فصبحوها من ليلتهم على غرة . فوجدوا أبواب السور مفتوحة ، وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى ، فاقتحموها عليهم بالقوة ، وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ولم يهرب منهم أحد كما وقع فى طرابلس . ويقول التجانى : ولم ينج منها إلا من ركب البحر إلى صقلية ، وقد هدم سورها خوفاً من تحصن الروم به مرة ثانية ، واستولى المسلمون عليها ، وغنموا كل ما فيها ، وكان شيئاً كثيراً ، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص فى طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم وبالنصر الجديد الذى أحرزوه على الروم ، فحضر إلى صبراتة . وبعد أن تم استيلاؤهم عليها رتبوا من أمورها ما أمكنهم ترتيبه . وقد خربوا سورها للأسباب التى ذكرناها آنفاً . ثم ارتحلوا عنها قاصدين مدينة شروس بجبل نفوسة .

ولم يتأثر مركزها التجاري بالفتح العربي ، فبقيت محتفظة به . وكانت تسمى بالسوق القديم إلى أن نقل عبد الرحمن بن حبيب السوق منها إلى طرابلس سنة ١٣١ ﻫ .

زوّاغة

تقع مدينة زواغة غربي صبراتة بنحو عشرة كم ، وهي مدينة بربرية كانت تسكنها قبيلة زواغة البربرية . وهي غير موجودة الآن وليس فيها من الآثار ما يلفت النظر ، وما زالت تعرف إلى الآن بهذا الاسم . ولم يأت ذكر لمدينة زواغة في الفتح الإسلامي لأنها كانت تابعة لمدينة صبراتة . ويظهر أن سكانها استسلموا حينما رأوا ماحل بصبراتة .

جبل نفوسة

هو سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق ، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تبتدئ من بحر الظلمات ، وتمر بمراكش ، والجزائر وتونس ، وطرابلس ، وتنتهي إلى جبال قُماطة ، وهي الهضاب التي تسمى « النقّازة » غربي مدينة الخمس بقليل . وكان جبل نفوسة ، وما زال إلى الآن ، موطن البربر ، ومحل إقامتهم الدائمة ، وممتلكاتهم الخاصة .

وبعد أن استقر العرب في إفريقية شاركوا البربر في سكناه وأنشأوا فيه كثيراً من القرى الخاصة بهم . وتجد في سفوحه الشمالية والجنوبية كثيراً من الأراضي الخصبة والمراعي الفسيحة .

وفيه عيون جارية : عين الترك في غريان . وعين الرومية في يفرن . وعين الريانة ، وعين الرابطة . والعين الزرقاء . وعين أم القرب « ننّاتالة » وهي

تختلف فى اندفاع الماء منها قوة وضعفاً . وأكثرها نفعاً للزراعة عين الرابطة ، وعين الرومية فى يفرن . وسمى جبل نفوسة باسم قبيلة نفوسة البربرية التى كانت وما زالت تسكنه ، وهى من أكبر قبائل البربر . ونفوسة بفتح أوله وضم الفاء مخففة .

مدينة شروس

ويقال لها سروس — بمهملتين — وهى من أكبر عواصم البربر القديمة فى جبل نفوسة التى كانت موجودة زمن الفتح. وما زالت خرائبها إلى اليوم . وكانت إحدى عاصمتى الجبل . وكانت تحتوى على نحو ٣٠٠ قرية . والعاصمة الأخرى هى جادو على ما نقله الحموى وغيره .

ولما انتهى العرب من فتح صبراتة ساروا إلى شروس لفتحها. وما زالوا بها حتى فتحوها ، وكان أهلها نصارى . ولا ندرى هل فتحت صلحاً أو عنوة لأننا لم نر أحداً ذكر ذلك ، ولم يشأ عمرو أن يتقدم إلى الغرب لقلة القوة التى معه ، ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والبربر ما زالت أمامه ، وأيضاً فإن عيونه أخبرته بكثرة تجمعات الروم والبربر فى تلك المدن ، من أجل ذلك ، وتنفيذاً لما تقتضيه الخطط الحربية ، أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى التقدم ، حتى إذا أذن له اتخذ من هذا الإذن وسيلة لطلب المدد ، فكتب اليه قبل أن يغادر شروس— وكان عمر فى المدينة المنورة — يستأذنه فى فتح إفريقية بعد أن فتح عليه أطرابلس وهذا نص كتابه :

« إن الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » .

فلم يوافقه الخليفة على تقدم المسلمين فى إفريقية. ورد عليه بكتاب هذا نصه :

« لا ، إنها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت » .

ولما كان عمرو فى مصر اتفق مع المقوقس أن يخبره بكل ما يحدث بعده فى مصر . وبعد أن انتهى عمرو من فتح شروس وقبل أن يرتحل عنها أتاه كتاب من المقوقس فى مصر يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينهم وبينه ، فعاد عمرو إلى مصر قبل مقتل عمر بن الخطاب الذى كان فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣ ، وترك عقبة فى زويلة . ويقول صاحب فتح العرب للمغرب إن عمراً ترك عقبة فى برقة . . وهذا يعين أن عقبة أتم فتح زويلة فى سنة ٢٣ ووصل إلى برقة قبل مقتل عمر بن الخطاب .

ويظهر أن عمراً رجع هو وكل من معه من العرب ، لأنه لم يذكر أحد أن عمراً ترك من ينوب عنه فى طرابلس ، أو فى صبراتة ، أو فى شروس ، كما لم يذكر أحد أن عقبة ترك من ينوب عنه من العرب فى زويلة .

ويفهم من كتاب عمرو بن العاص أنه أول من سمى أطرابلس بهذا الاسم ، لأنه كتب كتابه على أثر الفتح وقبل أن يغادر شروس .

حدود طرابلس

تقدم أن تريبوليتانوس التى اختصرت مع مرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى تريبولى ،كانت تطلق على المنطقة التى تقع بين خليج سرت وخليج قابس . . أما بعد الفتح الإسلامى ، وبعد أن عرب العرب كلمة تريبولى إلى أطرابلس ، فكانت حدودها تمتد إلى ما وراء صفاقس غرباً كما حصل أيام طورغود باشا ، وإلى ما وراء سرت شرقاً كما حصل فى زمن الفاطميين وغيرهم ، وتارة تنقص عن هذا ، وذلك تبع قوة النفوذ السياسى وضعفه .

وفى العهد التركى ، وحينما أدركت الشيخوخة دولة آل عثمان امتدت أيدى المستعمرين إلى ممتلكاتها ، فما لم يمكنهم الاستيلاء عليه اقتطعوا أطرافه وانتقصوا حدوده .

ولما احتل الفرنسيس تونس سنة ١٨٨١ توسعوا فى حدودها الشرقية على حساب الأراضى الطرابلسية ، وحصل أخذ ورد بين الدولتين كاد ينقلب إلى نزاع .

وقد اتفق الترك والفرنساويون سنة ١٩١٠ على إقامة الحدود فى مكان غربى قصر بوكماش بنحو ١١ كم يقال له الغدير ، وما زال معروفاً بهذا الاسم . ونقله بعض الكتاب العرب عن اللغات الإفرنجية بلفظ أغادير ، وهو غلط ، ونصبت هناك أعمدة من البناء ، عند خط الطول ١١°، ثم يصعد فى الجنوب ماراً بوسط ذهيبة غربى نالوت ، ومنها إلى غربى غدامس ، ثم ينحرف إلى الغرب جنوبى الحدود التونسية إلى حدود الجزائر الشرقية ثم يستقيم فى الجنوب ماراً غربى غات حتى ينتهى إلى حدود السودان فى خط العرض ٢٣° وهو حدود ليبيا الجنوبية ، وتعتبر هذه الحدود حدوداً لليبيا كلها . أما حد ليبيا الشرقى فهو الحد الذى نص عليه اتفاق ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ بين مصر وإيطاليا ، وهو يبتدئ من بئر الرملة بقرب السلوم ماراً فى اتجاهه إلى الجنوب ، شرقى واحة الجغبوب بنحو ٣٠ كم إلى ملتقى الخط الخامس والعشرين من خطوط الطول بخط العرض التاسع والعشرين .

ويبلغ مجموع مساحة ليبيا كلها نحو مليون و ٦٤٠ كم مربعاً ويبلغ طول ساحلها نحو ١٨٠٠ كم . وتنتهى حدود طرابلس شرقاً إلى العقيلة بقرب عين الكبريت . . وقد بنى الطليان هناك قوساً[1] يعتبر الحد الفاصل بين برقة

---

(١) حصل نزاع فيما بين سنة ٣١٣ ، و ٣١٠ ق م بين اليونانيين فى برقة ، والقرطاجنيين غربى خليج سرت على الحد الفاصل بين الأراضى اليونانية والأراضى القرطاجنية ، ثم اتفقوا على أن يعين كل من الطرفين عدائين من جانبه ، يقوم اليونانيون من مدينة قورين (قرنه) متجهين إلى الغرب ، ويقوم القرطاجنيون من مدينة قرطاجنة متجهين إلى الشرق وحيث يلتقى الفريقان تقام الحدود ، وقد التقوا فى مكان القوس الذى بناه الطليان حداً فاصلا بين برقة وطرابلس .

وقد اتهم اليونانيون القرطاجنيين بأنهم قاموا بالعدو قبل الموعد المتفق عليه ، واشترطوا لرضاهم بإقامة الحد حيث التقوا أن يدفن القرطاجنيون أنفسهم أحياء فى مكان الالتقاء ، أو يتركوا يعدون إلى المكان الذى يريدونه ويدفنون أنفسهم فيه أحياء ويكون الحد الفاصل ، فرضى القرطاجنيون أن يدفنوا أنفسهم أحياء حيث التقوا باليونانيين ويكون الحد الفاصل ، فدفنوا أنفسهم أحياء فى المنطقة التى أقيم فيها القوس الآن ، واعتبر هذا العمل منهم تضحية كبرى فى سبيل إعزاز الوطن وتوسيع حدوده .

وطرابلس، وقد تم بناء هذا القوس فى أوائل سنة ١٩٢٩ ، ويبلغ ارتفاعه ٣٣ متراً ويمر الحد فى مسامتة العقيلة جنوباً إلى حدود السودان فى خط العرض ٢٣° ، وهو حد ليبيا الجنوبى . . . ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط .

وهذا التحديد أقره الطليان بمقتضى الأمر الملكى الصادر فى ١٢ يناير سنة ١٩١٣ ، وفى هذا التاريخ كانت طرابلس بحدودها المذكورة تحت إدارة واحدة . وفى أبريل سنة ١٩٣٧ قسمها الطليان إلى ثلاث مديريات : طرابلس ومصراتة ، وهون ، وتعتبر هون مركز المنطقة الجنوبية ، وتسمى المنطقة العسكرية ؛ وتشمل غات ، وفزان ، وغدامس ، ومايسامت غدامس شرقاً إلى حدود الجفرة الشرقية (كان هذا التقسيم أيام الحكم الإيطالى) .

ولما فتحها العرب عربوا كلمة تريبولى إلى أطرابلس ، وهو تعريب قريب من الأصل ، مع تحريف بسيط ، لأن كلمة تريبولى فى اللغة الإيطالية القديمة كان يلحق بها السين فى آخرها .

وأول مصدر عربى ذكرت فيه كلمة « أطرابلس » هو جواب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب الذى ذكرناه آنفاً . ولكثرة الاستعمال تركت الهمزة وصار ينطق بها طرابلس بضم الباء واللام ، أو بضم الباء وسكون اللام .

وقد غلب إطلاق كلمة طرابلس منذ أوائل عهد العرب بإفريقية على المدينة المعروفة الآن ، وذلك بسبب ما أصاب لبدة من خراب قبل الفتح الإسلامى شمل جميع أجزائها ، وبما أصيبت به صبراتة أيضاً من انحطاط وتأخر آل إلى خراب شامل أيام حكم الكاهنة البربرية . . . وقد يطلق لفظ طرابلس ويراد به الاقليم كله إذا دلت القرينة على ذلك .

ودان

مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية . ويتبعها زلة ، وهون ، وسوكنة وما جاورها . ويطلق على الكل بلاد ودان . وكانت ودان زمن الفتح الإسلامى هى العاصمة . وكان عليها سور ، وقد تهدم ولم يبق منه الآن إلا آثاره . وقد امتد عمرانها خارج السور .

وتقع ودان وهون[1] وسوكنة على خط طوله نحو ستين كيلو متراً يبتدئ من الشرق بودان ، وينتهى من الغرب إلى سوكنة مع انحراف سوكنة إلى الجنوب قليلا . . وتقع زلة فى الجنوب الشرقى من ودان بنحو ١٦٠ ك م . . وتقع ودان فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩ ك م ، وإلى جنوبى سرت بنحو ٢٨٠ ك م .

---

(١) هون . يظهر لى أنها سميت بهذا الاسم لوجود بنى الهون فيها . وبنو الهون قبيلة عربية تنتسب إلى الهون بن خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

ولاشك أن قبائل وأفخاذاً كثيرة من العرب دخلت إفريقية فلا يبعد أن يكون بنو الهون وجدوا فى هذه الناحية فسميت باسمهم .

فتح ودان

ولما كان عمرو بن العاص محاصراً مدينة طرابلس بعث إليها جيشاً بقيادة يُسر بن أبى أرطاة[1] ، ففتحهاسنة ٢٣ هـ ، وفرض على أهلها غرامة قدرها ٣٦٠ رأساً من الرقيق . وبعد أن غادرهم بسر ارتدوا وبقوا على ردتهم إلى أن فتحهم عقبة بن نافع سنة ٤٩ هـ .

يؤخذمما تقدم أن البلاد الطرابلسية التى تم فتحها بقيادة عمرو بن العاص هى بلاد الساحل من برقة إلى صبراتة ، ومن بلاد الجنوب شروس ، وزويلة ، وودان ، وهون ، وسوكنة . واستغرقت أعمال الفتح فيها من سنة ٢١ إلى سنة ٢٣هـ. وكل هذه البلاد فتحت عنوة (بالحرب) إلا برقة وزويلة فإنهما فتحتا صلحاً .

---

(١) وقيل بسر العامرى . واسم أبى أرطاة عمير وكان بشر من المتحمسين لنصرة معاوية . حضر معركة صفين فى عسكر الشام ضد على بن أبى طالب . وحضر فتوح الشام . وقاد الجيوش فى البر والبحر واشترك فى فتح إفريقية . . وكان شجاعاً . وفيه كثير من قسوة البداوة . وقاد الحملة التى انتهت بتنازل الحسن بن على عن الخلافة ، وكوفىء عليها من معاوية بولاية البصرة . وقد أوقع بآل بيت النبوة كثيراً من القتل والتشريد قال صاحب مروج الذهب : حتى خد لهم الأخاديد . وقتل ولدى عبيد الله بن عباس وهما صغيران على يدى أمهما ، ففقدت عقلها ، وهامت على وجهها ، وقد دعا عليه على بأن يطيل الله عمره ويذهب عقله . فكان كذلك . ولم تصح له صحبة .

الفتح الثانى

انتهى الدور الأول من فتح طرابلس . وبعد رجوع عمرو إلى مصر بقليل توفى عمر بن الخطاب يوم ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣ ، وأسندت الخلافة بعده إلى عثمان غرة المحرم سنة ٢٤ الموافق ٧ من نوفمبر سنة ٦٤٤ م .

وكان حادث قتل عمر سبباً فى شغل المسلمين بعض الوقت . ولم يطل الأمر بسكان طرابلس حتى نقضوا ما عاهدوا عليه عمراً ، وارتد عن الإسلام من كان أسلم منهم ، وانقطعت صلة العرب بطرابلس نحو خمس سنوات وتنوسيت أعمالهم فيها ، وأصبحت وكأن لم يدخلوها فاتحين .

وفى سنة ٢٥ ولى عثمان على مصر عبد الله بن أبى سرح — أخاه من الرضاع — وقد كان وجوده فى مصر مدعاة للتفكير فى شأن افريقية فأخذ يرسل إليها خيله غازية مستطلعة ليقف على ما فيها من قوة ، وعلى ما تركه فتح العرب فى نفوس أهلها من أثر . فكانت هذه البعوث الغازية تغدو وتروح محملة بالغنائم من غير أن تلقى مقاومة تذكر . وكانت هذه البعوث من الكثرة بحيث عبر عنها بعض المؤرخين بكلمة (جيش) وذكر فيها عقبة بن نافع ، وأنها كانت سنة ٢٥ . ومن المرجح أن يكون فيها عقبة . لأنه بقى فى برقة حينما رجع عمرو إلى مصر ، ولأنه تقدمت له خبرة ببرقة وبعض الجهات الجنوبية من طرابلس ، فكانت هذه البعوث لا تستغنى عن خبرته ، خصوصاً وهو فى طريقها جيئة وذهوباً . وأنه ليخيل لقارئ أخبار هذه البعوث أنها غزوات مستقلة ، وما هى إلا للاستطلاع والاختبار . وكانت تأتى بأخبار مطمئنة ، ومشجعة على

التفكير فى الاستعداد للفتح ثانية . . وقد أرسل ابن أبى سرح بأخبار هذه البعوث إلى عثمان بالمدينة مشفوعة برغبته فى الإذن له بفتح إفريقية . فانشرحت نفس عثمان للأمر ، ولكنه أبى أن يعتزمه إلا بعد استشارة كبار الصحابة ، فاستشار علياً ، وطلحة ، والزبير ، والعباس ، فأشاروا كلهم بغزوها . فاعتزم عثمان الأمر ، وكتب إلى عبد الله بن أبى سرح بالموافقة . وتسامع الناس بما اعتزمه خليفة المسلمين فتوافدوا على المدينة من كل صوب ، واشترك فى هذه الغزوة أكثر قبائل العرب الضاربة حول المدينة ، وانضم إليها جمع غفير من الصحابة وأبنائهم . فخرج عبد الله بن الزبير فى جماعة من بنى أسد بن عبد العزى . ومروان بن الحكم فى جماعة من بنى أمية . والمسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود فى جماعة من بنى زهرة . وعبد الرحمن بن أبى بكر فى جماعة من قومه بنى تيم[1] وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخوه عاصم ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى جماعة من قومهم بنى عدى . وعبد الله بن عمرو بن العاص فى جماعة من قومه بنى سهم . والسائب بن عامر ، وبسر بن أبى أرطاة فى جماعة من قومهما بنى عامر . . وخرج من جهينة ستمائة ، ومن أسلم ثلاثمائة ومن مزينة ثمانومائة . ومن بنى سليم أربعمائة وخمسون . . ومن بنى الديل وضمرة ، وغفار ، وعبد مناف خمسمائة . وخرج من غطفان وفزارة ، ومُرّ سبعمائة .ا ه من طبقات علماء إفريقية .

ويقول النويرى : « إن عثمان أعان الجيش بألف بعير من ماله ، وحمل على خيل ، وفرق السلاح ، وأمر للناس بأعطياتهم ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٧ . وخطب فى الناس ، ورغبهم فى الجهاد ، وقال لهم : « لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه وأستودعتكم الله[2] » .

---

(١) تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، جد جاهلى من قريش ، من نسله أبو بكر الصديق ، وطلحة الصحابيان رضى الله عنهما (سبائك الذهب) .

(٢) فتح العرب للمغرب .

ووصل جيش المدينة إلى مصر ، وانضم إليه من كانوا فى انتظاره ممن جمعهم عبد الله بن أبى سرح ، واجتمع من هؤلاء وأولئك جيش لا يقل عن عشرين ألف مقاتل . وبعد أن استكمل الجيش عدته سار إلى إفريقية بقيادة عبد الله بن أبى سرح . وهذه الغزوة تسمى غزوة العبادلة .

غزوة العبادلة

تسمى هذه الغزوة غزوة العبادلة ، ويسمى الجيش جيش العبادلة ، لأنه اجتمع فيه سبعة من كبار الصحابة كل منهم اسمه عبد الله ، وهم :

عبد الله بن عباس [١] ، وعبد الله بن أبى سرح [٢] . وعبد الله بن جعفر [٣] ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب [٤] . وعبد الله بن عمرو بن العاص [٥] . وعبد الله

---

(١) كنيته أبو الفضل ، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولد بالشعب قبل الهجرة . وتوفى النبي وهو ابن ١٥ سنة . ودعا له فقال « اللهم علمه الكتاب والحكمة » فكان أعلم الناس بمعانى القرآن وناسخه ومنسوخه .

(٢) عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أبو يحيى القرشى العامرى ، أرضعت أمه عثمان بن عفان فهو أخوه من الرضاع ، له صحبة وكان يكتب الوحى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يغير فيما يمليه عليه النبي ، فأهدر دمه ، فخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً عن الإسلام ، فاستأمن له عثمان يوم الفتح ، وقبل النبي إسلامه . وكان يفر من مقابلة النبي حياء منه ، فشكا ذلك عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «الإسلام يجب ما كان قبله» فكان بعد ذلك يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه . ولاه عثمان مصر سنة ٢٥ فشكاه أهلها وأخرجوه منها . وولاه عثمان على إفريقية وفتحها سنة ٢٧ . ولم يبايع لعلى ولا لمعاوية . . وكان دعا الله أن يميته وهو فى الصلاة فصلى الصبح وسلم على يمينه ، وفاضت روحه قبل أن يسلم على شماله . وكانت وفاته بعسقلان سنة ٣٦ . وقيل سنة ٣٧ هـ ودفن بها فى مقابر قريش .

(٣) كنيته أبو عبد الرحمن ، أسلم بإسلام أبيه ، وشهد بدراً وأحداً . وكان عمره يوم بدر ١٢ سنة . غزا إفريقية مرتين : الأولى مع عبد الله بن أبى سرح ، والثانية مع معاوية بن حديج . وكانت معه فى إفريقية أم ولد توفيت بإفريقية ، وكان له منها أولاد

(٤) كنيته أبو محمد ، ولد قبل الهجرة بسبع سنين ، وبينه وبين أبيه فى العمر ١٣ سنة . شهد فتح إفريقية مع ابن أبى سرح سنة ٢٧ وتوفى سنة ٦٥ عن ٧٢ سنة .

بن الزبير[1] . وعبد الله بن مسعود . ولما وصلوا برقة وجدوا فيها عقبة بن نافع ، فانضم إليهم هو ومن معه من المسلمين .

وتوجه الجيش إلى إفريقية ، وكان — وهو فى طريقه — يرسل الطلائع فى كل وجه ، فكانت تأتى بالبقر والشاء وعلف الدواب . ولما وصلوا إلى طرابلس مرت إحدى طلائع المسلمين بها ، فرأوا مراكب راسية على الساحل خارج السور فشدوا عليها ، فأسروا أهلها — وكانوا مائة — وغنموا ما فى المراكب ، وكان ذلك على مرءاً من أهل المدينة ، فلم يتعرضوا لهم ، قال فى رياض النفوس : « وتحصن أهل طرابلس ولم يتعرضوا لنا ولم نهجمهم ، وأخذنا ما فى السفن فكانت هذه أول غنيمة أصيبت » ، ولما لحق بهم عبد الله بن أبى سرح سلموا له الأسرى فقتلهم . لأنهم نقضوا عهد عمرو بن العاص ، وارتد من كان أسلم منهم .

وكانت طرابلس إذ ذاك تابعة لجرجير[2] حاكم سبيطلة . واكتفى ابن أبى سرح من طرابلس بهذه الغنيمة ، ولم يفتحها ، واستمر فى طريقه إلى سبيطلة . هكذا يقول صاحب فتح العرب للمغرب ، وهو يوافق ماجاء فى رياض النفوس. وذكر غيرهما أنه فتحها . وهذه الرواية معقولة لأنه يبعد أن يتركها شوكة فى ظهره ، وهو يعلم أنها نقضت عهدها وارتد من أسلم من أهلها ، وقد يستغلها الروم لمهاجمته من الخلف .

تقدم المسلمون من طرابلس إلى إفريقية ، وكانت عاصمتها إذ ذاك قرطاجنة ونزلوا بقرب السبخة المجاورة لمكان مدينة القيروان الآن ، وتوجه تفكيرهم إلى فتح سبيطلة ، وهى العاصمة الثانية بعد قرطاجنة ، وكان جرجير يقيم بها . . . وجرجير هذا بطريق معين من قبل ملك الروم هرقل الذى كان يقيم فى

---

(١) ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً ، وهو أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة . وهو أول من كسا الكعبة الديباج . وهوالذى قتل جرجير . قتله الحجاج بن يوسف وصلبه بمكة فى ١٨ من ج.خ سنة ٧٣ .

(٢) تقدم أنها هى و برقة كانتا تابعتين لمصر . ولعل أهل طرابلس بعد أن غادرهم عمرو أيقنوا أن صلتهم بمصر غير ممكنة ، وغير مجدية ، فسعوا فى تحسين علاقتهم بحاكم سبيطلة وانضموا إلى حكمه .

القسطنطينية عاصمة ملكه إذ ذاك،وكانت تسمى بيزنطة . وكان نفوذ جرجير [١]
يمتد من طرابلس إلى طنجة بالنيابة عن هرقل . . . ويقال إن جرجير خلع
طاعة هرقل ، وضرب العملة باسمه ، وادعى الملك فى إفريقية لنفسه ، وكان
هذا بتحريض من البابا مارتن الذى قبض عليه قسطنطين فيما بعد وأنزل به
عقاباً شديداً .

لم يتقدم جرجير بطلب الصلح من العرب ، بل عمد إلى تعبئة جيوشه
وحشد المقاتلين ، ووقوفه فى وجه العرب ، فلم يكن للعرب بد من اتخاذ مثل
هذه الترتيبات والاستعداد للقاء الروم فى أى وقت . فما لبث الفريقان غير
قليل حتى نشبت المعركة بينهما ، وتوالت ، المعارك فكانت طاحنة ، وأبلى
العرب فيها بلاء مكنهم من إحراز النصر ، ورجحت كفة المعركة إلى جانبهم ،
وظهر الضعف فى صفوف جرجير ، فرأى من الخير له أن يجنح إلى الصلح
بعد أن رأى بوادر الهزيمة ، وتقدم إلى ابن أبى سرح بطلب الصلح على مال
يؤدونه له ويرتحل العرب عن بلادهم ، فاتفقوا على أن يدفع الروم ألفى ألف
وخمسمائة ألف دينار للعرب ، فدفعوها لهم ، وارتحل العرب عن إفريقية .

وكان طلب جرجير للصلح فرصة انتهزها ابن أبى سرح خوفاً من أن
يتكاثر عليه الروم والبربر ، وهو فى قلة من المسلمين ، وقد تأثر جيشه من
تلك المعارك الطاحنة التى ما كانت القوة فيها متكافئة ، ولكن قوة إيمان العرب ،
وتفانيهم فى نشر الدعوة الإسلامية هو الذى كان دائماً سبباً فى إحرازهم النصر
فى مثل هذه المعارك وأشد منها . ولم يخف على ابن أبى سرح بعد مركز المسلمين
الذى يأتيهم منه المدد ، فلو رفض الصلح — وهو فى تلك القلة — لما أمن أن
يجمع الروم والبربر جموعهم ، فينقضوا عليهم ، وإذ ذاك قد لا يفوز العرب
بالنصر. فقبول ابن أبى سرح الصلح كان تطبيقاً لسياسة حكيمة أملتها الظروف ،
واقتضاها قول الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

---

(١) اسمه الأصلى غريغور ، وحرفه العرب إلى جرجير .

أسرع ابن أبي سرح — بعد عقد الصلح مع الروم — بالرجوع إلى مصر سنة ٢٨[1] بعد أن مكثوا فى إفريقية سنة وثلاثة أشهر ، ولم يستخلف بها أحداً ولم يبق بها معسكراً .

ولا شك أن هذه الغزوة كانت أقوى أثراً وأبعد مدى من غزوة عمرو التى سبقتها ، بما امتازت به من التوغل فى الأراضى الإفريقية التى أكسب العرب علماً بحالة السكان الاجتماعية ، ومن الصدام العنيف الذى كانت نتيجته معروفة قوة الروم المادية وروحهم المعنوية ، ومعرفة الروابط بين الروم والبربر ، ومكنتهم من دراسة إفريقية عن كثب فكانت بمثابة مقدمة لما تلاها من غزو وفتح .

---

(١) وفى خلاصة تاريخ تونس سنة ٢٩ .

الفتح الثالث

عبد الله بن أبى سرح [1]

رجع ابن أبى سرح ومن معه من العرب إلى الشرق ، وتركوا إفريقية على ما صالحهم عليه جرجير ، وعلى ما أخذوه عليه من عهود . ولكن جرجير لم يلبث أن نقض العهد وخان المواثيق . وقد وصلت أخباره إلى المسلمين فى الشرق فأخذوا يفكرون فى فتح إفريقية مرة ثالثة .

وفى سنة ٢٩ أرسل إليها عثمان جيشاً بقيادة عبد الله بن أبى سرح . ولم تكد أخبارهم تصل إلى جرجير حتى أخذ يستعد للقائهم ، فجمع جموعاً كثيرة من الروم والبربر قرابة مائة وعشرين ألفاً .

ووصل المسلمون إلى إفريقية[2] فوجدوا جرجير على استعداد للقائهم فى سبيطلة وهى مدينة مسورة تبعد عن القيروان سبعين ميلا .

وبما أنى اخترت الرأى القائل بتعدد غزوات ابن أبى سرح فى إفريقية أذكر ما جاء فى رياض النفوس فى غزوة ابن أبى سرح الثانية من رواية الواقدى عن

---

(١) اختلفت كتب التاريخ فى تعيين هذه الغزوة بين سنوات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ أما تاريخ ٢٦ فلا يصح لأن أول غزوات ابن أبى سرح كانت سنة ٢٧ فكيف تقع الثانية فى ٢٦ . وأما تاريخ ٢٧ فهو الذى جعل بعض الكتاب يقول باتحاد الغزوتين . ولكن حينما يمعن القارئ النظر فى تفاصيلهما لا يسعه إلا أن يحكم بتعددهما لأنه بينما نرى أن الغزوة الأولى انتهت إلى صلح عقده جرجير نفسه مع العرب ، إذا بنا نرى أن الغزوة الثانية كانت فيها معارك طاحنة ، وذكرت فيها قصة بنت جرجير ، وقتل فيها جرجير ، وانتهت بصلح مع أعيان البلاد بعد قتل جرجير . إذاً فلابد من اختيار التاريخ الثالث الذى اختاره ابن خلدون وهو سنة ٢٩ وقد ثبت أن ابن أبى سرح حارب فى إفريقية أكثر من مرة ، مما يؤيد أن سبب اختلاف تواريخ الغزوات هو تعددها . . والقول بتعدد الغزوتين هو الذى يتفق مع ما اشتملتا عليه من تفصيل . وتباين الروايات يدل على تعددها . والقول بأن تعدد التواريخ شك من الرواة فى الواقعة الواحدة لا دليل عليه .

(٢) لم نر من المؤرخين من تعرض لأخبار طرابلس فى هذه الغزوة ويظهر أنها بقيت على عهدها فى الغزوة الأولى ، فلم تتعرض لهجوم العرب فى هذه الغزوة .

ربيعة الديلي قال : « . . . ثم تمادينا إلى إفريقية ، وجعلنا نضرب فى كل جهة . وأقمنا أياماً تجرى بيننا وبين جرجير – ملكهم – الرسل ندعوه إلى الإسلام ، فكلما دعوناه إلى الإسلام نخر . ثم استطال وقال: لا أفعل هذا أبداً . فقلنا له: فتخرج الجزية فى كل عام ، فقال : لو سألتمونى درهماً لم أفعل . فتهيأ الناس للقتال . وعبأ عبد الله بن سعد الناس ميمنة وميسرة وقلباً » .

وعبأ جرجير جيوشه ، وكانت نحو مائة وعشرين ألفاً . ودارت المعارك الأولى لم ينل فيها من العرب ، فأراد أن يغرى بهم الروم ، فأخرج ابنته أمام الجيوش ونادى فى عسكره : من قتل أمير العرب : زوجته ابنتى هذه ، فسمع بذلك عبد الله بن أبى سرح فنادى فى المسلمين : « وحق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته وما معها[1] » . والتحم القتال حتى ظن الناس أنه الفناء ، وصبر المجاهدون فانهزم جرجير وجيشه ، واندفع العرب نحوه يتسابقون إلى قتله ، فرأت ابنة جرجير المسلمين يتدافعون بسيوفهم فى زحام شديد ، – وكانت تطل على المعركة – فقالت ما لهم يتزاحمون ؟ ، فقالوا لها يتزاحمون على قتل أبيك .

وذكر فى رياض النفوس أن ابنة جرجير أشرفت على العرب فى عسكرهم ، فاستقلتهم فقالت لأبيها : لا تسرع بالقتل فى هؤلاء وأنحلنيهم ، فقال لها : قد أنحلتكهم .

واشتدت المعركة وكانت قاسية وطاحنة ، فانتهز عبد الله بن الزبير غرة من جرجير فقتله . وذكر فى دول الإسلام من رواية عبد الله بن الزبير هذه القصة فقال : هجم علينا جرجير فى مائة وعشرين ألفاً ، واختلف الجند على ابن أبى سرح فغضب ابن أبى سرح ، ودخل فسطاطه . وخاف المسلمون العدو ، وأحاط بنا العدو ، وكنا عشرين ألفاً ، فرأيت أنا غرة

---

(١) كان هذا النداء بعد أن أشار عليه به عبد الله بن الزبير .

من جرجير ، بصرت به خلف جيوشه على برذون أشهب معه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسكره فلاة من الأرض ، فأتيت أميرنا ابن أبي سرح ودخلتُ عليه الفسطاط ، فوجدته مستلقياً على ظهره ، فلما دخلت عليه استوى جالساً وقال ما أدخلك عليّ يابن الزبير؟ فقلت له إني رأيت عورةً من العدو ، فاخرج فاندب الناس ، قال وما هي ؟ فأخبرته ، فخرج معي مسرعاً وقال : أيها الناس ، انتدبوا مع ابن الزبير ، فندب لي فرساناً فأخذت منهم ثلاثين وقلت لهم اثبتوا هنا ، وحملت على جرجير ، وقلت أحموا لي ظهري ، وخرقت إلى جرجير وهو يظن أني رسول إليه ، فلما دنوت منه عرف الشر ، فوثب على برذونه وساق مولياً ، فأدركته فطعنته فسقط ، ثم ضربته بالسيف ونصبت رأسه على رمحي وكبرت . وقد ركب المسلمون فحملوا ، وركبنا أكتاف العدو وتمزقوا . وسبقت خيول المسلمين إلى باب الحصن ، فحالوا بينهم وبين الدخول فيه ، وقتلوا أنجادهم وفرسانهم .. ودارت الدائرة على الروم والبربر : وكثر فيهم القتل والسبي ، واستولى العرب على ما في المعركة ، وجمعت الغنائم فكانت شيئاً لا يحصى كثرة ووقعت ابنة جرجير في الأسر وقالت : لقد رأيت الذي قتل والدي ، ولما عرض عليها المجاهدون تعرفت على ابن الزبير .

ووفى ابن أبي سرح بوعده فأعطى بنت جرجير لابن الزبير . وأرسل السرايا في طول البلاد وعرضها لإخضاع الروم والبربر ، فما ذهبت مذهباً إلا رجعت سالمة غانمة . وكانت هذه المعركة سبباً في كسر شوكة الروم والبربر وذهاب ملك جرجير ، فلجأوا إلى الحصون ، ورهبوا جانب العرب .

ولما رأى رؤساء أهل المدن والقرى ما حل بهم من هزيمة ، ورأوا أن العرب ما زالوا يغيرون ويفتحون ، وأيقنوا بعجزهم عن مقاومتهم طلبوا من ابن أبي سرح صلحاً على مال يؤدونه ويرحل عنهم ، فقبل منهم ، وعقد معهم صلحاً جاء فيه : « إن ما غنمه المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أخذوه بعد الصلح

ردوه[١] » ، واتفقوا على ثلاثمائة قنطار من الذهب ، فقبضها ابن أبي سرح ورحل عنهم .

وبعد انتهاء المعركة ، وقبل أن يرحل ابن أبي سرح أرسل عبد الله بن الزبير بخبر الفتح إلى عثمان بالمدينة يبشره بما أفاء الله على المسلمين من النصر والغنيمة ، وأخذ ابن الزبير معه بنت جرجير . وقد ساءها أن تكون مسبية فى يد العرب ، فألقت بنفسها من على جمل فى أثناء الطريق فماتت .

وقد أوصى ابن أبي سرح ابن الزبير أن يبلغ عثمان أن يرسل إليه سفناً فى البحر ليشحن فيها الغنائم فأرسلت إليه .

وسافر ابن أبي سرح إلى المشرق ومعه من الغنائم شيء لا يحصى كثرة ، ووافته السفن التى طلبها من عثمان فى طرابلس ، فشحن فيها ما يمكن شحنه وسار هو وأصحابه على طريق البر . وقد بلغ سهم الراجل ألف دينار ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف . . . ولئن دل مجيء سفن العرب إلى طرابلس على شيء فإنما يدل على ضعف دولة الروم وتقلص نفوذها وانهيار قواها أمام ضربات العرب حتى فى إفريقية . وقد خيمت على عقولهم صولة العرب ، وهيمنت على نفوسهم ، فكانت مقاومتهم بعد هذه المعركة تسير من ضعيف إلى أضعف .

وقد يمكن لمتتبع معارك ابن أبي سرح وما بذله من جهود فى فتح إفريقية أن يعجب من انسحابه من إفريقية ، بدون أن يترك فيها حاكماً أو حامية ، فى نظير مبلغ من المال مهما كان عظيماً ، بعد أن خاض فيها تلك المعارك الهائلة ، وبعد أن ضحى فيها بعدد كبير من رجالات المسلمين الذين استشهدوا فى معارك سبيطلة الطاحنة ، وقد يمكنه أيضاً أن يرى فى انسحابه قضاء مبرماً

---

(١) يلاحظ أن الصلح فى الغزوة الأولى كان مع جرجير نفسه ، وكان على ألفى ألف وخمسمائة ألف . وفى هذه الغزوة كان الصلح مع الأعيان بعد قتل جرجير ، وكان على ثلاثمائة قنطار من الذهب . وقال فى رياض النفوس . كان الصلح — فى الغزوة الثانية — على مائة ألف رطل من الذهب وهذا مما يدل على تعدد الغزوات كما قلنا .

على جهود المسلمين فى إفريقية وجهادهم الذى دام ست سنوات متواصلة — قد يمكن هذا العجب ، ولكنه لا يلبث أن يزول إذا علمنا أن جيش ابن أبى سرح قد منى بخسائر كبيرة فى الرجال فى معارك سبيطلة ، وأن من بقى معه من المسلمين لايمكنهم أن يصمدوا أمام جيوش الروم والبربر التى تفوقهم بأضعاف مضاعفة . . هذا إلى بعد مراكز جيوش المسلمين التى يمكن الاستنجاد بها . وإذاً فإن ما فعله ابن أبى سرح هو عين الحكمة ومقتضى الخطط الحربية . ولولا انسحابه لتعرض جيشه للفناء

وكان هذا الفتح قاصراً على السواحل فيما بين جبل نفوسة[١] والبحر ، أما غدامس فلم تفتح إلا فى سنة ٤٢ ﻫ فى سرية عقبة ، وبقيت ودان على ردتها حتى فتحها هى وغدامس عقبة بن نافع سنة ٤٩ وسيأتى خبرهما .

وكان من بين أسرى هذه المعركة وزمار بن صقلاب البربرى ، جد الخزرونيين ، وأمير مغراوة وزناتة[٢] . ولما وصل إلى عثمان بالمدينة أسلم على يديه ، فأطلقه وعقد له على قومه ، ولذلك كانت زناتة تناصر دعوة الأمويين ، بخلاف صنهاجة فإنها كانت تناصر دعوة العباسيين .

وصول الخبر إلى هرقل :

أسف هرقل كثيراً حينما بلغه — وهو بالقسطنطينية — خبر قتل جرجير وهزيمة الروم والبربر ، ومصالحة رؤساء المدن والقرى للمسلمين على تلك المئات من قناطير الذهب ، فأرسل إليهم بطريقاً نائباً عنه يقال له « أوليمة » ليطالبهم بالخراج الذى كانوا يؤدونه إليه فى كل سنة ، ولزل بقرطاجنة . ولما طلب من الناس ما أمره به هرقل امتنعوا وقالوا إن ما بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب .

---

(١) لم يذكر أحد موقف سكان جبل نفوسة من هذه الغزوة . ويظهر أن من فيه من البربر استكانوا وأفسحوا الطريق للعرب يذهبون حيث شاءوا ، كما رضى العرب منهم بهذا الموقف فتركوهم .

(٢) قال ابن خلدون : وقد أسر فى زمن ابن أبى سرح وزمار إلخ وذكر غيره هذا المعنى ، وعلل به مناصرة زناتة لدعوة الأمويين ، ومخالفة صنهاجة لها ومناصرتها دعوة العباسيين .

وقد حصل خلاف كبير بين « أوليمة » نائب هرقل ، وبين « حباحيه » حاكم البلد الذى أقيم بعد قتل جرجير ، ورجع البطريق مطروداً ولم يحصل على شىء . .

لم يول ابن أبى سرح أحداً على إفريقية بعد أن رحل عنها ، وتركها كما تركها فى المرة الأولى مكتفياً بعهود الصلح وتقديم الطاعة . وكذلك كان العرب يفعلون قبل أن تستقر أقدامهم فى إفريقية ، وقبل أن يتخذوا منها موطناً لهم ، فكانوا يكتفون بدفع الغرامة ، وبتقديم الطاعة سواء أكانت بطريق الصلح ، أم بطريق القهر والغلبة ، لأنهم ما كانوا يأمنون غدر الروم وقتلهم من يولونه عليهم .

ويقول ابن خلدون إن جرجير كان من الفرنجة ، وكان نائباً عن هرقل فى إفريقية لأن هرقل كان ملك النصرانية كلها لا فرق بين الروم وغيرهم ، والأمم التى كانت متغلبة على البربر ، وكانت تملك مدنها وقراها إنما هى من الفرنجة ، وما يوجد من الروم فى إفريقية إنما هم جند للفرنجة . ولما كان العرب لم يقاتلوا من الأمم النصرانية إلا الروم فى الشام غلبوا لفظ الروم على غيرهم . وما يذكر فى كتب فتح إفريقية من لفظ الروم إنما هو من قبيل التغليب . وكان البربر فى إفريقية قبيل الفتح تحت حكم الفرنجة ، وعلى دين النصرانية .

الفتح الرابع

غزوة معاوية ابن حديج[1] الأولى

ما كانت إفريقية تستقر على حال ، ولا تقيم على عهد إلا ريثما يرتحل عنها جيش المسلمين فتنقض عهدها ، ويرتد من أسلم من أهلها ، وتناصب العرب العداء وتعود إلى ما كانت عليه .

وقد اختلفت روايات المؤرخين فى غزوات معاوية بن حُديج ، فنقل المالكى صاحب رياض النفوس عن أبى العرب «أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات : أما الأولى فسنة ٣٤ فى خلافة عثمان[2] . وأما الثانية فسنة أربعين . وأما الثالثة فسنة خمسين . وهو يوافق رواية ابن عبد الحكم فى أنها ثلاث غزوات . ويحدد هذه الغزوة بأنها كانت قبل مقتل عثمان . وفى أن الثانية كانت سنة ٤٠ ، وهذا غير صحيح لأن تعيينه كان من قبل معاوية ، ومعاوية فى هذه السنة كان مشغولا بحروب على ، ولم يتول الخلافة إلا بعد أن تنازل له عنها الحسن بن على سنة ٤١ ، ويظهر أنها كانت سنة ٤٥ كما ذكر ابن خلدون وقد اخترت هذا القول ، والثالثة كانت سنة ٥٠ ، وهذه ذكرها صاحب نزهة الأنظار وذكر بعض أعماله فى القيروان ، وفتح جلولاء . واتفقت رواية صاحب معالم الإيمان ومحمد بن يوسف الوراق على أنها ثلاثة ، وأن الأولى

---

(١) قال فى تاريخ الخميس للديار بكرى : معاوية بن حديج — بحاء مهملة مضمومة ، ودال مهملة مفتوحة — وجيم فى آخره : وما جاء فى ابن خلكان : خديج بخاء معجمة مفتوحة ، ودال مهملة مكسورة ، وجيم ، فهو غلط وهو معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيرة الكندى الخولانى المصبرى ، صحابى على قول الأكثرين ، وذهبت عينه فى حروبه مع البربر فى إفريقية . مات بمصر وهو وال عليها من قبل معاوية بن أبى سيفان سنة ٥٢ .

(٢) قال فى طبقات علماء إفريقية : وهذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس .

كانت سنة ٣٤ قبل مقتل عثمان . وذكر بعض المؤرخين واقعة جلولاء فى غزوة سنة ٣٤ . وذكرها بعضهم فى غزوة سنة ٤٠ . وبعضهم ذكرها فى غزوة سنة ٥٠ وكلهم متفقون على تفاصيل معركة جلّولا وما وقع فيها . وقال ابن خلدون إن معاوية بن حديج أرسل إلى إفريقية سنة ٤٥ . وقال التيجانى فى رحلته : كان ابن حديج والياً على إفريقية من قبل عمرو بن العاص .

هذا ما أمكننى جمعه فيما يتعلق بغزوات ابن حديج فى إفريقية وقد اخترت الرأى القائل بالتعدد فذكرتها متعددة .

مرت على إفريقية نحو ست سنوات بعد رجوع ابن أبى سرح نقض الروم فيها عهودهم مع العرب ، وناصبوهم العداء ، وارتد من أسلم إلى نصرانيته . وقد شغل عنها العرب كل هذه المدة بإصلاح ما ظهر من بوادر فتنة عثمان وبما لابسها من آثار سيئة نتيجة لانتقاد طريقة الحكم التى اتبعها عثمان . وبالرغم على ظهور هذه البوادر فقد عنى عثمان بأمر إفريقية ، ووجه إليها أبا نعيم معاوية بن حديج سنة ٣٤ لفتحها ، ومعه جيش من العرب فيه كثير من الصحابة والتابعين من المهاجرين والأنصار .

ومر ابن حديج فى طريقه ببرقة ، وكان بها عقبة بن نافع فأخذه معه وتقول بعض المصادر إن عمرو بن العاص لما رجع إلى مصر سنة ٢٣ ترك عقبة فى برقة والياً على ما فتح من إفريقية ، وقد مروا فى طريقهم بطرابلس فلم تبد أى مقاومة فيما اطلعت عليه من كتب .

أما سرت فيظهر أنها لقربها من برقة تأثرت بها ، فهى منذ أن فتحها عمرو لم تبد نشاطاً عدائيًّا لا ضد ابن ابى سرح فى غزوتيه ، ولا ضد ابن حديج ، وأصبحت مسالمة كما سالمت برقة .

وأخبار هذه الغزوة مقتضبة ، حتى قال فى طبقات علماء إفريقية إن هذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس . ولم نعثر لها على تفصيل أكثر .

الفتح الخامس
غزوة معاوية بن حديج الثانية

وكانت المدة بين غزوتى ابن حديج حوالى عشر سنوات شغل فيها المسلمون بفتنة عثمان وحروب على ومعاوية ، وانقطعت فيها بعوث المسلمين عن افريقية ولم يفكروا فى شأنها . . .

وقد انتهز الروم والبربر فرصة انشغال المسلمين بهذه الفتنة فنقضوا عهودهم ، وارتد بعضهم ، وثبت بعضهم على إسلامه ، وحصلت ألفة بين من أسلم من البربر وبين من بقى فى إفريقية من غزاة المسلمين وحافظوا على إسلامهم . . . ولأول مرة نسمع فيها أن جماعة من المسلمين استقروا فى إفريقية ، وهى بادرة تدل على اضمحلال شأن الروم ، وهى كذلك أول خطوة فى استقرار الإسلام فى إفريقية ، ومزاحمته للمسيحية فى دورها ومناطق نفوذها .

وما كادت الخلافة تفضى إلى معاوية بتنازل الحسن بن على له عنها فى ربيع الأول سنة ٤١ ، وبمبايعة المسلمين إياه بالخلافة (١) فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، وما كادت أمور المسلمين فى المدينة والحجاز تأخذ فى الاستقرار حتى أخذ معاوية يفكر فى فتح إفريقية ، فاختار لها معاوية بن حديج لسابقة خبرته بها ، وأرسله إليها على رأس جيش من المسلمين سنة ٤٥ (٢)

---

(١) معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء دولة بنى أمية . وهى أول دولة إسلامية قامت على وجه الأرض بعد عهد النبوة والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم. وتوفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ ودفن بالشام . . وتولى هذه الخلافة من بنى أمية أربعة عشر خليفة ، آخرهم مروان بن محمد بن مروان الأول . ومدة ملكها فى الشام اثنتان وتسعون سنة

(٢) قدر بعض المؤرخين هذا الجيش بنحو عشرة آلاف . وكان من بينهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين .

وليس بصحيح ما قيل إنه أرسله إليها سنة ٤٠ لأنه فى هذه السنة لم يتول خلافة المسلمين ، وأيضاً فإنه كان مشغولا بمحاربة علىّ .

سار ابن حديج إلى إفريقية ، ومر فى طريقه بطرابلس ، فلم تبد أى مقاومة ويظهر أن قتل جرجير ، كان له أثر سيئ على نفوس الروم والبربر جعلهم لا يفكرون فيما وراء سبيطلة وما حولها . وزاد فى سوء حالهم الفتنة التى نشبت بينهم وبين هرقل بسبب طردهم مندوبه « أوليمة » لهذا تغافلوا عن طرابلس ولم يحاولوا الرجوع إليها وهذا ما شجع أهل طرابلس على الاحتفاظ بعهدهم مع العرب ، ولم يبدوا ضد ابن حديج أى مقاومة فانتهز ابن حديج مسالمتهم وولى عليهم من قبله رويفع بن ثابت ، وبذلك أمن انتقاضهم ، كما أمن طريق الرجعة فيما لو اضطر إلى الرجوع . وسار فى طريقه إلى أن وصل القيروان وكانت غير مسكونة فبنى فيها مساكن ، وحفر آباراً كثيرة كانت تعرف بآبار حديج إلى منتصف المائة الثانية بعد الألف من الهجرة ، وفتح بنزرت وغنم فيها

غنائم كثيرة . . . وقد عزله معاوية بن أبى سفيان عن إفريقية ، ورجع إلى مصر سنة ٤٨ وولى بدله عقبة بن نافع .

ثم سار معاوية إلى سبيطلة ، وسبقته أخباره ، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو فأرسل نجدة إلى قرطاجنة على طريق البحر ، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب «ألْجم» فهزموهم ، واستعد الروم للقائه فى جلولا . ليكون دفاعهم عن سبيطلة فى مواقع بعيدة عنها ، وهناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل ، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة ، ولم يلبثوا أن رجحت كفة العرب على الروم ، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها ، وحاول العرب اقتحامها عليهم فلم يقدروا . وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم ، فتركوها ، ورجعوا عنها مرغمين .

انهدام سور جلولا [1] :

كان انهدام سور جلولا كرامة من الله أكرم بها أولئك النفر من العرب الذين باعوا أنفسهم فى الله وأخلصوا دينهم لله ، فبينما هم راجعون ، وقبل أن يبتعدوا كثيراً انهدم سور جلولاء من تلقاء نفسه ، وبدون سبب ، بعد أن وقفوا أمامه أياماً لا يقدرون منه على شيء ، وقد تنبه بعضهم إلى ما ثار منه من غبار ، فلما تبينوا الأمر علموا أن السور انهدم ، فرجعوا مسرعين ودخلوا المدينة عنوة ، وفر من الروم من نجا من القتل والأسر ، وغنموا كل ما حوته المدينة ، فكان كثيراً ، وكثيراً جداً . وقسمت الغنيمة على المقاتلين فكان سهم الراجل ٢٠٠ دينار ، وسهم الفارس ٦٠٠ دينار . . . وانتشرت خيل المسلمين فى طول البلاد وعرضها ، ورهب السكان جانبهم وقدموا لهم الطاعة ، وأصبح الروم أشد ما يكونون جزعاً من هذه الضربات المتتالية التى انزلها بهم العرب . . . ويقول صاحب المؤنس : « وفى هذه الغزوة فتح عبد الله بن الزبير مدينة سوسة وأبلى فيها بلاء حسناً » .

رويفع بن ثابت الأنصارى :

هو رويفع بن ثابت ، بن السكن ، بن عدى ، بن حارثة [2] الأنصارى ، من بنى مالك بن النجار ، صحابى جليل ، شهد فتح مصر وكان يسكنها ... ولاه ابن حديج على طرابلس سنة ٤٦ . وغزا جربة من طرابلس وفتحها سنة ٤٧ ، وأمر أصحابه بأن لا يأتوا السبايا إلا بعد الاستبراء وقال لهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره » .

---

(١) جلولا بفتح الجيم وتشديد اللام اسم لمدينة كانت تبعد عن القيروان بأربعة وعشرين ميلا تقريباً وهى الآن خراب . ويعرف مكانها بعين جلولا (خلاصة) .

(٢) وقيل خارجة .

ونهاهم عن استعمال دواب الغنيمة وأمتعتها إلا بعد القسم ورجع من عامه ، وتوفى ببرقة وهو أميرعليها سنة ٥٣ زمن ولاية مسلمة بن مخلَّد على مصر[1] وإفريقية من قبل معاوية بن أبى سفيان .

وكان قبر رويفع قد درس وانمحت معالمه ؛ وعلى غير قصد عثر إنسان على حجر مكتوب عليه : « هذا قبر رويفع بن ثابت الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فمنذ ذلك أصبح معروفاً فى برقة لا يختلف فيه اثنان تلتمس عنده الرحمات بفضل صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم . وكان له جهاد فى إفريقية وحضر فتح مصر .

سياسة الغزو :

لقد مر على العرب منذ أن غزوا إفريقية إلى آخر غزوات ابن حديج ست وعشرون سنة لم يمكنهم الاستقرار فى إفريقية ، وإنما كانوا يكتفون من الروم بعقد الأمان ودفع الجزية أو الغرامة الحربية ويرحلون عن البلاد ، لأن أساليب حياتهم ما كانت تساعدهم على الإقامة فى طرابلس أو فى غيرها من البلاد الإفريقية . ذلك لأن سكان إفريقية كانوا كثيرين لا يحصون عدداً ، وكانوا يدينون بغير دين العرب ، وكانوا يعتبرون العرب غزاة فاتحين يجب عليهم أن يطردوهم عن بلادهم ، والعرب يعلمون هذا منهم ، لذلك ما كانوا يأمنون على أنفسهم من غدرهم ، خصوصاً وأن نجدة العرب كانت تأتيهم من مصر والشام والمدينة وهى بعيدة عنهم .

كان الروم لايفون بالعهود ولايحترمون المواثيق ، فكانوا كلما ارتحل العرب عنهم نقضوا عهودهم ، ومنعوا ما كانوا يؤدونه وارتد من أسلم منهم .

والمسلمون ما غزوا إفريقية لأجل المال ، أو لأجل التحكم فى رقاب الناس ، لأن الله فتح عليهم الشام ومصر والعراق قبل فتح إفريقية ، وفى هذه الأقطار

---

(١) قال ابن كثير : وهو وال عليها من قبل مسلمة بن مخلد نائب مصر .

من أسباب رخاء العيش ومنابع الثروة ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ، ولكنهم غزوا إفريقية لنشر الإسلام وفضائله ، وتخليص البشرية من مظالم الروم ، ونشر العدالة والمساواة بين الناس ، ولذلك كانوا يكررون الغزو على إفريقية كلما نقض الروم عهودهم لتحقيق هذه الأغراض السامية مهما كلفهم الأمر من صعاب وبذل أرواح . . . لهذا كان العرب يجاهدون ، ومن أجله كانوا يعملون .

ولكن المستشرقين مثل كودل ، وديل ، وفورنل ممن كتبوا فى تاريخ إفريقية لا يستسيغون أن يقال عن العرب إلا أنهم سلابون نهابون ، ولقد أكثروا فى كتبهم عن فتح إفريقية من هذه المثالب ، ولنا فيما أجمعت عليه كتب التاريخ العربية ما يفند افتراءاتهم علينا . ولن نقول لهم أكثر مما قاله الله تعالى فى أمثالهم : « قل موتوا بغيظكم » .

سرية عقبة :

يؤخذ من كلام ابن الأثير أنه كانت لعقبة جولة صحراوية فيما بين سنة ٤١ وسنة ٤٣ ، وصل فيها إلى غدامس ، فبدأ باخضاع لواتة فى برقة ، ثم أخضع هوارة ، وهم سكان سرت وما وراءها إلى الجنوب وإلى جبل نفوسة ، ووصل إلى غدامس ففتحها سنة ٤٢ [١] وفتح ماحولها من الواحات [٢] ، ورجع إلى مصر سنة ٤٣ فوجد عمرو بن العاص فى مرض موته وتوفى عمرو فى شوال سنة ٤٣ ، وإذا صحت أخبار هذه السرية فإنها كانت فى الفترة التى بين غزوتى ابن حديج .

---

(١) هذه رواية المؤنس .

(٢) أقرب الواحات إلى غدامس هى درج ، وسناون .

الفتح السادس
عقبة بن نافع

عقبة بن نافع الفهرى ، من بنى فهر ، بطن من بطون قريش . بطل من أبطال العرب ، جاهد فوفق ، وحارب الكفار فأبلى ، حضر فتح مصر ، ودخل إفريقية فاتحاً عدة مرات ، قائداً تارة ، ومن أفراد المجاهدين تارة أخرى ، ووليها لمعاوية ، ولابنه يزيد . وهو الذى أسس مدينة القيروان ، وبنى مسجدها الجامع وبه عرف ، وبنى دار الإمارة قبلى الجامع . . . وفى أيامه أخذت قواعد الإسلام ترسو فى إفريقية ، وتعاليمه تنتشر بين البربر ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فأخذوا يعتنقونه ، وكان له منهم أنصار . ويقال إن له صحبة . . . وبسبب إخلاصه للإسلام وجهاده فى سبيل الله أظهر الله على يديه الكرامات ، كما وقع له فى ماء الفرس ووادى القيروان . وكان مجاب الدعوة . ولد قبل الهجرة بسنة ، واستشهد فى إفريقية سنة ٦٣ . شكر الله له وأكرم مثواه .

* * *

تقدم أن عمرو بن العاص أرسل عقبة إلى زويلة سنة ٢٢ ، ففتحها وكان موفقاً ، وبعد رجوع عمرو من إفريقية عينه والياً على ما فتح منها ، وبقى فى برقة . وشجاعة عقبة وكفايته فى الحروب لا ينكرها عليه أحد . وفى المدة التى بقى فيها فى برقة اكتسب خبرة بأحوال إفريقية وسكانها ، وعلى الأخص البربر لاختلاطه بهم فى برقة ، فكانت هذه المميزات كفيلة بتوجيه نظر معاوية إلى اختياره لفتح إفريقية ، فأرسله عقب ابن حديج سنة ٤٩ . وإذا علمنا أن ابن حديج رجع من غزوته الثانية فى أوائل سنة ٤٨هـ علمنا أن بين هاتين الغزوتين سنة أو ما يقاربها .

وقد ذكر ابن الحكم والبكرى أن هذه الغزوة كانت سنة ٤٦ ، وعنهما نقلت ما ورد من تفاصيل أعماله فى فتح فزان وغيرها ، وبناء القيروان . . . ويظهر أن هذا التاريخ فيه شيء من التحريف ، فإن معاوية بن حديج كان فى إفريقية سنة ٤٦ ورجع منها فى أوائل سنة ٤٨ وهو معين عليها من قبل معاوية ، ويبعد أن يعين معاوية عقبة قبل رجوع بن حديج ، فلا يبعد أن يكون الكاتب أراد أن يكتب ٤٩ فكتب ٤٦ ، وبين الرقمين شبه قريب جداً . فالظاهر أن غزوة عقبة هذه كانت سنة ٤٩ كما ذكره بعض المؤرخين ، وعليه فيكون دخوله إفريقية وبداية بناء القيروان سنة ٥٠ . . وعلى كل من الروايتين فإن عقبة كان فى القيروان سنة ٥١ . وقول صاحب نزهة الأنظار إن ابن حديج غزا إفريقية سنة خمسين لا يتفق مع الحقيقة .

سار عقبة إلى إفريقية فى جيش من المسلمين ، وكان ابتداء مسيره من برقة لأنه كان مقيما بها . . . وفى معجم البلدان أن عقبة أضاف من أسلم من البربر إلى الجيش الذى أرسله إليه معاوية ، وسار حتى وصل إلى سرت فنزل بمكان يقال له مغمداس [1] . وهو مكان غربى مدينة سرت القديمة فى منتصف الطريق بينها وبين قصور حسان . هكذا ذكره البكرى فى كتابه « المغرب » ، وذكر أيضاً أن به صنماً ، وإلى جوار الصنم قصر بناه الأعرابى عامل سرت للعبيديين . . . وذكر بعض الكتب أن هذا القصر كان يعرف بقصر العبادى . وهو غير معروف الآن . ويشبه أن يكون قصر « بوهادى » الموجودة الآن بقاياه بقرب سرت الجديدة .

وهذا ما أمكننا علمه عن تلك الآثار الدارسة التى يشبه أن يطبق على الحقيقة التى حال بيننا وبينها ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرون سنة .

وقد بلغ عقبة أن بلاد ودان نقضت عهدها الذى عاهدت عليه بسر بن أبى أرطاة سنة ٢٣ ، وارتد من أسلم منهم على يديه ، فترك جيشه بمغمداس فى

---

(١) جاء ذكر مغمداس فى تاريخ البكرى ، ونزهة الأنظار ، وسير الشماخى ، ورحلة العياشى . وقد اشتبه على كثير من المؤرخين فذكروه — غلطا — باسم غدامس .

أرض سرت ، وأناب عنه فى رياسة الجيش زهير بن قيس البلوي ، وعمر بن علي القرشي ، وسار إليها فى أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، على كل جمل قربتان لحمل الماء . ولما وصل إليها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلدا ، وقبض على ملكهم فقطع أذنه جزاءً له على نقض العهد ، وقال له : إذا مسست أذنك تذكرت فلا تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد ، وأغرمه ما كان فرضه عليه بسر بن أبي أرطاة سنة ٢٣ .

ولما استتب لعقبة الأمر فى بلاد ودان سار إلى جرمة ، وهى العاصمة إذ ذاك لبلاد فزان ، وسميت جرمة باسم أمة الجرمنت ، وهى أمة قديمة كانت تسكن فزان[1] فلما دنا منها نزل غير بعيد ، ودعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا ، وقدم ملكهم الطاعة ، وفرض عليهم ٣٦٠ رأساً من العبيد ، واستمر عقبة فى فتح بلاد فزان حتى أتى على آخرها ، ونشر فيها من تعاليم الإسلام ما اتسع له وقته ، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزان فاتحين .

ولما انتهى من فتح بلاد فزان لم يقتصر عليها ، فسأل أهلها هل من أحد وراءكم ؟ فقالوا له وراءنا قصر جاوان ، أو خاوار ، وهو عاصمة بلاد كاوار ، فسار إليه خمسة عشر يوماً ، فلما وصله دعا أهله إلى الإسلام فأبوا ، فطلب منهم الجزية فامتنعوا واعتصموا بحصنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهراً فلم يقدر على فتحه ، فتركه وتقدم فى الجنوب لفتح بقية بلاد كاوار ، ففتحها حتى أتى على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه وقال له : إذا نظرت إلى إصبعك تذكرت فلا تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد . . . وكان فى نيته أن يتقدم إلى الجنوب وراء بلاد كاوار ، فسأل أهلها : هل وراءكم من أحد ؟ فقالوا لا نعلم أحداً ، فرجع . . . وفى رجوعه مر بقصر خاوار الذى كان استعصى عليه فتحه ، فوجد أهله ما زالوا معتصمين به ،

---

(١) انظر لبده .

فلم يتعرض له ، وتجاوزه بنحو ثلاث مراحل ، حتى ظن أهله أنه لا يرجع إليهم ، فاستأمنوا وفتحوا أبواب الحصن . . . ونزل عقبة فى مكان سمى بعد ذلك ماء الفرس[1] ، وكان قبل ذلك قفراً لا ماء فيه . . . وسبب هذه التسمية أن عقبة وأصحابه نفد ما عندهم من الماء وعطشوا هم وحيواناتهم حتى قاربوا الهلاك . ومن عادات المسلمين إذا اشتد بهم الكرب لأى نازلة من نوازل الدهر لجأوا إلى الله بالصلاة والدعاء ، يستنزلون رحمته فى تفريج ما نزل بهم ، فصلى عقبة وأصحابه ، ورفعوا أيديهم إلى السماء طالبين من الله أن يسقيهم — وكان عقبة مجاب الدعوة — وإذا بفرس عقبة تنبش الأرض برجلها حتى نبع الماء من محل النبش فكرعت فيه ، فرأها عقبة تمص الماء ، فنادى فى أصحابه أن احفروا الأرض ، فحفروا سبعين حسياً فنبع الماء منها كلها ، فشربوا وسقوا حيواناتهم ، وأكرمهم الله بسبب إخلاصهم وجهادهم فى سبيل الله ، ومن ذلك الوقت سمى هذا المكان بماء الفرس .

وقد استبشر عقبة بهذا الحادث ، فاعتزم الرجوع إلى قصر جاوان فربما أكرمهم الله بفتحه ، فلم يلبث بعد أن استراح قليلا حتى رجع إليه هو وأصحابه ، وقد أيقن ساكنوه أن عقبة تركهم وذهب إلى سبيله ، فما شعروا حتى صبحهم على غرة ، واقتحم عليهم الحصن ، فقتل مقاتلهم ، وغنم كل ما فى الحصن ، وقفل هو وأصحابه حتى وصل زويلة ، وواصل سيره حتى وصل إلى معسكره بمغمداس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر .

لم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية ، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلى جنوبى جبل نفوسة ، وأرسل خيلا إلى غدامس ففتحها ، وواصل سيره إلى إفريقية . . . وقد رأى من الخير للمسلمين أن يتخذ لهم مدينة يتخذون منها مركزاً يلتجئون إليه ، ويعتصمون به من الروم والبربر . . . ولما وصل إلى

---

(١) جاءت قصة ماء الفرس فى المؤنس وغيره

مكان القيروان[1] وجد فيه أرضاً متسعة فيها كثير من أنواع الشجر ملتف بعضه على بعض ، تسكنها الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وبقربها سبخة ، فاختارها منزلا له ، ومكاناً لبناء المدينة التي اعتزم بناءها ، وقد شكا إليه بعض الناس كثرة ما فيها من الوحوش والهوام ، فماذا صنع عقبة لإزالة هذه الشكوى ؟ جمع من في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر[2] ، ثم ذهبوا إلى رأس الوادي ، ونادى عقبة بأعلى صوته : « يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون » ، وكررها ثلاث مرات ، فلم تنقض ثلاثة أيام حتى خرج كل ما في الوادي من الوحوش ، وكان الناس ينظرون إلى الذئاب والحيات تحمل صغارها خارجة لا تلوى على شيء استجابة لدعوة عقبة رضي الله عنه . وقد أكرمه الله باستجابة الدعوة جزاء لاخلاصه وقوة إيمانه . . . وجاء في رياض النفوس أن عقبة قال في ندائه : « أيتها السباع ارحلوا فإنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فنظر الناس ذلك اليوم إلى أمر عظيم : نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء[3] تحمل أشبالها ، والذئب يحمل أجراءه ، والحية تحمل أولادها سمعاً وطاعة . ثم نادى عقبة في الناس : « كفوا عنهم حتى يرحلوا » . وروى أنه دعا للقيروان بعد أن اختطها بقوله : « اللهم املأها علماً وفقهاً ، واعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزاً لدينك ، وذلا على من كفر بك ، وأعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض » ، وروى عنه أنه اختار القيروان بعيداً من البحر خوفاً من أساطيل الروم ، واختارها قريبة من السبخة لانتفاع إبل العرب بما تنبته من عشب صالح لرعي الإبل .

شرع عقبة في بناء مدينة القيروان . وقال صاحب الحلل السندسية : بنيت القيروان سنة ٥٠ ، ويريد أنه شرع في بنائها . وبنى بها المسجد الجامع

---

(١) القيروان معرب كاروان الفارسية . وتكلمت به العرب قديماً . والنسبة إليه قيرواني ، وقيروى . ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة ، وموضع اجتماع الناس في الحرب . ويظهر أنه أطلق على المكان لنزول الجيش فيه أو القافلة .

(٢) وفي طبقات علماء إفريقية كانوا (٢٥) .

(٣) الأرض كثيرة الشجر .

الذى ما زال معروفاً بمسجد عقبة وبنى الناس فيها مساكنهم . وتم بناؤها فى مدة خمس سنوات : أى سنة ٥٥ .

القيروان أول مدينة إسلامية بنيت فى إفريقية ، ومسجدها أول مسجد بنى فى إفريقية أيضاً . وقد أصبحت بعد ذلك مأوى للمسلمين ومقر قيادة جيوشهم فى أكثر الحروب التى وقعت بعد بنائها .

وكان بناء القيروان من أكبر أسباب تثبيت أقدام المسلمين فى إفريقية ، لأنها أصبحت حصناً لهم ، ومأوى لحريمهم وأثقالهم . وأخذ البربر يفدون عليهم فيها ، فكانت سبباً فى اختلاطهم وبسبب هذا الاختلا وجد العرب سبيلا إلى بث الدعوة الاسلامية ، فأخذ البربر يتذوقونها .

وفى أثناء قيام عقبة ببناء مدينة القيروان كان يغزو الروم والبربر ، ويرسل السرايا إلى طرابلس وجهات إفريقية لاخضاع من نقضوا العهد ، وإرهاب من تحدثه نفسه بالعصيان .

لم يحدثنا أحد من المؤرخين عما فعل عقبة بطرابلس فى هذه الغزوة . وقد تقدم فى ص ٧٧ أن ابن حديج عين عليها فى غزوته الثانية رويفعاً الأنصارى ، وأنه عاد من سنته تلك ، و يظهر أن طرابلس نقضت عهدها بعد أن غادرها رويفع ، لأن عقبة كان يرسل إليها الخيل لغزوها ، ولكن لم يذكر لنا أحد متى فتحها .

وعلى أثر هذه الغزوة المباركة ، وببركة العرب المجاهدين أخذ الأمن يستقر كما أخذت نفوس البربر تطمئن إلى الإسلام وتأنس بتعاليمه ، فأخذ ينتشر بينهم وأخذ أمر الروم فى الاضمحلال ، وضعف نفوذهم على البربر ، واستوطن بعض العرب إفريقية ، وكثر التجاء الروم إلى حصونهم الساحلية بعد أن ذاقوا مرارة ضربات العرب القاتلة .

وعزل عقبة عن إفريقية سنة ٥٥ وتولاها بعده أبو المهاجر وسيأتى خبره ولمناسبة ذكر غدامس وفزان فى فتح عقبة أحببنا أن نورد تعريفاً موجزاً بهما .

غدامس :

بغين معجمة مضمومة ، وبدال مهملة ، أو ذال معجمة . . . واسمها البربرى القديم « سيدامُوس » . وهى واحة من واحات طرابلس الصحراوية . ذات شكل مستدير تقريباً وتقع فى الجنوب الغربى من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ ك م ، على جهة المسامتة . أما على الطريق الذى يمر بالعزيزية ، وبئر الغنم ، وتيجى ، ونالوت ، ثم يذهب إلى سناون فتبعد عنها حوالى ٦٥٨ ك م ، وفيها بساتين وكثير من النخل[1] . . . ويحيط بالمدينة والبساتين سور طول دوره نحو ستة ك م ، وقطر دائرته من الشرق إلى الغرب ١٦٠٠ متر ، ومن الشمال إلى الجنوب ١٥٠٠ متر .

ويشرب سكانها ، ويسقون مزروعاتهم من الآبار ، ومن عين داخل السور قوية النبع ، عذبة الماء ، تصب فى الدقيقة ٢٤٠٠ لتر من الماء ، وفى مائها ملوحة بنحو ٣٪ تقريباً .

وهى من أقوى مراكز الحضارة ، ولا يعرف زمن تأسيسها على التحديد . ويقال إنها معمورة من عصور ما قبل التاريخ . ووراء حدها الغربى يقع الحد بين طرابلس وتونس . ويفهم من بعض التواريخ أن المسيحية دخلتها زمن استيلاء البيزنطيين على الشمال الإفريقى .

وفى سنة ١٩ ق م احتلها الروم ، وبقيت تابعة لهم إلى الفتح الإسلامى وسكانها الآن خليط من الأصول العربية والبربرية ، ويتكلمون العربية والبربرية ويعرف بعضهم اللغة السودانية بسبب كثرة أسفارهم للتجارة إلى السودان .

ودخلها المذهب الإباضى حينما دخل إفريقية فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، ولم يلبث أن تقلص منها فى القرن الرابع وخلفه مذهب مالك .

---

(١) يقال إن عدده يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألفاً

وتقع المدينة فى الجنوب الغربى بداخل السور المحيط بها . وشوارعها ضيقة مظلمة منها ما هو مسقوف ، ومنها ما هو مقبوّ على طراز المدن الصحراوية القديمة . وفى أيام الكاهنة البربرية كانت فيها دواميس وكهوف تحت الأرض اتخذتها سجوناً للمجرمين ، وكانت فى كثير من الأزمان مأوى للمنشقين والخارجين عن طاعة السلطان .»

وأكثر سكانها يعتمدون فى معيشتهم على التجارة مع طرابلس وتونس ، والسودان ومصر ، وهم مهرة فى التجارة ، وقليل منهم يعيش على فلاحة البساتين وما يغله نخلها الكثير من التمر . . .

قال فى الروض المعطار : وتعظم فيها الكمأة (الترفاس[1]) حتى تتخذ منها اليرابيع والأرانب جحوراً

وأكثر سكانها يتعبدون على مذهب الإمام مالك ، وقليل منهم يتعبد على المذهب الأباضى . . . .

وقد فتحها عقبة مرتين ، مرة حوالى سنة ٤٢[2] ، والمرة الثانية سنة ٤٩ ، إذا صح أنها فتحت سنة ٤٢ .

ومنذ الفتح الإسلامي صارت تابعة لطرابلس . ولما احتل الفرنساويون الجزائر سنة ١٨٣٠ م حاولوا أن يأخذوها من الدولة العثمانية ويلحقوها بالجزائر ولكن فشلت محاولاتهم وبقيت تابعة لطرابلس .

وفى سنة ١٨٤٢ م عين الأتراك فيها مديراً من طرفهم . وفى سنة ١٨٦٤ م رقيت إلى قائمقامية ، وعين فيها قائمقام .

---

(١) الترفاس كلمة متداولة فى طرابلس تطلق على الكمأة

(٢) كان هذا الفتح فى إحدى سراياه التى كان يغزو بها الأطراف وهو ببرقة .

فزان

واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود « الهروج » ، ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذى يصل بين غدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول فى الدرجة ١٨ . . . وطولها شرقاً وغرباً ٩٠٠ ك م وشمالا وجنوباً ٨٠٠ ك م ، وارتفاعها على سطح البحر نحو ٥٠٠ متر ، وبها وديان يبلغ انخفاضها فى بعض الأماكن نحو ١٥٠ متراً تحت سطح البحر ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف ك م مربع وقد ساق عليها الروم حملتين : واحدة سنة ١٩ ق م والثانية سنة ٣٧ م حتى وطدوا حكمهم فيها .

وقد ذكرها جرير فى شعره فقال :

قفرٌ تشابهُ آجالُ النعام به　　　عيداً تلاقتْ به فزّانُ والنوبُ

والآجال جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش .

وفى زمن الفتح الإسلامي كان سكانها البربر وبعض السودانيين ، أما الآن فسكانها خليط من أصول عربية وبربرية وسودانية ، وفيها قليل من الأصل التركى .

وفى كثير من الأحيان كانت محل تنازع بين سكان الشمال وسكان الجنوب وكان الغالب من الطرفين هو الذى يتولى أمرها حتى فى زمن العرب والترك ، وحينما تضعف السلطة الطرابلسية تستقل بنفسها ، وتحكمها أسرة من سكانها ، أو أحد المغامرين الذين يسعون وراء الشهرة ، ومن هؤلاء المغامرين أسرة بنى خطاب التى ملكتها بين القرن العاشر ، والثانى عشر الميلادى ، ثم ملوك كانم ، وأولاد محمد من أصل مراكشى .

وأشهر بلادها : مرزق ، وكانت عاصمتها أيام حكم الأتراك ، وتقع إلى جنوبي سبهة بمسافة ١٥٠ ك م ، وسبهة ، ومركزها سبهة أو الجديد . وكانت عاصمة فزان قبل العهد التركي ، وتقع على الوادي الشرقي في قلب فزان . ولما احتل الطليان فزان نقلوا إليها العاصمة من مرزق . وبراك ، وهي في وادي الشاطئ شمالي سبهة بنحو ٥٠ ك م . وجرما ، وهي في الوادي الشرقي ، في الجنوب الغربي من سبهة على مسافة ١٧٠ ك م ، وهي مقابلة لجرما القديمة التي كانت عاصمة لفزان زمن الروم وما قبلهم[1] ، ولا تزال خرائبها موجودة وهي التي فتحها عقبة بن نافع سنة ٤٩ .

وجرما هذه كانت موطناً للجرمنتيين ، وهم أمة قديمة كانت تسكن فزان[2] والقطرون ، وسميت باسم وادي النطرون — مع قلب النون قافاً — والنطرون معدن يستخرج من هذا الوادي ، ويسمى عند سكان فزان « الطرونة » وهو مادة متحجرة بيضاء تشبه الشبة ترسب في ماء يوجد في هذا الوادي ، وتستعمل في الدباغ .

وأوباري : وهي في الوادي الغربي . وزويلة ، وكان الروم يسمونها « شيلالا » وتقع على مسافة ١٤٠ ك م إلى الشرق من مرزق . وكانت عاصمة لمك المنطقة التي تسمى بها . وتسمى زويلة بني خطاب[3] الذين ملكوا فزان من أول القرن الرابع الهجري إلى سنة ٥٦٨ بناها عبد الله بن خطاب الهواري وسكنها هو وبنو عمه سنة ٣٠٦ وهي منسوبة إليه[4] ، وكانت عاصمة ملكهم ، ولذلك نسبت إليهم . . وبنو خطاب من البربر من قبيلة هوارة . . . وأديري ،

---

(١) انظر لبدة

(٢) ربما كانت منسوبة إلى جرمانة قبيلة بربرية من بني ما صلت ، بطن من بطون لواتة ، ودخلها شيء من التحريف

(٣) آخر ملوك بني خطاب هو محمد بن خطاب الذي قتله قراقش سنة ٥٦٨ ، عذبه حتى مات.

(٤) الروض المعطار .

وتقع فى وادى الشاطئ على مسافة ١٢٠ ك م إلى الغرب من براك وكان حاكم فزان يسمى السلطان، وهى تسمية قديمة يظهر أنها سرت إليهم من السودان، لأنهم يطلقون كلمة سلطان على رئيس القبيلة .

وليس ببلاد فزان أنهار جارية ، وكل مزروعاتها - وهى قليلة - تسقى من الآبار بطريقة جر الدواب لآلات مخصوصة لاخراج الماء . . ومياهها الجوفية كثيرة وقليلة الغور ، وهى تكفى لسقى أراضيها متى وجدت الأيدى العاملة . . . وتقل فيها الأمطار لأن منطقتها صحراوية . . وفيها من غابات النخيل شىء لا يحصى كثرة وفيها من أنواع التمر الجيدة ما لا يوجد فى غيرها .

ونعود لوصل سلسلة الفتح ، ومن الذى تولاه بعد عزل عقبة عن إفريقية .

الفتح السابع
دينار أبو المهاجر

هو مولى لمسلمة بن مخلّد . . وكان معاوية بن أبي سفيان عين مسلمة والياً على مصر وإفريقية سنة ٤٧ ، وهو أول من جمعت له الولاية عليهما ، فولى مسلمة من قبله على إفريقية مولاه ديناراً أبا المهاجر سنة ٥٥ ، وأوصاه أن يعزل عقبة فى لين وحسن معاملة ، ولكن أبا المهاجر لم يعمل بوصية مسلمة ، وأساء إلى عقبة ، وضيق عليه ، حتى أصبح كالأسير عنده ، وخرب ما أسسه فى القيروان .

وحارب أبو المهاجر الروم والبربر ، وأسلم على يديه كسيلة بن لَمَزْم الأوْربى البربرى ، من أكبر رؤساء البربر إذ ذاك . . . ولما بلغ معاوية ما فعله أبو المهاجر بعقبة ، بعث فى إشخاص عقبة إليه ، ولما وصل عقبة إلى مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد ، وأقسم له معتذراً أنه أوصى أبا المهاجر به خيراً . . . وقد أشار بعض الناس على مسلمة أن يبقى عقبة على إفريقية فأبى . . . ويظهر من هذا أن مسلمة يريد إمارة إفريقية لنفسه ، ولكن لا نعتقد أن معاملة أبى المهاجر لعقبة تلك المعاملة السيئة كانت بإيحاء من مسلمة لأننا نستبعد أن يقسم مسلمة حانثاً فى اعتذاره لعقبة . . . وكل ما فى الأمر أن أبا المهاجر أساء التصرف مخالفاً رغبة سيده فى الإحسان إلى عقبة . . . ولما قدم عقبة على معاوية اعتذر له معاوية مما فعل أبو المهاجر فى ولايته سنة ٥٦ هـ[1] .

---

(١) قال فى شذرات الذهب : فى سنة ٥٦ مات شيخ افريقية وقاضيها ، وأول من ولد بها من المسلمين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشيبانى الإفريقى الزاهد الواعظ . روى عن أبى عبد الرحمن الحبلى وطبقته ، وليس بقوى فى الحديث .

الفتح الثامن
إمارة عقبة الثانية

كانت إمارة عقبة الثانية بدء دور جديد فى فتح إفريقية ، ومبعث نشاط فى البربر ما كان ملحوظاً قبلها . . . والذى يتتبع الحوادث منذ بداية الفتح على يد عمرو إلى إمارة عقبة الثالية لا يجد للبربر أثراً ملحوظاً فى الدفاع عن إفريقية . وكل مالاقاه العرب من مقاومة كانت من الروم ، ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدون مهمة الجند ، أو المحافظة على الأمن ، فى الحصون والمدن ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة ، والجموع المحتشدة لرد غزو العرب مثل ما وقع أيام عقبة . . . وكل مقاومة الروم كانت فى المدن الساحلية وما قاربها . وإذا نظرنا إلىالطرق التى كان العرب يسلكونها فى غزوهم على إفريقية نجدها تمر فى قلب بلاد البربر ، وفى وسط منازلهم . فكانوا يمرون ببرقة وهى موطن لواتة . ومنها يمرون بسرت وما بعدها إلى طرابلس وهى مواطن هوارة، ويقع على يسار طريقهم إلى إفريقية جبل نفوسة ، ولم يذكره أحد بعد فتح شروس، وهذه القبائل الثلاثة من أكبر وأقوى قبائل البربر، ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لهم أى نشاط عدائى ضد العرب قبل إمارة عقبة الثانية . . . فوجود هذه الكثرة من قبائل البربر فى طريق العرب إلى إفريقية ، ولا يبدون مقاومة عنيفة فى ردهم عن بلادهم دليل على أن البربر نظروا إلى فتح العرب نظرة لا تتفق مع رغبات الروم ، نتيجة لما لاقوه منهم من سوء معاملة واستبداد فظيع . وسنرى للبربر بعد إمارة عقبة الثانية مواقف فى مقاومة العرب حافلة بالشجاعة، بل والاستماتة فى الدفاع عنإفريقية . . . وأقرب ما يعلل به موقف البربر من الروم أن البربر كانوا مستائين من معاملة الروم واستبدادهم بهم ، فكانوا لا يبدون نشاطاً فى نصرتهم . وقد انتهزوا فرصة غزو العرب فخلوا

بينهم وبين الروم تشفياً فيهم ، وأملا فى أن تدول دولتهم التى استعبدتهم واستنزفت أموالهم ، ثم يكون لهم مع العرب شأن آخر .

ولكن البربر بعدما رأوا ملاحم سبيطلة بين العرب والروم ، وبعد أن قتل جرجير وهزمت جيوشه ، وكذلك بعدما رأوه من نشاط عقبة فى فتح الجنوب ، وبناء القيروان وإرساله السرايا للغزو فى جميع جهات إفريقية — بعد هذا كله تغير رأيهم فى العرب وعلموا أنهم قوم لا تلين قناتهم ، وأنهم عازمون على جعل إفريقية عربية إسلامية مهما كلفهم ذلك من تضحية ، ومهما كان الثمن ، وأخذوا يتجمعون ضد العرب ،وأخذت مقاومتهم تشتد شيئاً فشيئاً ، وظهرت شدتها فى تلك الجيوش التى قادها كسيلة الأوربى ضد العرب ، وفيما لاقاه عقبة من تلك الجموع الحاشدة .

* * *

ونعود إلى الكلام على إمارة عقبة الثانية :

بقى عقبة بعيداً عن إفريقية نحو عشر سنوات ، وفى سنة ٦٢ ، وبعد أن توفى معاوية بنحو سنتين ولاه يزيد بن معاوية على إفريقية ، وعزل أبا المهاجر الذى كان أساء عزل عقبة وأهانه .

وقدم عقبة إفريقية ، وكان فى مقدمة جيشه زهير بن قيس البلوى ، وما زال أبو المهاجر فيها ، فسلم الأمور إلى عقبة ، وقام بها خير قيام ، وقاتل الروم والبربر فكان موفقاً ، واصطحب معه أبا المهاجر ، وكان لا يمكنه من شىء حتى من القتال ، ويقال إنه كبله بالحديد ، وفى شعر أبى المهاجر الآتى ما يدل على ذلك .

ولما عزم عقبة على المسير من القيروان إلى المغرب لفتحه قال لبنيه :

« يا بنى إنى بعت نفسى من الله ، ولا أدرى ما يقضى على فى سفرى ، يا بنى إنى أوصيكم بثلاث خصال ، فاحفظوها ولا تضيعوها : املأوا

صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله . وخذوا من كلام العرب ما تهتدى به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق ، وأوصيكم ألا تداينوا ، ولو بعتم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين فيفرقوا بينكم وبين الله ، ولا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع فإنه أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا[١] » .

وتوغل عقبة فى بلاد المغرب إلى أن وصل إلى بحر الظلمات ، وكان أبو المهاجر برفقته ، وأدخل عقبة فرسه فى البحر حتى وصل الماء إلى صدره ، وقال : « اللهم إنى أشهدك ألا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لاجتزت ، اللهم إنك تعلم أنى إنما أطلب السبب الذى طلبه وليك ذو القرنين ألا يعبد إلا الله ، اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك[٢] » .

بعد أن وصل عقبة إلى البحر قفل راجعاً ، وفى أثناء رجوعه حاصرته قبيلة المصامدة فى جبال درن ، فأنجدته زناتة فى جموع هائلة ، وخلصته من الحصار ومر بمدينة تهود فى أرض الزاب ، فدعا أهلها إلى الإسلام فلم يجيبوا فحاربهم وكان معه كسيلة ابن لـمَـزْم البرنسى من قبيلة أوْربة البربرية[٣] ومن زعماء البربر المشهورين وكان قد أسلم ، ولكنه ارتد — قالوا لمعاملة ساءته من عقبة — فأخبر البربر بقلة جيش عقبة [٤] وانضم إليهم ، وجمع جموعاً كثيرة لقتال عقبة .

---

(١) خلاصة تاريخ تونس .

(٢) هذا الدعاء مجموع روايات متعددة .

(٣) قال فى سبائك الذهب : بنو أوربة : بفتح الهمزة والراء المهملة والباء الموحدة : بطن من البرانس من البربر ، وهم بنو أوربة بن برنس ، بن بربر ، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم أوربة .

(٤) قال العلامة حسن حسنى فى خلاصة تاريخ تونس : « ولما كان عقبة بوسط طريقه تقدمته جيوشه ولم يبق معه إلا نفر قليل من جملتهم كسيلة الزعيم البربرى الذى كان أسيراً عند عقبة ، فاغتنم كسيلة تلك الفرصة ، وأعلم قومه بقلة المسلمين ، فهجم البربر فجأة على عقبة وأصحابه ، وكانوا نحو ثلاثمائة ، فقاتلوا قتال الأبطال ، وتكاثر عليهم العدو فاستشهدوا جميعاً فى مصرع واحد سنة ٦٤

وفى أثناء ما كان عقبة راجعاً سرح كثيراً من الجيش ليلحقوا بالقيروان . وفى ذات يوم كان عقبة فى قلة من أصحابه نحو ٣٠٠ فتعرض لهم كسيلة فى جموع هائلة من البربر وأحاطوا بهم من كل جانب . ولما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول الشاعر [١] :

كفى حزَناً أن تُطعنَ الخيلُ بالقَنا وأتركَ مشدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمتُ عنانى الحديدُ وأغلقت مصارعُ من دونى تصم المناديا

ولما بلغ ذلك عقبة أطلق وثاقه وقال له الحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة ، فلم يفعل أبو المهاجر ، وقال : وأنا أيضاً اغتنم الشهادة ، ولما أيقن هو وأصحابه أنه أحيط بهم ، وألا مفر من الموت ، استلوا سيوفهم وكسروا أغمادها ، وقاتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم رضى الله عنهم . وكان معهم أبو المهاجر . وما زالت قبورهم معروفة بمدينة تهود ، يزورها المسلمون ، ويتذكرون عندها تضحية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل دين الله . . . وكانت هذه الواقعة سنة ٦٣ [٢] . . واجتمع على كسيلة البربر وعظم شأنه ، وكثرت جموعه ، وانتشرت الردة بين البربر .

زهير بن قيس :

لم يكن بد للمسلمين من تولية رئيس عليهم بعد قتل عقبة ، فوقع اختيارهم على زهير بن قيس البلوى ، وعمر بن محمد القرشى ، واستمر العرب فى قتال البربر ، وكان ابن الكاهنة من رؤسائهم البارزين فتغلبوا عليه ، وقتلوه هو وأصحابه . واشتدت خميته البربر ، وتألبوا على العرب فى جموع كبيرة ، فتراجع زهير وأصحابه إلى القيروان ، وكان لمقتل عقبة أثر سيىء على نفوس المسلمين ،

---

(١) قيل إن هذا الشاعر هو أبو محجن الذى جاء يرسف فى قيوده إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى بيعة الشجرة ورده المسلمون إلى المشركين بمقتضى شروط كانت بين الفريقين .

(٢) فى خلاصة تاريخ تونس أن هذه الواقعة كانت سنة ٦٤ ، وسيأتى أن كسيلة دخل القيروان فى المحرم سنة ٦٤ . وإذاً فتكون الواقعة فى أول المحرم ، ودخول كسيلة القيروان فى آخره .

وظهر أثر ذلك على قوتهم المعنوية ، فإنه لما زحف كسيلة فى جيوشه الكثيرة على القيروان حاول زهير أن يستنهض همم المسلمين للقائه ، فامتنعوا لكثرة ما كان معه من الجيوش ، فارتحل زهير وكثير من الناس إلى برقة وبقى بعضهم بطرابلس ، ودخل كسيلة القيروان فى المحرم سنة ٦٤ .

وكانت القيروان قد مر على تأسيسها نحو أربع عشرة سنة ، فكثر عمرانها وتم بناء مسجدها الجامع ، وأصبحت مأوى للمسلمين من العرب والبربر على السواء . ولم ينكل كسيلة بسكانها لأسباب قد يكون من أهمها صلة القرابة التى ما تزال بين من أسلم من البربر وبين قبائلهم الضاربة حول القيروان ، وصلة الدين التى بينهم وبين العرب . وقد يكون من أسباب عدم التنكيل بهم عدم المقاومة فخاف كسيلة اضطراب الأحوال إذا امتدت يده إلى سكان القيروان بسوء ، فأبقى عليها واكتفى بخروج زهير منها[1] . وبقى كسيلة فى القيروان خمس سنوات واتفق هذا مع موت يزيد بن معاوية مع ما قارنه من فتنة الضحاك ابن قيس مع المروانية ففشت الردة فى زناتة والبرانس .

سار زهير إلى أن وصل برقة فنزل بها سنة ٦٤ . وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ وقد استفحل أمر كسيلة فى إفريقية ، فطلب الناس إلى عبد الملك أن ينظر فى أمر إفريقية ، فقال : « ما أرى أحق بطلب دم عقبة من الروم والبربر من زهير لدينه وورعه » . وهذه شهادة من عبد الملك بمكانة زهير ، واحترامه . وكان قد مر على زهير فى برقة نحو خمس سنوات . وقد أمده عبد الملك بالجيوش والأموال وهو فى برقة ، وأمره بالسير إلى إفريقية لمحاربة البربر وحماية المسلمين فيها .

---

(١) فى معالم الإيمان : جاء كسيلة بجموعه إلى القيروان ففر كثير من الناس ، وبقى فيها العجزة والمثقلون من أصحاب التجارة فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون الأمان فأمنهم

ولاية زهير بن قيس

جاء فى كتاب المؤنس « أن زهير بن قيس البلوى قدم إلى إفريقية والياً عليها من قبل عبد الملك ابن مروان سنة ٦٩ ، وقد أمده بالأموال والرجال والخيل ، وحشد له وجوه العرب » . وذكر فى خلاصة تاريخ تونس أن زهيراً كان عاملا على برقة لعبد الملك بن مروان .

سار زهير فى الطريق الساحلى . وإذا استثنينا غزوة عقبة التى مر فيها بمغمداس ، وسلك فيها الطريق الذى يمر جنوبى جبل نفوسة قاصداً إلى غدامس ، ومنها ذهب إلى إفريقية نجد كل الغزوات فى فتح إفريقية سلكت الطريق الساحلى . ولا ندرى هل ترك زهير نائباً عنه فى برقة أولا ، ولم يذكر أحد ماذا فعل فى طرابلس .

ولما قارب القيروان سمع به كسيلة ، فرحل عن القيروان خوفاً أن يثور به المسلمون ، الموجودون فيها انتصاراً لزهير ، وقال لمن معه : « إن هزمناهم إلى أطرابلس كان المغرب لنا الدهر ، وإن هزمونا كانت الجبال والصحراء قريبة منا نتحصن بها .

ودخل زهير القيروان بدون حرب ، ولم يكتف باحتلال المدينة ، بل اقتفى أثر كسيلة خارج القيروان . وفى اليوم الرابع من خروج كسيلة من القيروان صبحه زهير بجيش المسلمين ، وبعد أن صلى الصبح اشتبكوا فى حرب طاحنة حتى يئس الناس من ا لحياة ، وقتل كسيلة بممس ، وقتل من البربر خلق كثير ، وأمعن العرب فى مطاردتهم وقتلهم ، وحالوا بينهم وبين الجبال حتى لا يتحصنوا بها ، كما قدر كسيلة حينما اقترح على من معه الرحيل من القيروان وكان البرانس — قوم كسيلة — طعمة لهذه المعركة الدامية . . وبعد معارك زهير مع البربر وقتل كسيلة كثر نزوحهم من إفريقية والتجأت جمهرتهم إلى المغرب .

ورأى زهير أن مهمته قد انتهت ، خصوصاً وأنه أخذ بثأر عقبة بقتل

كسيلة ، وكان شديد الورع كثير العبادة ، فخاف أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم ، فرجع إلى المشرق ، وترك القيروان آمناً يسكنها كثير من العرب . . وبسبب هذه المعركة ذل البربر ، واضمحل شأنهم ، ولزموا القلاع والحصون ورهبوا جانب العرب .

ولم نطلع على الأسباب التي دعت زهيراً لترك القيروان ورجوعه إلى المشرق وما زالت الحال في حاجة إلى توطيد حكم العرب — إلا أنه لشدة ورعه خاف أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم .

قلنا آنفاً لا ندرى هل ترك زهير نائباً عنه فى برقة أو فى طرابلس ، وقد وجد الروم فرصة لقطع الطريق عن زهير عند رجوعه إلى الشرق ، فجهزوا جيشاً فى صقلية واحتلوا به برقة ، وأساءوا معاملة المسلمين فيها وصاروا يترقبون رجوع زهير ، و يتربصون به ، ولو ترك زهير من يلى أمر برقة لما تمكن الروم من احتلالها ، ولاتخذ لكل ما يحدث من حركاتهم ما يحبطها ، ولكنه لم يفعل، فكانت فرصة انتهزها الروم للغدر به وبالمسلمين فى برقة . وهكذا كان.

يقول صاحب المؤنس إن زهيراً لما وصل إلى درنة عرج على طريق البحر فى نفر قليل من أصحابه ، فرأى بعض المسلمين فى أسر النصارى يحاولون إدخالهم فى مراكبهم ، فاستغاثوا به فحاول إنقاذهم ، ولكن جموع الروم تغلبت عليه هو وأصحابه ، وقاتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك سنة ٧١ . ووافقه على هذه الرواية صاحبا نزهة الأنظار والحلل السندسية . وسيأتى سبب آخر لاستشهادهم .

وقصة زهير هذه أشبه بقصة عقبة التى قتل فيها ، فهو بانحيازه إلى طريق الساحل فى نفر قليل من أصحابه فعل كما فعل عقبة حينما أمر الجيش بالذهاب إلى القيروان وبقى فى نفر قليل . وقد ذهب زهير ضحية هذا التدبير ، كما ذهب عقبة ضحية تدبير مثله .

وفى مثله يقول الشاعر :

فتىً مات بين الضرب والطعن ميتةً   تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ
وما ماتَ حتى ماتَ مضربُ سيفه   من الضرْب واعتلت عليه القنَا السمْر

الفتح التاسع

حسان بن النعمان

بعد أن استشهد عقبة ، ورجع زهير إلى المشرق انتشرت الردة فى إفريقية بين البربر كعادتهم فى كل مرة بعد أن يرجع العرب إلى الشرق ، وتمردوا على العرب ، ونقضوا عهودهم ونزعت نفوسهم إلى الثورة ، قال بعض المؤرخين إن فتح حسان هو الفتح الحقيقى .

وكان حسان بن النعمان آن ذاك والياً على مصر من قبل عبد الملك بن مروان ، فأضاف إليه ولاية المغرب ابتداء من أجدابية ، ويشمل إفريقية كلها ، وكان ذلك سنة ٧٧[١] وأمره بالخروج إلى إفريقية لفتحها ، وأطلق يده فى أموال مصر يعطى منها من شاء كيف شاء ، فى جيش قوامه أربعون ألف مجاهد على رواية ابن عذارى وغيره . ويقول ابن الأثير إنه أكبر جيش دخل إفريقية فيما تقدمه من الغزوات . ولما وصل طرابلس نزل بها ، واجتمع عليه من كان خرج من إفريقية . . .

ويقول ابن عبد الحكم : وأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية برياسة هلال ابن ثروان اللواتى وزهير بن قيس البلوى فغزت بعض الأطراف ، وأصابت غنائم . . وهنا نلاحظ أن زهيراً كان فى مقدمة جيش حسان ، وهذا يخالف

---

(١) هذا التاريخ ذكره صاحب المؤنس ، وصاحب لب التاريخ وفى خلاصة تاريخ تونس وفى البيان المغرب أنه كان سنة ٧٨ . وذكر صاحب الخلاصة أنه عين سنة ٧٨ ، ودخل إفريقية سنة ٧٩ . وذكر ابن عبد الحكم أنه كان سنة ٧٣ . وفى الحلل السندسية سنة ٧٩ . وفى نزهة الأنظار سنة ٦٩ ، ودامت ولايته إلى سنة ٨٨ . ونجد بين بعض هذه التواريخ تضارباً كبيراً ، وبالرغم على ما بينها من اختلاف نجدها مجمعة على دخول حسان إفريقية ، ونجد بينها شبه إجماع على تفاصيل ما حدث له فيها

ما تقدم من أنه استشهد فى رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة ، ويؤيد قصة استشهاده الآتية .

ويظهر أن طرابلس بقيت على عهدها مع العرب من أيام عقبة فمر بها حسان آمناً مطمئناً . ويؤيد هذا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر أن حساناً فتحها فى هذه الغزوة ، وأيضاً فقد قدمنا أن صلتها ببرقة أصبحت أقوى من صلتها بحكم جرجيرفى إفريقية . وأيضاً فإنه لما هزمته الكاهنة نزل فى أراضيها الشرقية .

وإذا نظرنا إلى أن هلال بن ثروان هو أول بربرى مسلم تسند إليه رياسة جماعة من العرب الفاتحين دلنا هذا على أن البربر أصبحوا يطمئنون للعرب الفاتحين وللدين الجديد .

وصل حسان إلى القيروان ودخلها بدون أن يعترض سبيله أحد[١] ، وهذا يدل على أن الروم لم يدخلوها بعد أن غادرها زهير ، ويؤكد أنها بقيت على ولائها ويرجح أن طرابلس بقيت أيضاً على مثل هذا الولاء .

ولما استقر حسان سأل أهل القيروان عن أعظم الملوك فى إفريقية ، فدلوه على حاكم قرطاجنة ، وكانت أكبر مدينة فى الشمال الإفريقى ، وبها خلق كثير من الروم والبربر ، وكانت فى منعة من كثرة الجند والحصون القوية ، وقربها من البحر فغزاها حسان ، وقاتل أهلها دونها قتال المستميت . وطال حصارها . وهدم العرب قناتها التى كانت تأتيها بالماء من جبل زغوان فقطع عنها الماء . ولم يزل بها العرب حتى فتحوها عنوة ، وخربوا بعض أبراجها حتى لا يحتمى بها الروم والبربر مرة ثانية . وقتل فيها خلق كثير . وفر بعض أهلها فى السفن البحرية إلى صقلية

(١) يقول صاحب معارك الإسلام الكبرى : « رسم حسان خطة خاطفة للقضاء على الروم بالاتجاه بقواته مباشرة إلى عاصمتهم قرطاجنة ، وكانت على درجة كبيرة من المناعة ، فضرب حولها الحصار ، ثم اقتحمها بقواته ، وترك بها حامية صغيرة وانصرف عائداً إلى القيروان ، وفى طريقه إلى العاصمة الإسلامية (القيروان) جاءته الأنباء بأن سكان قرطاجنة تمكنوا من احتلال المدينة بمعاونة البربر وطردوا حاميتها ، وأسرعوا إلى تحصينها فعاد بقواته مسرعاً حيث حاصرها مرة أخرى وافتتحها عنوة ، ثم أمر بتخريبها وهدمها » .

ويؤخذ من هذا أن حساناً قصدها رأساً وأنها فتحت مرتين .

والأندلس . ولجأ بعض البربر إلى برقة ، ورجع حسان بجيشه إلى القيروان . وانتهوا من فتح قرطاجنة سنة ٧٨ .

وهذه أول غزوة عربية على قرطاجنة ، لأن العرب كانوا يتحاشونها لمناعتها وقربها من البحر . وكانت تعتز بما حولها من المدن ، حتى إذا ما تداعت الواحدة تلو الأخرى انفسح الطريق بينها وبين العرب ، ووجد حسان القوة الكافية لمهاجمتها ، فهاجمها ووفق فى فتحها .

ثم سأل حسان ؛ هل بقى أحد من البربر له شوكة ؟ فقالوا له : امرأة ساحرة بجبال أوراس تسمى الكاهنة ، فإن قتلتها دان لك المغرب كله .

الكاهنة

امرأة بربرية ذات حول وسلطان على البربر ، احترفت السحر والكهانة ومن هذا الطريق اكتسبت سلطانها . . اسمها داهيا بنت ماتيا[١] الزناتية . أو بنت ينفاق ، أو بنت تابتة . وقال ابن خلدون: اسمها دهيا . وهى من قبيلة جراوة ،من زناتة القبيلة البربرية المشهورة . ويقال إن جراوة تهودت قبل الإسلام .

وكانت الكاهنة بارعة فى علم الكهانة ، تستوحى الشياطين علم ما غاب عنها . وكانت قوية الإرادة ، شديدة البطش ، استطاعت بقوتها أن تملى إرادتها على البربر وتحكمهم . وقد أضفت على نفسها — من طريق الكهانة — صفة البركة والولاية ، فكان العامة يعتقدون فيها ذلك . وقد أمكنها أن تهيمن على عقولهم من هذا الطريق ، طريق الدجل والشعوذة ، واستعملت سلطانها إلى أبعد حد فى تمكين هذه الحقيقة من عقولهم ، وبذلك سهل عليها أن تسودهم وتسيطر عليهم . . . وقد شمل نفوذها أكثر إفريقية ، وكان الروم يهابونها ، واستغلوها ضد العرب إلى أبعد حدود الاستغلال ، ويطيعها البربر طاعة عمياء . . . وهى تقيم بجبال أوراس[٢] .

---

(١) فى خلاصة تاريخ تونس : دهيا بنت تابتت.

(٢) الأوراس : سلسلة جبال فى الجنوب الشرقى من قسنطينة بالجزائر.

وقد رأى حسان أنه لا بد له من القضاء على هذه الكاهنة حتى يمكنه فتح إفريقية ونشر تعاليم الإسلام فيها ، فجمع جيشه وغزاها بجبال أوراس ، والتحم الفريقان فى معارك كانت دامية ، وكانت من أشدها معركة وادى سكتاتة ، فقد نزل فيها البلاء بالمسلمين ، وهزم حسان وجيشه ، وقتل من العرب خلق كثير ، وأسر منهم ثمانون رجلا . ومن شدة ما نزل بهم سمى ذلك اليوم يوم البلاء ، وسمى الوادى وادى البلاء . . . وأفلت حسان مع من بقى من جيشه ، والتجأ إلى جهة طرابلس . وطاردته الكاهنة حتى حدود قابس الشرقية ثم رجعت ولم تدخل القيروان . . .

وأرسل حسان بخبر هزيمته إلى عبد الملك وقال له : « إن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم[1] » . فأرسل إليه عبد الملك أن ينتظر حيث أدركه كتابه ، فأدركه فى أراضى سرت من الناحية الغربية ، فأقام بها خمس سنوات ينتظر المدد ، وبنى بها قصرين ما زالت آثارهما تعرف بقصور حسان وأتاه المدد سنة ٨٤ .

وبعد هزيمة حسان استرد الروم قرطاجنة ، وأنزلوا فيها حامية كبيرة بقيادة البطريق يوحنا سنة ٧٨ وقد تقاسم النفوذ مع الكاهنة ، فاهتم هو بإعادة سيطرة الروم على الساحل ، وترك ما وراء الساحل من الجنوب للكاهنة وخلا الجو للكاهنة فى إفريقية ، وعاد نفوذها عليها ما عدا القيروان ، وأحسنت إلى من أسرتهم من العرب ، وأطلقت سراحهم .

وقد علمت — من طريق الكهانة — أن العرب سيتغلبون عليها ويزيلون ملكها ، فأبقت لديها من الأسرى خالد بن يزيد العبسى ليكون لها واسطة عند العرب إذا ما أحدق بها الخطر ، وكان وسيم الوجه حسن الطلعة ، وقد أرادت أن يكون لها محرماً لتتمكن من التحدث إليه كابن لها ، وهى له كأم ، و

---

(١) البيان المغرب .

يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع ، فقالت له أريد أن أرضعك لتكون أخاً لولدىَّ ، فقال لها كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع ؟ فقالت له : إننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه ، ثم عمدت إلى سَويق من دقيق الشعير فلتَّتْه بزيت — وهو ما يسميه المغاربة بسيسة — ثم جعلته على ثدييها ، ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت ، فقالت لهم : « أنتم إخوة من الرضاع » .

خراب إفريقية :

رأت الكاهنة — فى تفكيرها الخاطئ أن العرب إنما يأتون إلى إفريقية طمعاً فى ثروتها وخيراتها ، فأشارت على قومها بأن العرب إنما يأتون إفريقية طمعاً فى أشجارها وثمارها ، ويقصدون المدن طمعاً فيما فيها من الذهب والفضة ، ونحن إنما نريد من إفريقية المزارع والمراعى والحيوانات ، فإذا ما قطعنا أشجارها وخربنا مدنها وقراها انقطع العرب عن غزوها ، فالرأى عندى تخريب المدن والحصون وقطع الأشجار حتى تنقطع أطماع العرب[1] — وكانت إفريقية بساتين مزروعة ، ومروجاً خضراء ، وقرى متصلة ، ومدناً منظمة من طرابلس إلى طنجة — فأرسلت عمالا إلى كل ناحية يقطعون الشجر ، ويحرقون الغابات والأحراش ، ويهدمون القرى والمدن ، حتى أتت على كل ما فيها من عمران ، وتركتها خراباً يباباً من طرابلس إلى طنجة ، وانعدم العمران الإفريقى كله ، فاضطر كثير من البربر والروم إلى الجلاء عن إفريقية إلى الأندلس وجزائر البحر الأبيض . . . وقد ضربت الكاهنة بهذه السياسة النسائية الخرقاء الرقم القياسى فى الجهل بمعرفة مقاصد العرب وتقدير العواقب ، فكان عملها هذا أقوى معول استعمل فى هدم ملكها وزوال سلطانها . واستاء الروم والبربر مما فعلت ، وفترت عزائمهم فى الدفاع عن إفريقية ، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم ، وحيث إن الكاهنة أتت على

---

(١) خلاصة تاريخ تونس .

ما فيها من موارد الثروة وجمال العمران وتركتهم ضحية للفقر والجوع فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلقعاً . وذهب كثير منهم إلى حسان يشكون إليه فعل الكاهنة ويستنجدون به عليها فأكرم وفادتهم ، وانتهزها فرصة للانتصار بهم على الكاهنة . فأجاب طلبهم .

وكانت الكاهنة تهدف بعملها هذا إلى صرف أنظار العرب عن إفريقية وهماً منها أنهم إنما يترددون عليها للسلب والنهب . وفاتها أنهم إنما كانوا يغزون إفريقية لنشر تعاليم الإسلام ، وإنقاذ البربر من ظلمات الوثنية وما كانوا فيه من شرك ، ولذلك فإن عملها جاء بضد ما قصدت إليه ، وكان سببا فى فشل سياستها الخرقاء [1] .

واتصل حسان بخالد سرًّا يستفسر منه عن أمر الكاهنة والبربر ، فكتب إليه فى ظهر كتابه : « إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم ، وإنما ابتلينا بأمر أراد الله عز وجل أن يكرم به من مضى ، فاطو المراحل ، وجد فى السير ، فإن الأمر لله ، ولن يسلمك إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » [2] .

وجاء المدد من عبد الملك إلى حسان سنة ٨٤ بأربعين ألف مقاتل . ورأى حسان الفرصة سانحة لإعادة الكرة على الكاهنة لتذمر البربر من أعمالها ولوصول المدد فجمع جيشه وسار إلى إفريقية ، ولقيه الروم والبربر مستغيثين به مما فعلت

---

(١) إن ما قامت به الكاهنة من أعمال التخريب فى إفريقية هو أساس خرابها . وقد زاد فى خرابها تلك الحروب الطاحنة المتوالية فما كانت تنتهى من حرب حتى تنشب أخرى ، فلم تتح لأهلها فرصة يستردون فيها ما فقدت من منابع الثروة ووسائل العمران . وقد أسس فيها حسان مبادئ عمران ، وأحدث فيها الأغالبة من وسائله كثيراً ، ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه .

(٢) ذكر هذا صاحب الحلل السندسية . ويقال إن خالداً أرسل الجواب فى رغيف من خبز الملة ، فأخبرت قومها بأن زوال ملكهم فى شىء يأكلونه . وأرسل جواباً آخر فى قربوس السرج ، فأخبرتهم بأن زوال ملكهم فى خشبة .

الكاهنة ، فاستبشر خيراً وتقدم لملاقاتها ، والتقى بجيشها بقصر أجم [١] — وكانت متحصنة فيه — ونشبت بينهما حرب قاسية ظن أنها الفناء ، وظهر الضعف على جيوش الكاهنة . . . وكانت أخبرت ولديها ويزيد بن خالد العبسى أنها مقتولة لا محالة ، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس إلى جهة المشرق . فقال لها خالد وابناها : إذا كان الأمر كذلك فاتركى البلد لحسان وارجعى بنا ، فقالت كيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر ، فأقلد قومى عاراً إلى آخر الدهر ؟ فقالوا لها : ألا تخافين على قومك ؟ ، فقالت إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحداً . ولما أحاطت بها جيوش العرب وعلمت أنها مقتولة لا محالة طلبت من خالد بن يزيد أن يطلب الأمان لابنيها من حسان ، وقالت له : « إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم » ، وأمرت ولديها وخالداً أن يذهبوا إلى حسان ، فذهبوا إليه ليلا ، وأخذ لهما خالد الأمان ، وقال لحسان : لقد علمت من طريق الكهانة أنها مقتولة . . . ولما احتدم القتال نزلت إلى المعركة بنفسها ثائرة ناشرة شعرها ، وقاتلت حتى انهزمت فتبعها حسان حتى قتلها بمكان ما زال يعرف ببئر الكاهنة بقرب جبال أوراس ، وهو موطن جراوة قبيلة الكاهنة . . وقيل قتلها بطبرقة . ويقال إن حساناً قطع رأسها وأرسله إلى عبد الملك سنة ٨٤ [٢] . . وبعد قتلها أخلد البربر إلى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام .

وطلب البربر الصلح من حسان ، فاشترط عليهم أن يقدموا له اثنى عشر ألفاً من المحاربين يكونون فى صفوف الجهاد ، فرضوا بذلك ، وولى عليهم

---

(١) قصر أوحصن أجم ، هو من أشهر حصون إفريقية وأمنعها ، يبلغ علوه مائة ذراع ، ودوره ميل حوصرت فيه الكاهنة . وجاء فى رحلة محمد بك فريد أنه ما بين صفاقس وسوسة ، وهو بقايا تياترو رومانى قديم ضخم البناء ، ويتكون من ست طبقات كلها من الحجر . وتوجد بجواره قرية عربية تسمى أجم . وهذه القرية أقيمت على أطلال مدينة رومانية تسمى تيدروس . . . وقال فى خلاصة تاريخ تونس : أجم ، واسمها الرومانى توسدروس مدينة صغيرة بعمل المهدية فى منتصف الطريق بين سوسة وصفاقس ، اشتهرت بأنها ملعب لمبارزة الحيوان : طوله ١٥٠ متراً وعرضه ١٢٥ ، وارتفاعه ٣٦ متراً ، وهو من أكبر المراسح الموجودة فى العالم ، وما زال هذا البناء قائماً يقصده السياح من جميع الآفاق .

(٢) يقال إنها كانت ضخمة الجسم جداً ، حتى إنها لما قتلت قال من رآها : إن الأترجة يمكن أن تتدحرج بين كتفيها وعجيزتها لكثرة اللحم حول فقار ظهرها .

ابنى الكاهنة ، كل واحد على ٦٠٠٠ ، وأرسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر . وكان مقتل الكاهنة فى رمضان سنة ٨٤ [1] ، وحسن إسلام كثير من البربر ودانوا بالطاعة . وبموت الكاهنة وجلاء الروم عن قرطاجنة دانت إفريقية بأسرها للعرب ، وانتهى الصراع الدامى الذى استمر أكثر من ستين سنة بين العرب من ناحية ، والروم والبربر من ناحية أخرى .

وبعد قتل الكاهنة توجه حسان بجيشه إلى قرطاجنة للقضاء على الروم ، وبعد معركة عنيفة سقطت فى يد العرب ، وهزم البطريق يوحنا فجمع من بقى من جنوده فى أسطول وعاد بهم إلى القسطنطينية . وكان هذا آخر عهد الروم بإفريقية وودعوها الوداع الأخير .

وتفرغ حسان لتنظيم الإدارة الإفريقية فدوّن الدواوين ، وجعل اللغة العربية فى دواوين الحكومة هى الرسمية ، ووزع الأراضى على فقراء البربر بعد أن كانت ملكاً للحكومة البيزنطية ، فازدادوا رغبة فى الإسلام . وفرض الخراج على الأراضى ، وجدد بناء جامع القيروان . وبإصلاحات حسان انتعشت إفريقية وكثر عمرانها ولا شك أن هذا الإصلاح شمل طرابلس لأنها كانت تابعة للقيروان إذ ذاك .

ويمكن القول بأن أعمال حسان فى إفريقية كانت بداية لنهاية فتحها ، لأن ما وضعه حسان من نظم مبدئية ، وإشراك البربر فى الفتح ، وفى رياسة الأجناد ، وما لمسوه من مساواتهم بالعرب فى الحقوق — كل هذا كان سبباً فى اطمئنان نفوسهم نحو العرب ، وميلهم لاعتناق الإسلام ، وقوى أملهم فى الاستقرار فأخذوا يعملون — باعتناقهم الإسلام وانحيازهم إلى صفوف العرب — لقتال الروم ومن انضم إليهم من الأفارقة والبربر للتعجيل بقطع دابر الفتنة واستتباب الراحة .

وحكمت الكاهنة البربر خمساً وثلاثين سنة ، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة وبعد قتلها تشتت شمل البربر ، ولم تبق لهم رياسة تجمعهم مما

---

(١) قال فى البيان المغرب : إن غزوات حسان وقتله الكاهنة لم تضبط تواريخها ، وأن عزل حسان بن النعمان ، وتولية موسى بن نصير كانا من عبد العزيز ، وبدون إذن أخيه عبد الملك .

سهل انضمامهم إلى حسان وغيره من رؤساء العرب الفاتحين . . . وكان وجودها ووجود كسيلة أكبر عقبة فى تقدم الفتح الإسلامى . وبعد موتهما أخذ الإسلام فى الانتشار ، وقواعده فى الرسوخ . . . وأخذ البربر يشاركون فى وضع الخطط فى افريقية ، وصاروا يقتسمون الفىء مع المجاهدين ، وحسنت طاعتهم .

ورجع حسان إلى القيروان وأقام بها ، واستقامت له الأمور ، وهو أول من دون الدواوين ، ووضع الخراج على الروم ، وعلى من بقى من البربر معهم على دين النصرانية ، وجدد جامع القيروان فى رمضان سنة ٨٤ ما عدا المحراب.

ورجع حسان إلى المشرق ومعه ما غنمه من إفريقية ، وكان شيئاً كثيراً . ويقال إنه كان معه من سبي البربر خمسة وثلاثون ألفاً . . وولّى على الصدقات حنش بن عبد الله الصنعانى ، واستخلف على إفريقية رجلا من جنده يقال له صالح .

ولما مر ببرقة ولى على خراجها إبراهيم بن النصرانى ، واستمر فى طريقه إلى أن وصل إلى مصر ، فتلقاه عبد العزيز بن مروان ، وأخذ كثيراً مما معه من الغنائم التى كان يريد تسليمها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق . . وكان حسان أدرك هذه النتيجة من عبد العزيز فأخفى كثيراً من الذهب والجواهر فى قرب الماء ، ولولا هذه الحيلة لما أفلت من عبد العزيز إلا بما عزفت عنه نفسه .

وسار حسان إلى دمشق حيث الخليفة عبد الملك ، وترك زهير بن قيس فى مصر مع عبد العزيز بن مروان . وسر عبد الملك بغنائم حسان وكثرتها ، وكان من بين الغنائم وصائف بربريات كثيرات ذات جمال بارع وحسن رائع . وقد ازداد فرحه حينما أفرغ بين يديه ما كان معه فى القرب من جواهر وذهب .

ومن المؤرخين من يروى أن حسان وصل إلى دمشق بعد وفاة عبد الملك وتولّى الوليد الخلافة . ويقول صاحب هذه الرواية إنه لما رأى الوليد كثرة ما معه من الغنائم عرض عليه أن يرده إلى عمله فى إفريقية فأبى ، وقال : « لا ألى لبنى أمية » ، لما رآه من تعسف عبد العزيز معه فى مصر .

مقتل زهير بن قيس

هذه رواية ابن عبد الحكم فى سبب قتل زهير وأصحابه تخالف الرواية الأولى:

بعد أن غادر حسان برقة لم تلبث الأمور فيها أن اضطربت ، ونقض الروم عهدهم وثاروا على من فيها من المسلمين والعرب واحتلوها ، وفر إبراهيم بن النصرانى وترك برقة وأهل ذمتها فى أيدى الروم فاستبدوا بحكمها ، وبلغ خبرها عبد العزيز بن مروان بمصر ، فندب لها زهير بن قيس ، فجمع نحو سبعين مقاتلا ، ولكن عبد العزيز لم يمهله حتى يجمع عدداً كبيراً من المقاتلين وألح عليه فى الخروج ، فخرج زهير مغاضباً له وقال له : « أنا خارج لا ردنى الله إليك » فلما بلغ درنة لقيه الروم فى جموعهم الكثيرة ، ولم يكن مع زهير إلا أصحابه السبعون ، فقاتلوهم قتالا شديداً حتى استشهدوا عن آخرهم [1] . وما زالت قبورهم مشهورة بدرنة ، وتعرف بقبور الصحابة تقصد للزيارات ، وتلتمس عندها الرحمات . . . هذا ملخص رواية ابن عبد الحكم . . . وبينها وبين الرواية التى تقدمت خلاف ؛ فإن فى هذه الرواية كان زهير عاملا لعبد العزيز ، أما فى الأولى فكان عاملا لعبد الملك .

ويمكن القول بأن زهيراً لم يقتل حينما كان راجعاً من غزو إفريقية فى المرة الأولى ، بل مر ببرقة وذهب إلى دمشق ، لأنه يستبعد أن يمثل الدور الذى وقع لعقبة وهو أن يبقى فى نفر قليل من أصحابه ويدخل ديار العدو ، ويترك بقية الجيش تسير فى طريق آخر ليفاجئه العدو مثل ما فاجأ عقبة ، وكان حاضراً مع عقبة ، ووقع الحادث على مرءى منه . . ويبعد كذلك أن يقتل زهير وأصحابه ولا تقوم بقية الجيش بأى عمل لإنقاذه ، أو للأخذ بثأره . . وبعد أن تجاوز حسان برقة إلى مصر احتل الروم برقة ، وابتدأت الرواية الثانية .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن قتلهم كان سنة ٧٦ وهو يختلف مع ما قبله .

ومما يرجح صحة الرواية الثانية أن زهيراً خرج مغاضباً لعبد العزيز ، وكان معه نفر قليل ، ومن المعقول تغلب الروم عليهم ، ولم يكن فى الرواية الأولى ما يشبه حديث زهير مع عبد العزيز حتى نقول إنه اشتبه الأمر على الراوى ، فنسب ما فى إحدى الروايتين للأخرى ، بخلاف وجوده ببرقة فقد كان فى المرة الأولى والثانية ، وهذا هو محل الاشتباه بين الروا يتين فاشتبه الأمر على بعض الرواة ، فبعضهم نسب قتله لوجوده فى المرة الأولى ، وبعضهم نسبه لوجوده فى المرة الثانية . . . وقرائن الأحوال تدل على صحة الرواية الثانية . ويؤكد صحتها وجود زهير مع حسان فى إفريقية ، وأن حسان لما رجع إلى الشرق كان معه زهير وتركه فى مصر مع عبد العزيز ، ولا يوجد مثل هذا فى الرواية الأولى حتى يكون موضع اشتباه .

عطية بن يربوع

لم يذهب دم زهير هدراً . فإنه بعد قتله انتدب لقتال الروم فى برقة عطية ابن يربوع المذحجى ، واستغاث ببعض المسلمين الذين كانوا منتشرين فى بادية برقة وحوالى درنة ، فاجتمع حوله نحو ٧٠٠ رجل ، وزحف بهم على الروم فقاتلهم حتى هزمهم ، ولم ينج منهم إلا من فر بالسفن فى البحر . وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان بمصر ، فأرسل عبده طارقاً فى جماعة من أشراف مصر ليتولى أمور المسلمين بدرنة ويصلى بهم [١] ، ولكن الناس استاءوا من أن يحكمهم ويصلى بهم عبد ، ووصل خبر ذلك إلى عبد العزيز ، فأرسل إلى طارق يعتقه ، وأقام بدرنة . وقصة محاربة عطية بن يربوع للروم انتقاماً لزهير مما يرجح الرواية الثانية .

تقدم أن حسان بن النعمان قال للوليد : لا ألى لبنى أمية . وعلى رواية من

---

(١) كانت عادة المسلمين فى صدر الإسلام أن يصلى بهم الحاكم . وكانت الإمامة من وظائفه .

يقول إن حسان وجد عبد الملك فى دمشق ، فإنه يقول أيضاً إن عبد الملك أقر حسان على إمارة المغرب وأمره بالرجوع إليه ، ولما وصل حسان إلى مصر طلب من عبد العزيز أن يخلع طارقاً عن ولاية درنة فأبى ، فقال له حسان : إذاً أرجع إلى عبد الملك ، فقال له ارجع ، وكان عبد العزيز يريد أن يولى على المغرب موسى بن نصير . ورجع حسان إلى الشام لمقابلة عبد الملك ، ولكن عبد الملك ما لبث أن توفى .

الفتح العاشر

موسى بن نصير[1]

كان عبد العزيز بن مروان يمانع فى رجوع حسان إلى إفريقية ، ويريد أن يولى عليها موسى بن نصير لصداقة بينهما ، فولاه عليها ، وقدمها سنة ٨٨ [2] وكان بها صالح الذى استخلفه حسان فعزله .

وكانت فتوحات حسان قد مهدت لموسى بن نصير ، وأخذت الأحوال تستقر ، ووجد موسى القيروان هادئة ، ونهض لقتال الروم ومن يناصرهم من البربر والأفارقة ، واستمرت فتوحاته إلى الأندلس ، وأرسل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر غنائم كانت كثرتها محل إعجاب الناس وتقديرهم لشجاعة موسى ابن نصير ، وأعجب به عبد العزيز أيما إعجاب .

ورجع موسى إلى المشرق سنة ٩٤ أو سنة ٩٥ بطلب من الوليد . وقد نكبه الوليد نكبة ما زالت يضرب بها المثل فى عدم الوفاء للمخلصين ، أدت به إلى الفقر المدقع بعد تلك الغنائم التى يضرب المثل بكثرتها .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن اللخمى ، ولد سنة ١٩ للهجرة . وهو من كبار التابعين . وكان كريماً وشجاعاً مع معرفة بأمور الحرب ، قيل إنه لم يهزم له جيش قط . وتوفى وهو فى طريقه إلى الحج مع سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ أو ٩٧ .

(٢) ذكر هذا التاريخ صاحب « لب التاريخ » . وذكر غيره أنه كان سنة ٧٨ أو ٧٩ ، وهذا لا يصح ، لأن حساناً كان فى هذا التاريخ موجوداً فى إفريقية . وقال فى نزهة الأنظار إنه كان سنة ٧٩ ، ونقل فيها عن جذوة المقتبس أنه كان سنة ٩٧ وهذا غير صحيح لأن موسى توفى سنة ٩٦ أو ٩٧ . . وهذا تضارب كبير ، وتفاوت كثير بين هذه التواريخ ، والذى يرجع إلى تاريخ وجود حسان فى إفريقية يظهر له ترجيح مجىء موسى إليها سنة ٨٨ . وجاء فى خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسنى أنه كان سنة ٨٥ .

وموسى بن نصير أول من عنى بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين . فقد قال ابن خلدون : « ارتد البربر فى إفريقية عن الإسلام اثنتا عشرة مرة ، ولم يثبتوا على الإسلام إلا فى عهد موسى بن نصير » . وفى زمنه أخذت الأحوال تستقر فى طرابلس [١] .

ولاية بكر بن عيسى القيسى
على طرابلس

كانت طرابلس قد شملها الهدوء الذى شمل القيروان . وجاء موسى وهى على الحال التى تركها عليها حسان . ولم نعلم اسم من عينه حسان عاملا عليها وقبل أن يغادر موسى إفريقية ولى على طرابلس بكر بن عيسى القيسى ، واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله ، وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز . . . وكان معه فى غزوته على الأندلس المنيذر الصحابى . ورجع المنيذر من الأندلس إلى طرابلس ، وتوفى بها ، وقبره مشهور لا يختلف فيه اثنان .

والمنيذر — بصيغة التصغير — يمانى ، من مذحج أو من كندة . ويقال له المنيذر الإفريقى لطول بقائه فيها [٢] . وقد صحب النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عنه رشدين بن سعد ، وحى بن عبد الله من طريق عبد الرحمن الحبلى .

---

(١) البستانى فى دائرة المعارف .

(٢) ذكر ابن السكن والبغوى أنه سكن إفريقية .

محمد بن يزيد القرشى

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية والمغرب سنة ٩٧ . ومما أوصاه به سليمان : « اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » ، ودامت ولايته سنتين وأشهراً . ولم نطلع على من ولاه على طرابلس .

عبد الله بن كريز

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية ، وعلى رأس المائة دانت له من برقة إلى السوس ، وعزله عبد العزيز بن مروان ، وولى بعده محمد بن يزيد الأنصارى .

إسماعيل ابن عبيد الله
ابن أبى المهاجر

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية فى المحرم سنة ١٠٠ ، فكان خير أمير ، قال ابن خلدون : وأسلم جميع البربر فى أيامه . وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس فى أمور الدين ، ويبينون لهم الحلال والحرام . وهم :

١ — عبد الله بن يزيد المعافرى (أبو عبد الرحمن الحبلى) وهو رئيس البعثة ، انتفع منه أهل إفريقية ، وبث فيهم علماً كثيراً ، وهو الذى بنى جامع الرباط ، وتوفى بالقيروان سنة ١٠٠ ، ودفن بباب تونس ، وهو باب من أبواب سور مدينة القيروان قبالة مدينة تونس .

٢ ــ سعيد بن مسعود التجيبي (أبو مسعود) صاح بأمير إفريقية عقب صلاة الجمعة فى مظلمة ، فقال له : أنا بالله لا بك ، فقضى حاجته .

٣ ــ إسماعيل بن عبيد الأنصارى ، مولى الأنصار ، ويعرف بتاجر الله ، كان كثير الصدقة والعبادة ، محسناً غاية الإحسان ، وسمى تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه فى وجوه الخير . وكان يتجر فى المولدات ، فسمع بكاء فى القافلة ، فقال ما هذا ؟ ، فقيل له المولدات اللائى وجهتهن يبكين مع آبائهن وأمهاتهن وأخواتهن ، فبكى وقال : « إن دنيا بلغت بى إلى أن أفرق بين الأحبة إنها لدنيا سوء ، أشهدكم أن من كان لها أب ، أو أم ، أو أخت ، فهى حرة لوجه الله عز وجل » فأنزل من المحامل سبعين مولدة فاعتقهن كلهن . وهو الذى بنى جامعاً وسوقاً بالقيروان ، نسبا إليه . وله قصص كثيرة فى عمل المعروف ، والإحسان إلى الفقراء ، تظهر ما لهذا الرجل من القدر العظيم . توفى مجاهداً فى فتح صقلية سنة ١٠٧ .

٤ ــ عبد الرحمن بن رافع (أبو الجهم) التنوخى ، من فضلاء المؤمنين وهو أول من ولى قضاء القيروان من قبل موسى بن نصير ، توفى بالقيروان سنة ١١٣ .

٥ ــ موهب بن حى المعافرى ، كان من أهل الفضل والعلم أقام بالقيروان وتوفى بها .

٦ ــ حيان بن أبى جبلة القرشى ، مولى بنى عبد الدار ، كان من أهل الفضل والصلاح . سكن القيروان وانتفع به أهلها . توفى سنة ١٢٥ .

٧ ــ بكر بن سوادة الجذامى (أبو ثمامة) . كان من أهل الفضل . سكن القيروان وتوفى بها سنة ١٢٨ .

٨ ــ جعثل بن عاهان بن عمير البتور (أبو سعيد) ولى قضاء الجند بإفريقية لهشام بن عبد الملك . توفى أول خلافة هشام قريباً من سنة ١١٥ .

٩ ــ إسماعيل بن عبيد الله الأعور بن أبى المهاجر القرشى المخزومى ، (أبو عبد الحميد) كان من أهل الدين والزهد . سكن القيروان ، وسار فى

المسلمين بالحق والعدل ، وعلمهم السنن . أسلم على يديه خلق كثير من البربر . توفى بالقيروان سنة ١٣٢ .

١٠ ــ طلق بن جابان ، ويقال له طلق بن جعنان الفارسى .

* * *

هؤلاء هم الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا الناس فى دينهم ، فكانوا عند ظنه بهم ، وكانوا للناس قدوة صالحة .

ولما ثار الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة جمع هؤلاء العشرة فكتبوا له رسالة ليقتدى بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها . وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة أما بعد . فإن أهل العلم بالله ، وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات : آمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وأمثال : فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يجتنب ، وأمثال واعظة : فمن يطع الآمرة ، وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وأنذرته المنذرة . ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله ، مع طاعة واضحة ، ونية صالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وما زال ابن أبى المهاجر يدعو البربر إلى الإسلام حتى أسلم منهم خلق كثير وانتشرت بينهم تعاليم الإسلام ، وأذعنوا لحكمه ، ورسخت فيهم كلمته ، وتناسوا الردة . وجاء فى المؤنس . وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة ، فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على النصرانية فضربت عليه الجزية ، وانحاز بعض النصارى إلى عدة قرى كانوا متجمعين فيها .

يزيد بن أبي مسلم

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٢ ، وهو مولى للحجاج بن يوسف وكان ظالماً مثله ، وقد ضاق البربر بظلمه وسئموا حكمه ، فقتلوه بعد شهرين من ولايته ، وولوا عليهم محمد بن يزيد — وهى ولايته الثانية — وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك معتذرين من قتل يزيد بن أبي مسلم فقبل عذرهم وأقر ما فعلوه .

وقد اقترن قتل يزيد بظهور دعوة الخوارج فى إفريقية ، وقد وصلت إليهم من العرب القادمين من العراق ، فلقنوها البربر ، فوجدت فى نفوسهم أرضاً خصبة ، فنمت فيها وأخذت فى الانتشار .

الخوارج

ولمناسبة ذكر الخوارج ، وما تركوه فى إفريقية من أثر سيئ يحسن أن نقول عنهم كلمة نحاول فيها تحديد زمن دخولهم إفريقية ، أو ما يقرب من التحديد ، كما نحاول ذكر بعض فرقهم المخالفة لتعاليم الإسلام الصحيحة ورغبات العرب .

لما اشتد الخلاف بين سيدنا على ومعاوية ، وانحاز أكثر الصحابة إلى على ، وانحاز بعضهم إلى معاوية ، وحصلت بينهم حروب كان من أشدها هولا واقعة صفين ، فكان من آثارها أن دعا بعض الناس إلى التحكيم بين الفريقين المتحاربين . ولما رضى سيدنا على بالتحكيم ، انشقت عليه جماعة من أتباعه — وكانوا ممن وافق على التحكيم — ونقضوا بيعته ، ولم ينضموا إلى معاوية ، وقالوا كلمتهم المشئومة : « لا حكم إلا لله » فسموا الخوارج . . وقد قال لهم سيدنا على : إن هذه كلمة حق أريد بها باطل . وبذل سيدنا على جهده فى

إقناعهم ، فأصروا على العناد ، وأبو إلا الخروج على علىّ ومعاوية فأصبحوا قسماً ثالثاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وقاتلوا سيدنا عليًّا وحزبه قتالا مريراً كانوا أثبت فيه للموت من الحبال للرياح .

ومنذ أن خرجوا على سيدنا علىّ انفتح باب الفتنة فى المسلمين فلم يسد بعد ، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض .

ولم يقتصروا فى نشر مذاهبهم الهدامة على الشرق فقط ، بل تسللت رسلهم إلى المغرب ، وبثوا فيه ضلالاتهم ، ووجدت دعوتهم الخبيثة من البربر آذاناً صاغية فتمكنت من نفوسهم ، وتفرقوا فيها أحزاباً وشيعاً تسمت كل منها باسم رئيسها . فمنهم النكار ، ويقال لهم النكارية[١] ، والصفرية[٢] والأزارقة[٣] ، وغيرهم ، واختلفت أهواؤهم فيما يدعون إليه ، وأعان على نشر ضلالاتهم بين البربر الجهل الذى كان مخيماً على عقولهم ،وكان همّ أصحاب هذه النحل محاربة مبادئ الإسلام ، وانتزاع الدولة من العرب بأى ثمن كان . ورفعوا راية العصيان فى وجه الحكومة الأموية . وانتشرت بدعة الخوارج فى كافة المغرب ، ويقول صاحب خلاصة تاريخ تونس : وانتشرت فى الأندلس لأنها كانت إذ ذاك تابعة لإفريقية . . وقد ساعد على انتشارها ما طرأ على الدولة الأموية من ضعف بسبب ظهور الدعوة العباسية [٤]. . وقد كان لظهور دعوة الخوارج فى إفريقية أسوأ الأثر على الإمارات العربية فى إفريقية ، ولم يستقم أمرها إلى أن استقر أمر الدولة العباسية ، فاهتموا بإفريقية اهتماماً خاصًّا .

ونحن إذ نعرض فى هذه الكلمة إلى الخوارج فلا نعنى إلا باضية ؛ فإن

---

(١) قيل إنهم هم الذين أنكروا على عبد الوهاب بن رستم وخرجوا عليه .

(٢) ينسبون إلى ابن صفار أحد زعماء الخوارج .. وقيل إنهم اصفرت وجوههم من كثرة العبادة فسموا صفرية .

(٣) أصحاب نافع بن أزرق الحنفى ، وهم يتبرأون من سائر المسلمين ، ويكفرونهم ، ويستبيحون قتل الأطفال لأنهم كفار عندهم .

(٤) خلاصة تاريخ تونس .

لنا فيهم كلمة خاصة . . وقد دخل مذهبهم إفريقية بعد أن انتشرت فيها مذاهب الخوارج .

وقد تسربت بدعة الخوارج إلى إفريقية فى زمن غير معين . ويظهر أنه كان فى أواخر المائة الأولى من الهجرة ، وأوائل المائة الثانية منها ، جاء بها جماعة الأفّاقين من المشرق . وكانت قبيلة مضغرة — من البربر البتر — أول من اعتنق المذهب الخارجى ، وانتشر فيها . وكان لرئيسها ميسرة المضغرى نشاط فى الدعوة إليه . وكان ميسرة يعرف بالحقير . ويفهم من كلام ابن خلدون فى الخوارج فى الجزء الثالث ، وفى الفصل الرابع فى أخبار البربر من الجزء السادس : أن ميسرة المضغرى هو أول من ناصر نحلة الخوارج ودعا إليها ، وجمع الناس على تأييدها وقد تلقاها من الأفاقين القادمين من المشرق .

ولما ولى عبد الله بن الحبحاب على إفريقية سنة ١١٤ استعمل عمر بن عبد الله المرادى على طنجة والمغرب الأقصى ، فنقم البربر عليه سيرته فيهم فقتلوه سنة ١٢٥ . وولى ميسرة بدله على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقى ، وهو رومى الأصل ، ومولى للعرب وأصل خارجية البربر ، وتقدم إلى السوس فقتل ، وانتشرت الفتنة ، واضطرب حبل الأمن فى المغرب ، فأرسل عبيد الله بن الحبحاب إليه جيشاً بقيادة خالد بن أبى حبيب الفهرى ، فلقيه ميسرة فى جموع كثيرة من البرابر فهزمه وقتل خالد ، وازدادت فتنة الخوارج بالمغرب وقويت شوكتهم . وكان من أكبر قواد ميسرة المشهورين طريف أبو صبيح البرغواطى [١] وكان قائماً بدعوة الصفرية .

---

(١) سيأتى فى تعليقنا على برغواطة أن صالح بن طريف ادعى فيهم النبوة فى أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ وهو من أصل يهودى فانظره هناك .

المذهب الأباضى [1]

الإباضية جماعة من المسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباض .

وإباض – بكسر الهمزة ، كما فى أنساب السمعانى – قرية بعرض اليمامة ، كانت عندها وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب نسب إليها عبد الله بن يزيد الفزارى الكوفى . وقيل إباض اسم والده ، وهو من بنى مرة بن عبيد من بنى تميم ، وهو صاحب المذهب ، وإليه ينسب الإباضية [2] .

وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التى تعتمد فى أصولها على الكتاب والسنة ، ويتفق فى كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة ، ولا يختلف معها إلا فى مسائل قليلة . وما من مذهب من مذاهب أهل السنة إلا وهو يخالف غيره فى بعض المسائل . وقد قال ابن حزم فى كتابه « الفِصَل فى

---

(١) بمناسبة ذكر المذهب الأباضى نذكر نبذة على العزابة منقول عن طبقات الإباضية .

العزابة واحدهم عزابى . هذه اللفظة استعملت لقباً لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها فإن حصّل جميع هذه الصفات سمى عزابيًّا ، وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمى به ، وإن حصّل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم . . . . .

وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشىء وهو البعد عنه ، فاستعير لمن بعد عن الأمور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة . . . . . .

وأول ما استعمل هذا اللقب فى أيام الشيخ أبى عبد الله محمد بن بكر من أهل النصف الأول من المائة الخامسة كما ذكره المؤلف لما أسس الحلقة ورتب قوانينها .

والحلقة اسم للجماعة تجتمع على الشيخ يعلمهم العلم ، ويلقنهم السيرَ ، ويبصرهم فى الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم . . .

التلميذ اسم الواحد المبتدى عند الدخول فى الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصراً على الصلاحية فقط . وأصل هذه اللفظة فارسى .

الختمة اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ ، (قلت : ونظام العزابة يشبه نظام الطرق فى البلاد الشرقية) .

(٢) ظهر عبد الله بن يزيد الإباضى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى أوائل القرن الثانى من الهجرة .

الملل والنِّحل » إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضي الفزاري الكوفي أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى .

وهذا المذهب منتشر في مسقط وعُمان من بلاد العرب بالمشرق ، وفي الزنجبار من بلاد السودان ، وفي إفريقية ، في طرابلس وتيهرت بالجزائر .

وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠ وما بعدها تقريباً .

ويؤخذ من كتاب السير للشماخي أن أول من أدخله إلى إفريقية سلمة بن سعيد قدم من المشرق إلى إفريقية في أوائل المائة الثانية لنشره والدعوة إليه . وكان شديد التعصب له . وذكر الشماخي في كتاب السير أنه كان يقول : « وددت أن يظهر هذا الأمر – يعني مذهب الإباضية – يوماً واحداً ، فما أبالي أن تضرب عنقي » .

وقد اجتمع به في إفريقية عاصم السدراتي[١] ، وإسماعيل بن درار الغدامسي ، وداود القبلّي النفزاوي ، وعبد الرحمن بن رستم ، وأخذوا عنه مذهب الإباضية ، ولما رأى رغبتهم في دراسة هذا المذهب رغبهم في السفر إلى البصرة لتلقي المذهب على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري مولى بني تميم[٢] ، وكان إذ ذاك من علماء الإباضية المبرزين في المذهب ، فرحلوا إليه أربعتهم ، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح : أبو الخطاب الحِميْري اليمني ، فأصبحوا خمسة ، ومكثوا عند أبي عبيدة خمسة أعوام يأخذون عنه المذهب الإباضي حتى أصبحوا من أعلامه ، ثم رجعوا خمستهم إلى إفريقية في زمن غير معين ، ويظهر أنه فيما بين الخمسة والعشرين إلى الأربعين من القرن الثاني الهجري .

وعبد الرحمن بن رستم[٣] بن مهران من مسلمة القادسية وهو من الفرس

---

(١) توفي بالقيروان أيام أن كان أبو الخطاب يحاصرها .

(٢) توفي في ولاية أبي جعفر .

(٣) بويع له بإمامة الإباضية سنة ١٦٠ أو ١٦٢ بتاهرت .

حج مع أبيه وأمه ، فمات أبوه بالحجاز ، وتزوجت أمه برجل من القيروان ، فذهب معها إلى القيروان . وأول ما تلقى مذهب الإباضية على مسلمة ابن سعيد .

وهؤلاء الخمسة يسميهم الإباضية حملة العلم ، وهم عندهم فى محل التعظيم والإجلال ، ومن أئمتهم المشهورين .

وبعد رجوع هؤلاء الخمسة إلى إفريقية زاد انتشار مذهب الإباضية وكثر أنصاره كما نذكره فى حروب أبى الخطاب .

وقد انحصر أتباع هذا المذهب فى إفريقية فى البربر . وكان أكثر أتباعه من هوارة ، ولماية ، ونفزاوة ، ومغيلة ، ومغراوة ، وبنى يفرن من زناتة .

وقد توارثوه خلفا عن سلف ، وما زالوا يدينون به إلى الآن ، وقل أن تجد فى طرابلس بربريًّا على مذهب مالك ، كما يندر أن تجد فيها عربيًّا على مذهب الإباضية .

وأصحاب هذا المذهب فى طرابلس سكان جبل نفوسة من البربر ، وسكان زوارة .

ويعد بعض المؤرخين مذهب الإباضية نحلة من نحل الخوارج . ولكن الإباضية — وفى مقدمتهم علماؤهم — لا يعترفون بنسبتهم إلى الخوارج ، ويعدون هذا من غلطات التاريخ التى لم يتحر فيها المؤلفون الحقيقة . وقد اجتمعت بالأستاذ إبراهيم أطفيش فى مصر ، وهو من أكبر علمائهم بل ومن أئمتهم فى عصرنا ، فأكد أن نسبتهم إلى الخوارج غير صحيحة ، وأنهم ليسوا منهم فى شىء . وقد تقدم قول ابن حزم أنهم أقرب الفرق إلى أهل السنة .

ومن مذهبهم تحريم دماء مخالفيهم وأموالهم ، ويرون حل مناكحتهم والتوارث معهم .

وما زلنا نشاهد فى النفوس شيئاً من الحزازات بين المالكيين والإباضيين فى طرابلس بسبب اختلاف المذاهب . ومن الأسف أن توجد الحزازات فى النفوس بسبب اختلاف المذاهب وكلها إسلامية . وقد نشأ عن هذا شىء من التنابذ ،

والتنابز بالألقاب ، والطعن فى العقائد ، بل صار وسيلة إلى الحرب التى حرمتها جميع الأديان والمذاهب .

ويجب أن نفهم أن جميع مذاهب المسلمين تصدر عن أصل واحد هو كتاب الله وسنة رسول الله اللذين جاء بهما محمد صلى الله عليه وسلم الذى أجمعت جميع الفرق الإسلامية على تكريمه وتعظيمه .

ويكفى لأن نكون كتلة واحدة ، وإخواناً متحابين متحدين أننا نعبد الله على تعاليم هذا النبى الكريم .

وقديماً كان الاختلاف فى الرأى حتى فى فهم كتاب الله وسنة رسول الله . وكلما استنار العقل البشرى أمكنه أن يدرك حقائق الأشياء على وضعها الصحيح . إذاً فمن الواجب أن يحترم كل منا رأى أخيه . وقد شاهدنا فى مصر – وفيها مسلمون ومسيحيون – أنهم كانوا يقولون – حينما أرادوا الاتحاد ضد الإنجليز – الدين لله والوطن للجميع . وهذا مع اختلافهم فى الدين ، فما بالنا لا نقول ذلك ونحن مختلفون فى المذهب فقط .

يجب على الطرابلسيين – من العرب والبربر ، وقد جمع بينهم الإسلام ، ووحدت بينهم مصالح الوطن ، وأحكم صلتهم الجوار والنسب – أن يعيشوا إخواناً متحابين فى الله ، متحدين فى العمل لخير وطنهم ، عاملين على النهوض به ، وتخليصه من سيطرة الغاصب ، ولكل فى مذهبه ما يصحح به دينه ، ويوصله إلى الله الذى وجدت المذاهب لمعرفته وفهم شرائعه .

بشر بن صفوان

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٣ . وقد نكل بآل موسى بن نصير تنكيلا فظيعاً ، واستصفى أموالهم لنفسه ، ثم رجع إلى يزيد فوجده توفى سنة ١٠٥ وتولى هشام بن عبد الملك ، فرده إلى إفريقية ، وغزا صقلية ، ورجع إلى القيروان فمات بها سنة ١٠٩ ، وكانت ولايته سبع سنين .

عبيدة بن عبد الرحمن

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية فى المحرم أو فى صفر سنة ١١٠ مكان بشر ، وكان محل إقامته القيروان .

يزيد بن مسلم الكندى

كان عاملا على طرابلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن ، وكان المستنير ابن الحبحاب الحرشى قد كلف بغزو صقلية من طرف عبيدة ، فتثاقل عن غزوها حتى جاء الشتاء وصعب ركوب البحر ، ثم جهز نفسه وغزاها ، وبينما هو فى طريقه إليها هاج به البحر ، وأغرق كل ما معه من السفن بما فيها ومن فيها ، ورمى بالسفينة التى كان بها على طرابلس ، فأمسكه يزيد حتى جاءه كتاب عبيدة يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه موثقاً ، فنفذ يزيد أمر عبيدة وأرسل إليه ابن الحبحاب كما أمر ، فأوجعه ضرباً ، وطاف به القيروان ، على حمار تشهيراً به لتقصيره فى غزو صقلية ، وتأخيره إلى وقت الشتاء حتى كان ذلك سبباً فى غرق الجيش وخسارة المسلمين ، وعزل هشام عبيدة سنة ١١٤ ودامت ولايته أربع سنين وستة أشهر .

عبيد الله بن الحبحاب[1]

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية فى ربيع الآخر سنة ١١٦ ، وقيل سنة ١١٤ ويقال إنه هو الذى بنى جامع تونس . وقد ظهر لهشام — فى عدة مناسبات —

---

(١) وقيل اسمه عبيد الله بن عبد الرحمن .

عجزه عن القيام بأمور المسلمين ، وبإخضاع من بقى من البربر مناوئاً للعرب ، فعزله فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ .

* * *

يشعر المتتبع لأحداث إفريقية بأنه منذ أن تولى يزيد بن مسلم سنة ١٠٢ إلى أن تولى كلثوم بن عياض سنة ١٢٣ قد قل النشاط الحربى فى إفريقية ، وأهمل أمر الفتح ومحاولة إخضاع من لم يخضع من البربر . ولولا ما كان من أمر عبيدة لابن الحبحاب بغزو صقلية وفشله فيه لقلنا إنه لم يكن هناك نشاط . ويظهر أن هشاماً أدرك هذا ، خصوصاً لما ظهر له عجز عبيد الله بن الحبحاب ، فتدارك الأمر ، وولى على إفريقية كلثوم بن عياض ليجدد النشاط فى إخضاع من بقى مناوئاً للعرب .

كلثوم بن عياض

وبلغت أخبار الخوارج فى إفريقية هشام بن عبد الملك ، فولى عليها كلثوم ابن عياض القشيرى فى جمادى الآخرة سنة ١٢٣ وأرسله إليها فى جيش قوامه اثنا عشر ألفاً ، وخرج معه جماعة من الشام وكتب معه إلى والى كل بلد أن يخرج معه لقتال البربر ، فخرج معه أهل مصر ، وأهل برقة ، وأهل طرابلس ، وزحف إلى البربر سنة ١٢٣ فلقيه ميسرة — من رؤساء الخوارج الصفرية — بقرب طنجة ، فى جموع من البربر كثيرة ، واستماتوا فى قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه .

وقويت شوكة الخوارج ، واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء فى المشرق .

ويقول صاحب شذرات الذهب : هزمهم أبو يوسف الأزدى رأس الصفرية الخوارج ، ولعل ميسرة هو أبو يوسف أو أحد قواده ، واتبعت الخوارج من انكسر من المسلمين فثبت لهم بلخ القشيرى بن عم كلثوم وانتصر عليهم ، وقتل أبا يوسف الأزدى رئيس الخوارج .

صفوان بن أبي مالك

لما وصل كلثوم إلى طرابلس ، وكان الحاكم عليها صفوان بن أبي مالك ، أعد صفوان جيشاً وخرج معه إلى إفريقية ، فوصلوا القيروان فى رمضان من هذه السنة . وكان الجيش يقدر بنحو ثلاثين ألفاً : عشرة من بنى أمية ، وعشرون من مختلف العرب . وخرج كلثوم لقتال البربر ، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفارى ، وعلى الحرب مسلمة بن سوادة الجذامى القرشى .

وما زال بعض الرؤساء من البربر يتربصون بالعرب ويتحينون الفرص للوثوب عليهم ، ومن هؤلاء الرؤساء عكاشة[1] بن أيوب الفزارى ، وهو من قبيلة هوارة من البرابرة الصفرية ، وكان يقيم بنواحى قابس ، فجمع هوارة وثار بها على مسلمة بن سوادة منتهزاً غياب عياض بن كلثوم عن القيروان ، وأرسل عكاشة أخاه إلى صبراتة فحصر أهلها فى المسجد ، وجعل عليهم حبيب بن ميمون . . وبلغ خبر ما حل بأهل صبراتة إلى صفوان حاكم طرابلس ، فخرج لنجدتهم ، وحاول أخو عكاشة أن يدافع عن صبراتة ، ولكنه ما لبث أن غلب على أمره ونجا برأسه منهزماً بعد أن قتل أكثر أصحابه من زناتة وهوارة وغيرهم ، ولحق بأخيه عكاشة فى قابس . . وكتب كلثوم بن عياض إلى صفوان بطرابلس يستنجده على عكاشة ، فأنجده بأهل طرابلس . . ولكن جيوش البربر تكاثرت على كلثوم فقتل قبل أن يصل إليه صفوان فى نجدته ، ولما بلغ صفوان قابس بلغه قتل كلثوم وأصحابه فرجع إلى طرابلس ، وتفرق جيش كلثوم ، فرجع أهل إفريقية ومصر إلى إفريقية ، وذهب أهل الشام إلى الأندلس وكان من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الآتى ذكره ، وكان ذلك سنة ١٢٤ أو ١٢٥ .

لم ييأس العرب من النصر برجوع صفوان إلى طرابلس وقتل حنظلة بالرغم على مكانتهما المرموقة بينهم . وانفسح المجال أمام البربر ، فتحصن سعيد بن

---

(١) جاء فى بعض الكتب بتشديد الكاف .

بجرة وأصحابه بقابس وتنحى عنها عكاشة بنحو عشرين ك م . . وأعاد العرب جمع صفوفهم ، فخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفارى فى أهل القيروان لقتال عكاشه فلقيه بين القيروان وقابس ، فانهزم عكاشة وقتل عامة أصحابه ، ثم جمع جموعه وأعاد الكرة على عبد الرحمن ، فهزم عكاشة ، وأعاد الكرة ثالثة فهزم ، وفى الرابعة استعان بعبد الواحد بن يزيد الهوارى الصفرى فخرج إليهم عبد الرحمن ، فقتل عبد الرحمن وأصحابه ، وكان ذلك سنة ١٢٤ وتقدم عكاشة وعبد الواحد فى جموعهما إلى القيروان .

حنظلة بن صفوان الكلبي

بعد قتل عبد الرحمن بن عقبة كان عكاشة وعبد الواحد يهددان القيروان بجموعهما ، وأسند هشام بن عبد الملك[1] ولاية إفريقية والمغرب إلى حنظلة بن صفوان فى صفر سنة ١٢٤ ، فأخذ فى الاستعداد للدفاع عن القيروان .

وعكاشة بن أيوب الفزارى وعبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة . ومن المتمذهبين بمذهب الخوارج الصفرية الذين يستحلون أموال أهل السنة ، ويستبيحون نساءهم وقتلهم ، وكان معهما من البربر جموع عظيمة قدرت بثلاثمائة ألف . ولما وصلوا القيروان خرج إليهم حنظلة فهزموه ، وتقدموا لحصار القيروان ، فأعاد حنظلة جمع شملة وتأهب لقتالهم ، وأخرج كل ما فى خزائنه من السلاح والعتاد ، ودعا الله بطلب النصر ، وأمن المسلمون على دعائه ، وخرج للقائهم خارج القيروان والتحم الجيشان بمكان يقال له «القرن» قرب القيروان ، وكانت حرباً فى أبشع صور الحروب القاسية ، فهبت ريح النصر على العرب وهزم البربر ، وقتل عبد الواحد ، وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً إلى حنظلة ، فقتله حنظلة صبراً . وقتل فى هذه المعركة ما يزيد على مائة وسبعين ألفاً ، وكان هذا سنة ١٢٤ وتسمى واقعة القرن .

وسمع الليث بن سعد بخبر هذه المعركة فقال : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن » .

---

(١) توفى هشام فى ربيع الآخر سنة ١٢٥ . ومدة خلافته ١٩ سنة وسبعة أشهر ، وعشرة أيام .

معاوية بن صفوان

كان عامل حنظلة على طرابلس ، فكتب إليه حنظلة يستنجده ، فأنجده بأهل طرابلس ولما وصل إلى قابس بلغه خبر هزيمة عكاشة وعبد الواحد ، فأمره حنظلة أن يتقدم بجيشه إلى حرب البربر بنفزاوة فذهب إليهم وقاتلهم حتى قتل ، فبعث حنظلة زيد بن عمرو الكلبي إلى جيش معاوية ورجع به إلى طرابلس . .

عبد الرحمن بن حبيب

هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع . كان من أنصار كلثوم ، ومن المنهزمين فى معاركه مع عكاشة إلى الأندلس سنة ١٢٣ . وقتل والده حبيب مع كلثوم . وهو أول متغلب على إفريقية ، واستقل بها أيام حكمه عن بنى أمية وخلع طاعة أبى جعفر المنصور .

ورجع من الأندلس إلى تونس فى جمادى الأولى سنة ١٢٧ ، ودعا أهلها إلى نفسه فأجابوه وحاول حنظلة أن يدخله تحت طاعته فأبى وقتل رسل حنظلة .

واعتزم عبد الرحمن أن يحتل القيروان ويضمها إلى تونس ، فأرسل إلى حنظلة يطلب إليه التخلى عنها ، وأنه مصر على حربه إن لم يفعل . . وكان حنظلة تقيًّا ورعاً ، فلم يسعه — أمام إصرار عبد الرحمن على الحرب — إلا أن يتنازل له عن القيروان ، حقناً لدماء المسلمين . وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٩ . ودخل عبد الرحمن القيروان ، وتغلب على إفريقية كلها واستقل بها . وكتب إليه مروان بن محمد بولايتها . وفى سنة ١٣١ جدد سور طرابلس من جهة البر . . وانتقل الناس إليها من كل مكان .

وفى هذه السنة قتل مروان بن محمد ، وانقرضت دولة بنى أمية من المشرق ، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر ، وخمسة أيام ، وتولى الملك فيها أربعة عشر ملكاً . . وظهرت على أعقابها دولة بنى العباس . والله يرث الأرض ومن عليها .

الدولة العباسية

وفى سنة ١٣٤ تولى الخلافة أبو العباس عبد الله السفاح. وهو أول حاكم فى الدولة العباسية فأقر عبد الرحمن بن حبيب على إمارة إفريقية .

إلياس بن حبيب

عين عبد الرحمن أخاه إلياس عاملا على طرابلس ، وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم . وكان رئيسهم فى طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبى رئيس الإباضية ، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه . . ويظهر أن هذا العمل من إلياس لم يقع موقع الرضا من أخيه عبد الرحمن .

حميد بن عبد الله العكى

وأراد عبد الرحمن أن يسترضى الإباضية ، فأقال أخاه إلياس وعين بدله حميد بن عبد الله العكى ، ولكن هذا لم يرض الإباضية ولم يهدئ من ثورة نفوسهم وأخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام من إلياس أخى عبد الرحمن .

عبد الجبار بن قيس

وما زال الإباضية فى غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار بن قيس المرادى ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة على العكى ، فخرج لمحاربتهم وأناب عنه فى القيام بشئون المدينة بكر بن عيسى . فحاصروا العكى فى بعض القرى فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار ، فقتلوه فى عبد الله بن مسعود التجيبى ، وخرج إليهم بكر بن عيسى يدعوهم إلى الصلح فأبوا ، وقتلوه ، واستمروا فى ثورتهم إلى أن استولى عبد الجبار على كل البلاد ما عدا المدينة داخل السور.

يزيد بن صفوان المعافرى

لا ندرى ما فعل الله بالعكى بعد أن أمنه الإباضية فى إحدى قرى طرابلس . غير أنه لما لم يمكنه التغلب على الإباضية كتب عبد الرحمن بن حبيب بولاية طرابلس إلى يزيد بن صفوان المعافرى ، وأرسل مجاهد بن مسلم الهوارى إلى هوارة يستألفهم ويغريهم بعبد الجبار ، فأقام فيهم شهراً يحاول إغراءهم بعبد الجبار والانتقاض عليه ، ولكن هوارة لم تصغ إلى قوله ، وطردته فرجع خائباً ولحق بيزيد بن صفوان فى طرابلس .

ولم ير عبد الرحمن بن حبيب — وهو فى القيروان — بدّاً من مواجهة القوة بالقوة ، فأرسل إلى طرابلس محمد بن مفروق فى خيل ، وكتب إلى يزيد بالخروج معه فخرجوا لقتال عبد الجبار ، فلقيهم هو والحارث بن تليد فى أرض هوارة[1] ، فقتل يزيد ومحمد بن مفروق ، وانهزم مجاهد بن مسلم ، ثم اجتمع له جمع كبير ، فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث بن تليد ، فهزم مجاهد ثانية ، واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها ، وطاردت خيل عبد الجبار مجاهد ابن مسلم وعمرو بن عثمان ، فلجأ عمرو إلى سرت ، فأدركته خيل الحارث وقتلوا بعض أصحابه ، ونجا هو على فرسه جريحاً ، واستولى الحارث على عسكره .

واستفحل أمر عبد الجبار والحارث ، ثم اختلفا ، فاقتتلا ، فقتلا سنة ١٣١ ونكب الإباضية بموتهما نكبة كبيرة .

إسماعيل بن زيان النفوسى

وبعد قتل عبد الجبار والحارث ولّى البربر عليهم إسماعيل بن زيان النفوسى فعظم شأنه ، وسار بجيشه إلى قابس ، وكان بها شعيب بن عثمان ابن عم عبد الرحمن وكان قد استعد للقاء إسماعيل بن زيان . وخرج عبد الرحمن بن حبيب من

---

(١) كانت هوارة تسكن السواحل من صرمان تقريباً إلى قرب سرت ، وتمتد شرقى جبل نفوسة وجنوبيه .

القيروان للقاء إسماعيل . وقد كان جيش شعيب ، وجيش عبد الرحمن يمثلان كماشة وقع البربر بين فكيها ، وقد التقت خيل إسماعيل بخيل شعيب قريباً من قابس ، فقتل إسماعيل وأصحابه ، وأسر من البربر خلق كثير ، وتشتت جمعهم ، وأغذّ عبد الرحمن السير إلى طرابلس ومعه الأسرى وكتب إلى عمرو بن عثمان فى سرت فقدم عليه . وولى عبد الرحمن على طرابلس عمرو بن سويد المرادى .

وقد سفر الجو بين إلياس وأخيه عبد الرحمن . وصدرت أعمال من عبد الرحمن أوغرت صدر إلياس ، وذلك أن عبد الرحمن كان يرسل أخاه إلياس لقتال البربر وإخضاعهم ، وكلما حصل انتصار على يديه نسبه عبد الرحمن لابنه حبيب . ومن أجل ذلك صار يتربص به الدوائر . . وقد مرض عبد الرحمن وكان قد كلف إلياس بمهمة ، فجاء إلياس ليعوده ويودعه . وقد وجد فى وجوده عنده وهو مريض فرصة لقتله ، وبينما هو يهم بالانصراف لاحت له منه غرة ، فطعنه بسكين بين كتفيه نفذت إلى قلبه ، ثم احتزّ رأسه ، وتملك أبواب القصر ، واحتل القيروان وتولى السلطة . . وكان قتل عبد الرحمن سنة ١٣٧ . وولايته عشر سنين وسبعة أشهر » .

* * *

كان إلياس يظن أنه بقتل أخيه عبد الرحمن يتم له الأمر ويستولى على زمام الحكم فى القيروان ، ولكن النتيجة جاءت بعكس ما قصد إليه ، فإن حبيب ابن عبد الرحمن ما لبث بعد قتل أبيه أن ثار بعمه مطالباً بدم والده ، وحصلت بينهما حروب بقرب القيروان ، فطلب حبيب عمه للمبارزة ، وقال له لا داعى لهذا التطاحن بين المسلمين . فلنخرج للمبارزة فأينا قتل صاحبه تم الأمر للثانى واستراح الناس من القتال ، فتبارزا ، وبعد تطاحن شديد طعن حبيب عمه طعنة أودت بحياته واحتز رأسه ، ودخل القيروان ظافراً ، ورأس عمه ورؤوس كثير من أنصاره محمولة على الرماح . وكان ذلك سنة ١٣٨ . ومدة ولاية إلياس بعد قتله أخاه نحو ثمانية عشر شهراً .

ثورة ورفجومة

ورفجومة هذه قبيلة كبيرة من قبائل البربر المشهورة ، وهي على مذهب الصفرية إحدى فرق الخوارج الذين يستحلون من أهل السنة ما حرم الله ورسوله .

وما كاد حبيب بن عبد الرحمن يستقر به الحكم في القيروان حتى ثارت به ورفجومة برياسة عاصم الورفجومي ، فأرسل عاصم عبد الملك بن أبي الجعدي لقتال حبيب ، ولم يصمد حبيب لقتال ورفجومة ، فلم يلبث أن قتل في المحرم سنة ١٤٠ .

وبعد قتل حبيب تغلبت ورفجومة على إفريقية ، واحتلت القيروان ، وعسفت بأهلها ، وأذاقتهم أنواع العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ، وقتلوا كل من وجدوه من قريش . واشتد البلاء على أهل القيروان فهجروها فراراً من الظلم ، وأرسلوا إلى أبي جعفر المنصور يستنجدون به .

ولم تكن ورفجومة تعبر بهذه القسوة الشاذة عن آراء جميع قبائل البربر وخصوصاً الإباضية منهم ، فسرعان ما أنكرت عليها هوارة وزناتة من برابر طرابلس ، ونهضوا لقتالها بزعامة عبد الأعلى بن السمح ، وسيأتي خبر ذلك .

أبو الخطاب

هو عبد الأعلى ، أبو الخطاب بن عبد الرحمن بن السمح [بن عبيد بن حرملة][1] المعافري اليمني ، من رجالات العرب المشهورين ، وكان إباضي المذهب ، ومن أجل ذلك التف حوله البربر الإباضية الذين جمعتهم به نحلة المذهب ، وانضووا تحت رايته ، وكان من أكبر أصحابهم وأشدهم تمسكاً بمذهبه . . وكان من

(١) الزيادة من كتاب الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ .

أشد خصوم سياسة العرب في إفريقية ، وقاتلهم انتصاراً لبني مذهبه . وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم في محل التقدير والإعجاب واختاروه إماماً لهم سنة ١٤٠ .

وأبو الخطاب من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا المذهب الإباضي عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة ، ثم جاء إلى إفريقية مع الأربعة الآخرين .

ولما وصلوا بلدة صياد المجاورة لزنزور اجتمع عليهم كثير من البربر ، وكانت بلدة صياد إذ ذاك وما جاورها من مواطن البربر ، وكان مذهب الإباضية قد انتشر بينهم بواسطة سلمة بن سعيد وأعوانه . واجتمعت كلمة البربر على أبي الخطاب وانتخبوه إماماً لهم وأصبح عنده جيش عظيم ، واتفقت كلمتهم على فتح طرابلس .

ويقول الشماخي في كتاب السير : « فلمابايعواأبا الخطاب قُبَيل ذلك ودخل مدينة طرابلس سنة ١٤٠ ومعه جماعة المسلمين[١] على حين غفلة من أهلها ، وأدخلوا الرجال في الجوالق ، فلما توسطوا المدينة أشهروا السلاح وقالوا : « لا حكم إلا لله »[٢] .

وقبض أبو الخطاب على عمرو بن سويد المرادي[٣] عامل طرابلس من قبل أبي جعفر المنصور وعزله عن الحكم ، وخيره بين البقاء في الأمان ، وبين الخروج من المدينة فاختار الخروج وسافر إلى المشرق ، واستقر أبو الخطاب في طرابلس » .

---

(١) يعني جماعة الإباضية .

(٢) هذه الكلمة هي التي اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا على وأصبحت شعاراً لهم ، ولا ندري كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج .

(٣) لم يعين الشماخي اسم عامل المنصور . وقد قلت إنه عمرو ابن سويد على سبيل التقريب لأنه هو الذي عينه عبد الرحمن بن حبيب عاملا عليها قبل موته ، ولا يبعد أن يكون أبو جعفر أقره بعد وفاة عبد الرحمن .

وبعد أن استتب الأمر لأبى الخطاب عين عمر بن يمكتن عاملا على سرت . . . وكان البربر يتوقعون هجوم ابن الأشعث عليهم ، من الشرق ، فمر أعرابى بابن يمكتن فى سرت ، فقال له : نخشى أن يباغتنا محمد بن الأشعث من الشرق . فقال له العربى : « لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو فى جند أمير المؤمنين برجال مشمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهاراً » . وقتل ابن يمكتن مع أبى الخطاب[1] .

ويقول غير الشماخى إن أبا الخطاب احتل طرابلس فى صفر سنة ١٤١ وولى عليها رجلا من أصحابه يقال له عبد الله رحيمة .

وبعد أن رتب من أمورها ما كانت الحاجة تدعو إليه سار فى جيش كبير إلى القيروان لقتال ورفجومة ، فخرجت ورفجومة لقتاله خارج القيروان[2] بزعامة عبد الملك الورفجومى . وبينما هم فى حرب طاحنة مع أبى الخطاب ثار بهم سكان القيروان ، فكانت هذه الثورة سبباً فى انهزامهم أمام أبى الخطاب ، وقتل رئيسهم عبد الملك ، وركبهم أبو الخطاب وقومه بالسيوف ، وأسرفوا فى قتلهم ، واستولى على القيروان سنة ١٤١ . وفى هذه السنة بويع بالإمامة .

---

(١) ملخص من كتاب السير للشماخى .

(٢) يظهر أن المكان الذى وقعت فيه هذه الحرب هو رقادة . وسميت رقادة قال البكرى : لأن عبد الأعلى بن السمح المعافرى « أبا الخطاب » قتل فيها ورفجومة قتلا ذريعاً ، فسميت بذلك ؛ لرقاد جثثهم فيها بعضها على بعض . وهى — أى رقادة — من القيروان على أربعة أميال اهـ .

ولاية أبي الخطاب

وباستيلاء أبي الخطاب على القيروان أصبح والياً على إفريقية . وهو أول وال على إفريقية من الإباضية . وقد بلغه أن أبا جعفر المنصور أرسل جيشاً من مصر لإخضاع إفريقية ، فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسى (١) وعاد إلى طرابلس للاستعداد للقاء جيش أبي جعفر . وأصبحت طرابلس والقيروان تحت حكم أبي الخطاب .

أراد أبو جعفر المنصور أن يرجع إفريقية إلى العباسيين ويدخلها تحت نفوذهم بعد أن نبذ عبد الرحمن بن حبيب طاعتهم واستبد بها . وقد جاءت هذه الفكرة أيام أن كان أبو الخطاب صاحب الدولة والصولة فى طرابلس ، وكان يأتمر بأمره من البربر مئات الألوف مما يجعل غزو إفريقية مهمة شاقة ، ولكنه اعتزم الأمر وتوكل على الله .

والذى يمعن النظر فى حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور لا يشك فى أنها حروب سياسية قصد منها توسيع النفوذ ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس ، وعلى أوسع رقعة من الأرض ، فجيوش أبي جعفر تريد أن ترجع للعرب ما فقدوا من إفريقية ، وتحتفظ لهم بسلطتهم عليها . وجيوش أبي الخطاب ترى أن إفريقية بلادهم ، وهم أولى بحكمها ، خصوصاً وقد أصبحوا مسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباض الذى يعتقدون أنه لا ينقص عن أى مذهب من مذاهب المسلمين .

---

(١) هو من أبناء رستم أمير فارس فى حرب القادسية وكان من موالى العرب . وهو من رؤساء الخوارج وقدم إلى إفريقية مع طلائع الفتح ، وأخذ بمذهب الإباضية . اهـ من ابن خلدون (انظر ص ١٠٦) . اختط تاهرت سنة ١٤٤ .

عمر أبو الأحوص العجلى

كنيته أبو الأحوص . وهو أول من وقع اختيار أبى جعفر عليه لقيادة الجيش الذى أعده لغزو إفريقية ، وانقاذها من ثوار البربر . . ويظهر أن أبا جعفر لم يكن على علم بكثرة البربر ، وما أصبح لهم من القوة زمن أبى الخطاب لأنه لم يرسل الجيش الكافى لإخضاع البربر ، وكانت النتيجة أن هزم أبو الأحوص .

وسار أبو الأحوص إلى إفريقية . وقد بلغت أخباره أبا الخطاب فاستعد للقائه ، ولم ينتظره حتى يدخل عليه طرابلس ، بل سار إليه حتى لقيه فى سرت ، فى مكان يقال له مغمداس على شاطئ البحر . بقرب سرت وقد التقى الجيشان فى معركة انجلت عن هزيمة أبى الأحوص ، ورجع هو وأصحابه إلى مصر مفلولى الجناح ، واستولى أبو الخطاب على عسكره ، ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس . وكان ذلك سنة ١٤٢ .

وجاء فى طبقات الإباضية أن رجلا — عربيًّا — سأل رجلا من البربر : « ما تفسير تاورغة » يريد التعريض بهزيمة أبى الخطاب وأصحابه وقتلهم ، ففطن البربرى لما أراده العربى ، فقال : « تفسيرها مغمداس ، فيه أربعة أكداس ، فى كل كدس أربعة آلاف » يشير إلى هزيمة أبى الأحوص فى مغمداس .

وجاءت كلمة « مغْمداس » فى طبقات الإباضية بلفظ « مَغْدامَس » مشكولة بالقلم بفتح الميمين وسكون الغين والمقصود منها المكان الواقع بقرب سرت ، وهو غلط ، وصحتها مَغمَداس .

محمد بن الأشعث

كانت الهزيمة التى أصابت جيش أبى جعفر فى إفريقية حافزاً له على الاهتمام بأمر إفريقية وإعادة الكرة عليها فى جيش أكثر واستعداد أقوى . ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو إفريقية ، فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذى يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش . ولكن النصر بيد الله ، والله مع الصابرين .

وابن الأشعث هذا ، هو محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى ، كان والياً على مصر حينما رجع أبو الأحوص مهزوماً من إفريقية ، وقد وقع اختيار أبى جعفر المنصور عليه لغزو إفريقية ، فجهز له جيشاً من أربعين ألف مقاتل ، وزوده بما يلزم له من العتاد ، وأسند إليه إمارة إفريقية ، فكان أول أمير عليها من قبل العباسيين . وسار إليها سنة ١٤٤[١] . وكان معه الأغلب ، ابن سالم ، بن عقال ، بن خفاجة ، بن سوادة ، التميمى . وهو جد الأغالبة الذين أسسوا دولة بنى الأغلب فى إفريقية . وسيأتى ذكرها .

واتصلت أخبار ابن الأشعث بأبى الخطاب فى طرابلس ، فخرج للقائه فى نحو مائتى ألف مقاتل من البربر ، وعسكر فى ورداسة بالقرب من تاورغة وتقع فى الجنوب الغربى من تاورغة وتسمى الآن قداس . وعلم بذلك ابن الأشعث فاستعد للقائه . والتقى الفريقان قرب تاورغة ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، فكانت فى أبشع صور الفظاعة والقسوة . وذكر الشماخى فى كتاب السير[٢] أنه استشهد من البربر فى هذه المعركة نحو اثنى عشر ألفاً ودارت الدائرة على البربر فهزموا ، وقتل أبو الخطاب وأصحابه فى صفر سنة ١٤٤ ، وأرسل رأسه إلى أبى جعفر ببغداد ، وتقدم أبو هريرة الزناتى

---

(١) وقيل سنة ١٤٣ .

(٢) كتاب السير فى علماء الإباضية للشيخ أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى . توفى سنة ٩٢٨ وقبره معروف تحت قصبة ابن مادى بجبل يفرن .

وجمع فلول البربر ، وأعاد بهم الكرة على ابن الأشعث ، فهزمه ابن الأشعث فى ربيع الأول سنة ١٤٤ ، وتتبع البربر فى الجبال حتى كسر شوكتهم وشتت شملهم ، وتم له الاستيلاء على طرابلس . وبموت أبى الخطاب انتهت إمارة الإباضية على إفريقية ، وكانت مدة ولايته سنتين .

وقد تحريت كثيراً لتحديد المكان الذى وقعت فيه المعركة ممن لهم خبرة بجهات تاورغة وما عساه يقارب الحقيقة ، فظهر لى أن هذه المعركة كانت قريبة من قصر قداس غربى تاورغة ، وهو قصر قديم بين سوفجين وزمزم على طريق سيرت ويمر به واد ما زال يعرف بوادى قداس . وما زال بعض الناس من الطاعنين فى السن يحكى قصة معارك هائلة وقعت فى تلك الناحية من زمن بعيد . . وما زالوا يشاهدون بقايا عظام وجماجم آدمية توجد قريباً من تلك الناحية ، مما يستأنس به لصحة هذا التقدير . وقد اتضح لى أن ورداسة التى يقال إنها وقعت فيها هذه المعركة ، هى المعروفة الآن بقداس . وفى سنة ١٣٤٠ كشفت السيول عن بئر رومانية بقرب قصر قداس كثيرة الماء كانت مغطاة بالتراب ، ويظن أن آباراً أخرى ما زالت مردومة . وهذه البئر وأمثالها هى التى كانت تمد قصر قداس وما حوله بالماء مما جعله مركزاً يصح أن تستند إليه تلك الجيوش المتقاتلة فى إمدادها بالماء ، وإلا لما أمكن أن تنزل على غير ماء فى صحراء قاحلة .

ويشهد لوقوعها فى ورداسة بيت شعر قيل فى هذه المعركة وهو :

قد لَقِىَ البربر يوماً شاسا وساقها الحَسَنُ إلى وَرداسا

وذكر تاورغة إنما جاء للتقريب لشهرتها ، لا للتحديد ، لأن جيشين يتألفان من مائتين وأربعين ألف مقاتل يلتحمان فى معركة لا شك أنهما يحتاجان إلى عشرات الكيلومترات ليتسع مجال الكر والفر لهذا العدد الهائل ، ولذلك فلا يبعد أن تشغل المعركة ما بين تاورغة وقداس .

المخارق بن غفار الطائى

وتقدم ابن الأشعث إلى طرابلس فاستولى عليها ، وولى عليها المخارق بن غفار الطائى ، وسار إلى القيروان لطرد ابن رستم منها . وقد بلغ ابن رستم خبر انتصار ابن الأشعث على البربر وقتل أبى الخطاب فهرب من القيروان ونزل فى مكان مدينة تيهرت[1] ، وبقى هناك . . ودخل ابن الأشعث القيروان غرة جمادى الأولى سنة ١٤٤ .

وفى سنة ١٤٥ أمر ابن الأشعث ببناء سور القيروان ، وأتمه سنة ١٤٦ . وأرسل إلى زويلة وودان جيشاً واستولى عليهما ، وكانتا مسكونتين بالإباضية ، فحاولوا الدفاع عنهما ، وكان رئيسهم عبد الله بن حيان الإباضى ، وكان يقيم بزويلة ، فقتل وقتل معه أناس كثيرون ، وبذلك دانت إفريقية لابن الأشعث ، واستتب له الأمر فيها .

وفى سنة ١٤٧ ثار عليه موسى بن عجلان — وهو أحد جنوده — فأخرجه من القيروان ورجع إلى المشرق . وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وعشرة أشهر .

عيسى بن موسى الخراسانى

لما تغلب الجند على ابن الأشعث وأخرجوه من القيروان ولّوا عليهم عيسى ابن موسى الخراسانى فى ربيع الآخر سنة ١٤٨ ، وتولى أمور الناس من غير عهد من المنصور ، ولا انتخاب من العامة ، وقد استند الجند فى ذلك على القوة والإرهاب ولم يقر المنصور هذا العمل ، فعزل عيسى بعد ثلاثة أشهر من ولايته ، وولى بعده الأغلب بن سالم . وفى أيام موسى كان العامل على طرابلس المخارق ابن غفار .

---

(١) شرع فى بنائها سنة ١٦١ على أنقاض مدينة قديمة .

الأغلب بن سالم التميمى

كنيته أبو عقال . وكان رجلا شهماً ، صائب الرأى ، محبًّا للمشورة . قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث الخزاعى . ولما رجع ابن الأشعث إلى المشرق أرسل إليه المنصور عهد الولاية على إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٤٨ .. وكان المخارق عاملا على طرابلس فأبقاه الأغلب على عملها . . . ومرت سنة ١٤٩ ولم يحصل فيها من الأحداث ما يستحق الذكر .

ومنذ أن انتشرت مذاهب الخوارج فى إفريقية سنة ١٠٠ كان البربر أولى من اعتنق هذه المذاهب ، ووجد دعاتها منهم قلوباً صاغية للمتطرف منها وغير المتطرف . وشحنوها ضغينة ضد العرب بدعوى أنهم غرباء عن إفريقية ، وتأثر البربر بعامل العنصرية وعامل المذهبية ، وأصبح لكل من هذين العاملين أثره السيء على نفوس البربر فى كراهة العرب ؛ لأن البربرى يشعر بأنه من غير جنس العرب ، وله مذهب غير مذاهب العرب ، ولذلك فقد كثر الاصطدام بينهم . وكانت سلطة الحكم هى محل التنازع وملتقى الخلافات .

ومنذ أن ابتدأت أقدام العرب تثبت فى إفريقية ، وأخذ الإسلام فى الانتشار كانت أكثر النحل ثورة بالعرب هم البربر المتأثرين بمذاهب الخوارج وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب ، وأقل نزاعاً معهم ، ولذلك نجد أكثر الثوار على أمراء إفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة .

وكان الخوارج ينتهزون أدنى الأسباب للثورة على العرب . وكان أبو قرة الصفرى فى طليعة الناقمين على العرب ، فما كادت تمضى على حكم الأغلب ابن سالم سنتان حتى ثار عليه أبو قرة سنة ١٥٠ فى ناحية الزاب . والتفت حوله جموع من البربر لا تحصى ، فخرج الأغلب لقتالهم ، نفر أبو قرة وتشتتت جموعه ، وأراد الأغلب أن يطارده ، ولكن رؤساء الجند أبوا عليه ذلك ، واكتفوا بما حصل . ولما أصر الأغلب على رأيه خالفوا عليه ، وأخذوا يتسللون إلى القيروان

وساءت الحال بين الأغلب وجنده ، وسنحت الفرصة لبعض خصومه للوثوب عليه ، وكان الحسن بن حرب الكندى حاكم قابس يتربص بالأغلب ، فانتهز فرصة تذمر الجند فاستمالهم وثار على الأغلب وسار إليه فى جموع عظيمة . فجمع الأغلب — وكان بالقيروان — أهل بيته وخاصته وأعلمهم أنه سيلقى الحسن وحده إن لم يعنه أحد . فلما بلغ الحسن القيروانى لقيه الأغلب فيمن معه ، وشدّوا على الميمنة فكشفوها ، ثم انصرف الأغلب وهو يقول :

لم يبقَ إلاّ القلبُ أو أموتُ إن تحمِ لى الحربُ فقد حَميت
وإن توليتُ فلا بَقيتُ

ثم حمل الأغلب على القلب ، فلم يثْن حدّه حتى قتل بسهم أصابه ، وذلك فى شعبان سنة ١٥٠ . ومدة حكمه سنة وثمانية أشهر .

المخارق بن غفار الطائى

وبعد موت الأغلب اجتمعت كلمة أصحابه على حاكم طرابلس المخارق ابن غفار فولوه عليهم ، وحملوا على الحسن حاكم قابس ففر إلى تونس ، وقام المخارق بأمر إفريقية ما عدا تونس .

آل المهلّب

آل المهلب بيت عربى عريق فى المجد ، له المكانة الأولى فى أيام العرب ووقائعهم ، ورثوا الكرم والشجاعة كابراً عن كابر . وكانت لهم المكانة الممتازة أيام الدولتين : الأموية والعباسية ، وكانوا من خير الولاة فى إفريقية ، رفعوا من ذكر العرب وأقدارهم ، وكان لهم المقام الأول فى حرب الخوارج فى إفريقية والشرق . وكان للمهلب بن أبى صفرة القدح المعلى فى قتالهم وتشتيت جموعهم .

وأول ولاتهم فى إفريقية عمرو بن حفص ، وآخرهم محمد بن مقاتل العكّى .

عمر بن حفص بن قبيصة الأزدى

لقبه (هزَارمرْد)[1] وهو أول وال من آل المهلب على إفريقية، ولاه عليها أبو جعفر المنصور سنة ١٥١ . وكان مركز ولايته القيروان فقدمها فى صفر من هذه السنة واستقامت له الأمور فى إفريقية ثلاث سنين وأشهراً ، ثم سار إلى الزاب ونزل طبنة فبنى سورها ، واستخلف على القيروان قريبه حبيب ابن حبيب ، فثار عليه البربر وقتلوه .

الجنيد بن بشار الأسدى

وولى عمر على طرابلس الجنيد بن بشار (أوسيَّار) الأسدى . وفى سنة ١٥٣ ثار عليه برابر طرابلس بزعامة يعقوب بن لبيب بن يزيد بن يَطوفت الملزوزى الإباضى المغيلى ، وكنيته أبو حاتم ، فأمد عمر الجنيد بن بشار بالجيوش لمحاربة يعقوب ولكن كثرة البربر تغلبت على الجنيد وأصحابه فانهزموا إلى قابس ، ودخل أبو حاتم طرابلس فى رجب سنة ١٥٤ وأقام بها أشهراً . وكثرت الثورات فى إفريقية ، وانتقضت على عمر من كل جانب .

ورأى البربر فى انتقاض إفريقية فرصة لانتزاع الحكم من العرب فاجتمع أمراء قبائلهم من كل مكان ، وذهبوا إلى عمر فى طبنة ، وأحاطوا بها فى اثنى عشر معسكراً لا يقل ما فيها من المحاربين عن خمسة وسبعين ألفاً ، ومن أشهر هؤلاء الأمراء أبو قرة المغيلى الخارجى الصفرى أمير تلمسان ، وكان معه أربعون ألفاً وعبد الرحمن بن رستم الإباضى فى خمسة عشر ألفاً جاء بهم معه من مكان تاهرت . وأبو حاتم فيمن معه من برابر طرابلس . وعاصم السدراتى وكان معه عدة آلاف من الإباضية ، والمسور الزناتى فى عشرة آلاف من الإباضية . وأم من البربر من زناتة وصنهاجة وهوارة لا تحصى . .

---

(١) معنى هزار مرد بالفارسية ألف رجل . وهو من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب ، وكان شجاعاً وكنيته أبو جعفر .

ثورة يعقوب بن لبيب[1]

وقال ابن حداش: ثار يعقوب بن لبيب الملزوزى – أبو حاتم – سنة ١٥٠ وغلب على إفريقية كلها ، وفتح القيروان ، وبلغت عساكره من الخيل خمسة وسبعين ألف فارس ، ومن الرجال ٣١٥ ألفاً . . . كل هذه الجموع الحاشدة وجيش عمر لا يتجاوز ١٥٥٠٠ .

وعلم عمر ألا سبيل إلى التغلب على هذه الأمم المجتمعة من طريق الحرب ؛ فسلك مع رؤساء البربر طريق الوعود ، والرشوة ، والهدايا . وأول من قبل هداياه أخو أبى قرة ، ووعده بأن يعمل على صرف أخيه ، وتفريق الصفرية عنه ، وقد فعل ، ونجحت الحيلة ، وتفرق الصفرية عن أبى قرة ، وهاجم عمر ابن رستم فانهزم أمامه ورجع إلى تاهرت ، وقتل من أصحابه نحو ثلاثة آلاف . ورجع عمر إلى القيروان ، وما زالت جيوش البربر حولها كثيرة ، وقد أدخل عمر إلى القيروان كل ما يحتاج إليه من المؤن والعتاد الحربى .

وأقبل أبو حاتم فى مائة وثلاثين ألفاً وحاصر القيروان ، وكان عمر يخرج كل يوم لقتالهم . وكان البربر من الكثرة بحيث كلما فنيت أمة جاءت أخرى . . وطال الحصار على عمر ومن معه فى القيروان ، وفنى ما عندهم من المتاع حتى أكلوا الدواب والسنانير ، وقل جند عمر من طول الحرب وكثرة الموتى ، فاضطرب أمره وضاق بالحياة ذرعاً . وأشيع أن يزيد بن حاتم بعثه المنصور لنجدة عمر فكبر على عمر أن يقال يزيد أخرج عمر من الحصار ، فقال عمر : « إنما هى رقدة وأبعث إلى الحساب » ، وخرج إلى العدو فما زال يقاتل حتى قتل فى نصف ذى الحجة سنة ١٥٤[2] واستولى أبو حاتم على القيروان ، بعد حصار دام

---

(١) هو يعقوب بن لبيب الملزوزى الهوارى وكنيته أبو حاتم . ويقال إنه بقى مستولياً على طرابلس أربع سنين .

(٢) هذه الرواية منقولة عن الرقيق بواسطة . وقال الطبرى سنة ١٥٣ .

نحو سنة ، وبايعه الإباضية والبربر بالولاية على إفريقية. وكان ما وقع بين عمرو بين البربر من الوقائع ثلاثمائة وخمساً وسبعين واقعة في مدة لا تتجاوز سنة على رواية الطبري ، ولا تتجاوز سنتين على رواية الرقيق[1]. عليه وعلى آل المهلب جميعاً رحمة الله . واستولى الإباضية على أكثر إفريقية .

وقد استاء المنصور لقتل عمر ، فأرسل يزيد بن حاتم إلى إفريقية للأخذ بثأر عمر من أبي حاتم ، في جيش ، قال في شذرات الذهب : إنه مكون من خمسين ألف فارس ، وبلغنا أنه أنفق عليه ثلاثة وستين ألف ألف .

يزيد بن حاتم

هو يزيد بن حاتم ، بن قبيصة ، بن المهلّب . وكنيته أبو خالد ، كان شجاعاً مقداماً ، ذا نجدة ومروءة . وكان شبيهاً بجده المهلّب بن أبي صفرة في الكرم والشجاعة ، وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته . قال صاحب النجوم الزاهرة : وفي سنة ١٤٩ ضم أبو جعفر المنصور برقة إلى يزيد بن حاتم زيادة على عمل مصر . وهو أول من ضم له برقة على مصر ا هـ .

ولاه المنصور إفريقية سنة ١٥٥ . وكان أبو حاتم الإباضي إذ ذاك مستولياً على طرابلس والقيروان . ويقال إنه كان مستولياً على إفريقية كلها .

وبلغته أخبار يزيد بن حاتم ، فخرج إلى طرابلس للقائه ، فغدر به أهل القيروان فرجع لقتالهم فقاتلهم ، ووكل عليهم جرير بن مسعود المديوني ورجع إلى طرابلس ينتظر ورود يزيد بن حاتم .

---

(١) الرقيق القيرواني: هو إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني ، مؤرخ أديب من أهل القيروان . رحل إلى مصر سنة ٣٨٨هـ يحمل هدية من باديس بن زيري إلى الحاكم ، وعاد إلى وطنه فتوفي فيه على الأرجح .

وصفه بن رشيق صاحب العمدة بأنه شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع ، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ا هـ .

ونعته ياقوت بالكاتب ، وأورد أسماء كتبه ، ولعل خيرها « تاريخ إفريقية والمغرب » و « كتاب النساء » و « نظم السلوك في مسامرة الملوك » .

معجم الأدباء ج ١ ص ٢٨٧ .

ولما وصل يزيد بن حاتم إلى طرابلس انضم إليه جماعات من البربر لقتال أبي حاتم الملزوزى الإباضى . وكان مع أبى حاتم جيوش كثيرة ، فالتقى بها يزيد واحتدم القتال بين الفريقين ، وانجلت المعركة عن هزيمة أبى حاتم فالتجأ إلى جبل نفوسة فى فلول من جيشه ، فطارده يزيد إلى أن أدركه فى جَنْدوبة ، فقتله فى ثلاثين ألفاً من أصحابه[1] وتفرقت جموع البربر واستولى يزيد على طرابلس .

كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين . وبمناسبة قتله نقل الأستاذ الشماخى فى كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ، ورفع أقدار بعض الناس على حساب الطعن فى أقدار غيرهم . قال الأستاذ الشماخى ما نصه :

« إن مكان المعركة يستضىء نوراً كل ليلة ، وقد اشتهر عندنا — من غير أن أراه — أن النور ينزل على قبره — يعنى قبر أبى حاتم — وقيل لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابى فكف » اهـ . ما ذكره صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماخى أن يسود بها صحائف كتابه فإن أى إنسان لا يصدق أن النور الذى كان ينزل على قبر أبى حاتم انقطع لما دفن الأعرابى إلى جانبه . ولكن الذى اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من شأن أبى حاتم بالطعن فى العرب . وهو خطأ فى التقدير يؤدى إلى الفتنة بين المواطنين وإلى تأريث الكراهة بينهم . ولو اقتصرت الخرافة على مدح أبى حاتم لما عنانا شىء منها ، ولما تعرضنا لها بنقد .

وقد ذكر مثل هذه الخرافة فى حكاية قتل مهدىّ النفوسى حينما قتل وعلق رأسه على باب سور طرابلس ، « فكانت أسارير وجهه تنبسط حينما يقولون له انتصر أصحابك ، وتنقبض حينما يقولون له انتصر العرب » وأغرب ما فى الموضوع أن البارونى باشا ينقل هذه الحكايات فى كتابه « الأزهار الرياضية » ولا يعلق عليها بشىء .

---

(١) يظهر من سياق الكلام أن يزيد بن حاتم قدم إفريقية أوائل سنة ١٥٥ ، وقتل أبو حاتم الملزوزى فى أوائل هذه السنة .

ويجب على الطرابلسيين من العرب والبربر أن يتجنبوا كل ما من شأنه الطعن والتحقير ، وما يوجب الفرقة وتغيير النفوس ، فقد جرت هذه الأوصاف على الوطن أكبر الويلات وأشد النكبات ، ونحن فى زمن أحوج ما نكون فيه بلجمع الشمل واتحاد الكلمة .

وكان يزيد هذا شجاعاً مشهوراً بالكرم ، أغرى كرمه به الشعراء ، ودلهم عليه ، فتباروا فى مدحه ، ونالوا من عطائه .

وممن مدحه من الشعراء ربيعة بن ثابت الرّقى ، قصده ذات مرة ، فشغل عنه بعض الوقت ، فانصرف مغاضباً وقال :

أرانى — ولا كفران لله — راجعــاً بخفى حنين من عطاء ابن حاتم

فبلغ يزيد ذلك، فرده وملأ له خفيه ذهباً ، فأخذ يمدحه ويفضله على يزيد ابن أسد السلمى . ومن شعره فى مدحه :

حلفت يميناً غير ذى مثنــوية يمين امرئ آلى وليس بــآثم
لشتّان ما بين اليزيدين فى النــدا يزيد سليم والأغرّ بن حاتم
فهمّ الفتى الأزدى إتلافُ ماله وهمّ الفتى القيسىّ جمعُ الدراهم
فلا يحسب التمتــام أنى هجوته ولكننى فضلت أهــل المكارم

ويزيد هذا هو القائل فى نفسه :

لا يألف الدرهم المضروبُ خرقتنا إلا لماماً يسيراً ثم ينطلقُ
يمرّ مرًّا عليها وهى تلفِظُهُ إنى امرُؤٌ لم يخالفْ صرتى الورِقُ

وكان يضرب به المثل فى الكرم وعظم الهمة .

وفى سنة ١٥٧ انتقضت عليه ورفجومة ، وولوا عليهم رجلا اسمه أبو زرجومة فأرسل إليهم يزيد جيشاً فهزموه ، فأرسل إليهم ابنه المهلب فى جيش ، وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبى ، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل .

وفى سنة ١٦١ انتقضت نفزاوة ، ودعوا إلى مذهب الإباضية فهزمهم . وركدت ريح الخوارج من البربر ، وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال .

وكان يزيد بمكان من التقوى وخوف الله . وكان عادلا فى أحكامه حازماً فيها . وكان يقول : « والله ما هبت شيئاً قط هيبتى من رجل ظلمته ، أنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله ، فيقول الله حسبك ، الله بينى وبينك » .

توفى بالقيروان فى ١٨ من شهر رمضان سنة ١٧٠ .[1] ومدة ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر . ودفن بباب سلم بتونس .

سعيد بن شداد

وبعد أن قضى يزيد على أبى حاتم وجيشه ولى على طرابلس سعيد بن شداد وسار إلى القيروان فدخلها بدون حرب يوم الاثنين لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ١٥٥ ، وأقر الأمن ، واطمأن الناس ، وباشروا أعمالهم ، وأرجع إلى البلاد بعض ما فقدته من النشاط التجارى والصناعى ، ورتب أسواقها ، وجعل لكل صناعة سوقاً خاصة بها .

وفى سنة ١٥٦ ثار عليه بناحية طرابلس أبو يحيى الهوارى (بن قرياس)[2] فتصدى له عبد الله بن السمط الكندى — قائد جند طرابلس من قبل يزيد ابن حاتم — فالتقى به على شاطئ البحر ، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن قرياس ، وقتل عامة أصحابه ، وتم الأمر فى إفريقية ليزيد بن حاتم المهلبى وضبط أمورها .

---

(١) اقتصرنا على سنة ١٧٠ كما جاء فى وفيات الأعيان .

(٢) ذكره بن خلدون باسم يحيى ابن فوناس .

داود بن يزيد

وقبل أن يموت يزيد استخلف ابنه داود على إفريقية حتى يأتى التقليد من بغداد لمن يختاره الخليفة لولاية إفريقية . ولم يمهل البربر داود فثاروا به ، ولكنه انتصر عليهم وقتل كثيراً منهم ، واحتفظ بولاية إفريقية ، حتى صدرت أوامر هارون الرشيد بولاية روح بن حاتم ، وهو عم داود، بعد تسعة أشهر ونصف من ولايته .

روح بن حاتم[1]

هو أخو يزيد بن حاتم ، وكنيته أبو خالد، وقيل أبو حاتم . ولاه الرشيد على إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٧١ . ودخل إفريقية فى هذه السنة .

وفى هذه السنة رغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فى موادعته فوادعه . قال ابن خلدون واستكان البربر للغلب ، وفرضت عليهم الضرائب ، واستقر الإسلام .

وتوفى رَوح ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان سنة ١٧٤ . ومدة ولايته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . ودفن مع أخيه يزيد فى قبر واحد .

---

(١) ابن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، كان من أجود العرب ، وولى لخمسة من الخلفاء: السفاح ، والمنصور ، والمهدى ، والهادى ، والرشيد . قيل إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبى موسى الأشعرى ، فإنه ولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم .

وقبل أن يتولى إفريقية كان والياً على السند . وكان الناس يتعجبون من بعد ما بين ابنى حاتم : يزيد فى إفريقية وروح فى السند ، فاتفق أن الرشيد عزل روحاً عن السند ، فلحق بأخيه يزيد بإفريقية. وبعد وفاة أخيه يزيد تولى إفريقية ومات بها ودفن مع أخيه يزيد بباب سلم بتونس فى قبر واحد .

علي بن زياد العبسي (١)

وفي أيام ولاية روح — وكان مقرها القيروان — كان يوجد بتونس العلامة الفقيه الأستاذ علي بن زياد العبسي الطرابلسي ، سمع من مالك ، والثوري ، والليث بن سعد ، وابن لهيعة ، ولم يكن بإفريقية مثله . . أخذ عنه البهلول بن راشد ، والإمام سحنون ، وشجرة بن عيسى ، وأسد بن الفرات . وكان يقول : إني لأدعو الله عز وجل لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه . . ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية . . وهو أول من أدخل موطأ مالك لإفريقية وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، وهو معلم سحنون . . وسأل سحنون شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد فقال : كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم ، وكان أوله من طرابلس ، ثم سكن مدينة تونس . . وكان البهلول يفزع إلى علي بن زياد في مشكلات العلم . قال سحنون : ما بلغ البهلول شسع علي بن زياد ، ويقول ما أنتجت إفريقية مثل علي بن زياد . وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي ابن زياد ليخبرهم من هو على الصواب .

أرسل إليه أمير إفريقية ورسول الخليفة يستشيرانه فيمن يلي القضاء فامتنع عن الذهاب إليهما ، فحضرا إليه في منزله ، فلما قيل له إنهما بالباب حول وجهه إلى الحائط ، فدخلا عليه وسأله الوالي بلسان رسول الخليفة عمن يلي القضاء في إفريقية ، فحول وجهه إلى القبلة وقال: ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحداً يستوجب القضاء ، قوموا عني .

وبعث روح بن حاتم — وكان بالقيروان — في طلبه ليوليه القضاء فامتنع ورجع من فوره إلى تونس . . .

أراد يوماً أن يصلي بجامع القيروان فأتى إلى سارية ، فأراد أن يكبر فارتعدت فرائصه خوفاً من الله ، ثم تحامل على نفسه وكبر فتغير لونه .

وله مواقف محمودة في العلم والزهد والخوف من الله .

توفي سنة ١٨٣ عليه رحمة الله .

---

(١) ملخص من رياض النفوس للمالكي ، ولم يذكر تاريخ ولادته .

نصر بن حبيب المهلبي

بويع له فى العشر الأخير من رمضان بعد وفاة روح . ومدة ولايته سنتان وثلاثة أشهر .

الفضل بن روح بن حاتم

ولاه الرشيد إفريقية فى المحرم سنة ١٧٧ .

يحيي بن موسى

وولى الفضل من قبله يحيي بن موسى عاملا على طرابلس . وفى جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ثار الجند على الفضل ، وقدموا عبد الله بن عبد ربه بن الجارود ، وتزعم الثورة من غير إذن الرشيد ، وأبقى يحيي بن موسى عاملا على طرابلس .

وانتشرت الثورة فى إفريقية كلها ، وقتل الفضل فى شعبان سنة ١٧٨ ، ودامت ولايته سنة وخمسة أشهر ، وهو آخر أمير من آل المهلّب فى إفريقية ودامت ولايتهم فيها سبعاً وعشرين سنة من سنة ١٥١ إلى سنة ١٧٨ .

عبد الله بن الجارود

وبعد أن قتل الفضل تولى ابن الجارود الأمر من بعده ، وكانت له مع البربر وقائع هائلة ، وتغلب على جزء كبير من إفريقية . وأعطاه الرشيد الأمان فاستجاب للطاعة ، واتخذ القيروان محلا لحكمه وكتب إلى عامل طرابلس يحيي ابن موسى أن أقدم إلى القيروان فإنى مسلم إليك أمرها ، فخرج يحيي بمن معه ، فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند من القيروان ، ومعهم النضر ابن حفص وعمرو بن معاوية . وخرج ابن الجارود من القيروان واستخلف عليها المقرح بن عبد الملك ليحافظ على الأمن حتى يصل يحيي بن موسى . وكانت مدة ابن الجارود سبعة أشهر .

وكان رجل يسمى العلاء بن سعيد أراد أن يزاحم يحيي بن موسى على القيروان فانتهز فرصة تخلى ابن الجارود عنها ودخلها قبل أن يصل إليها يحيي وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود . . . وجاء يحيي بمن معه ، وطلب إلى العلاء أن يتخلى عن القيروان ، وأن يفرق أصحابه إن كان فى الطاعة ، فأجاب العلاء الطلب ، وصرف أصحابه إلى مواضعهم وسلم البلد إلى يحيي ورجع إلى طرابلس .

ولما تخلى ابن الجارود عن القيروان ذهب إلى طرابلس ، وفى نيته أن يذهب إلى المشرق ، فوصل إلى طرابلس قبل العلاء بن سعيد ، فلقى بها يقطين بن موسى فخرج معه إلى المشرق ، فالتقوا فى الطريق بهرثمة بن أعين قادماً إلى إفريقية والياً عليها من قبل الرشيد .

كان العلاء كتب إلى هرثمة أنه هو الذى أخرج ابن الجارود من القيروان يريد بذلك الوقيعة بابن الجارود لأنه قتل الفضل واستبد بإفريقية بدون إذن الرشيد ، وقد صدق هرثمة قوله وكافأه بجائزة سنية . . . ولما التقى هرثمة بابن الجارود ، وأخبره ابن الجارود بالحقيقة ، وهى أنه هو الذى سلم القيروان ليحيي بن موسى ، وأن العلاء خرج من القيروان بناء على تهديد يحيي — لما علم هذا قدم يحيي على العلاء ، وأرسل ابن الجارود إلى الرشيد ليعتذر له مما فعل ويقدم له الطاعة .

هرثمة بن أعينُ الهاشمى[1]

لما شق ابن الجارود عصى الطاعة فى إفريقية وقتل الفضل ، لم يكتف منه الرشيد بالاعتذار فيما بعد ، بل فكر فيمن يخلفه فوقع اختياره على هرثمة بن أعين ، فولاه على إفريقية سنة ١٧٩[2] ، وقدم إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من هذه السنة .

---

(١) ضبطه فى خلاصة تاريخ تونس بضم الياء

(٢) وقيل فى ربيع الأول سنة ١٨٠ .

سفيان بن أبى المهاجر

وولى هرثمة على طرابلس سفيان بن أبى المهاجر ، وفى أيامه أمر هرثمة ببناء سور طرابلس من جهة البحر . وبنى القصر الكبير ليرابط به الجند والمدافعون عن البلاد لرد الأعداء عن الثغر . وكان الذى يشرف على عملية البناء زكريا أبو قادم ، وهو أحد خواصّ هرثمة .

وفى أيام هرثمة استراح الناس ، وأمنوا وانصرفوا إلى أعمالهم . . . ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم بعد ، وكل ما نزل بهم من الهزائم والقتل فى حروب أبى الخطاب وأبى حاتم وغيرها لم يثن من عزمهم ، ولم ينسهم الأخذ بالثأر من العرب كلما سنحت لهم الفرصة . فخرج من بينهم أحد رجالاتهم ، وهو عياض بن وهب الهوارى ، ودعا إلى الثورة على هرثمة ، فسرعان ما لبوا نداءه ونشبت الحرب بينهم وبين هرثمة . وحاول هرثمة أن يقضى على الفتنة فاستعصت عليه ، وكثرت الخلافات وأفلت زمام الأمر من يده ، فلم يسعه إلا أن يستأذن الرشيد فى الاستقالة فأذن له ، ورجع إلى المشرق فى رمضان سنة ١٨١ . وسجنه المأمون لاتهامه بممالأته لإبراهيم بن المهدى . ومات فى السجن سنة ٢٠٠ ولا ندرى ماذا حصل لعياض الثائر على هرثمة .

محمد بن مقاتل بن حكيم العكى [١]

وبعد أن قبل الرشيد استقالة هرثمة أسند إمارة إفريقية إلى محمد بن مقاتل ابن حكيم العكى سنة ١٨١ [٢]. وهو أخو الرشيد من الرضاعة. وكان سيئ الخلق ضعيف الإرادة .

---

(١) ضبطه ابن أبى زرع فى تاريخه « الأنيس المطرب » بضم العين .

(٢) يقال إنه قدم إفريقية فى رمضان من هذه السنة.

تمام بن تميم التميمى

وانتهز تمام ضعف إرادة محمد بن مقاتل فثارعليه سنة ١٨٣ بتونس ، ودخل عليه القيروان لخمس بقين من رمضان من هذه السنة ، فانتزعها منه ، واستسلم له ، وطلب الأمان على حياته فأمنه ، واشترط عليه أن يخرج إلى طرابلس فخرج إليها ، وكانت ولاية العكى سنتين وعشرة أشهر .

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزّاب من قبل هارون الرشيد، فقدم لقتال تمام فى القيروان ، ففر تمام إلى تونس ، وكان هذا بعد أن استسلم له ابن مقاتل . ودخل الأغلب المسجد فخطب فى الناس — وكان لسناً فصيحاً — فحثهم على التمسك بالعكى ، وأفهمهم أنه هو الأمير من قبل الخليفة واستقدمه من طرابلس وسلم له إمارة القيروان . . والتقى تمام مع إبراهيم بن الأغلب فى حروب كثيرة . وفى المحرم سنة ١٨٤ استسلم تمام للأغلب وقدم الطاعة للعكى . وكثرت شكايات الناس إلى الرشيد فى العكى وفساد حكمه وسوء سلوكه ، فعزله فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٨٤ .

وذكر— ابن أبى زرع فى تاريخه « الأنيس المطرب» سبباً آخر لعزله ، وهو أن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المؤسس الأول لدولة الأدارسة بالمغرب كان له مولى يقال له راشد ، هو الذى أشرف على تربيته ، وهرب به من المشرق إلى المغرب خوفاً على حياته ، وكان شجاعاً مقداماً ، وذا رأى صائب .

ولما أرسل الرشيد سليمان بن جرير إلى المغرب ليقتل إدريس أخذ يحتال عليه حتى قتله بالسم سنة ١٧٧ [١] ، وبقى راشد يدير مملكة الأدارسة ويتولى تربية إدريس الثانى فكان لا بد من التخلص من راشد ، فأوعز الرشيد إلى إبراهيم ابن الأغلب بقتله وأخذ يحتال له حتى قتله حوالى سنة ١٨٨ .

---

(١) وقيل سنة ١٧٥ ويقال إنه وضع له السم فى « دلاعة » والدلاعة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء .

وأراد محمد بن مقاتل العكى أن يتزلف إلى الرشيد بهذا العمل ، فأرسل إليه يخبره بأنه هو الذى دبر قتل راشد . ولكن الرشيد تحقق أن الذى دبر قتل راشد هو إبراهيم بن الأغلب، فعزل العكىّ عن إفريقية وولى بدله ابن الأغلب . وفى هذا الحادث يقول ابن الأغلب فيما كتب به إلى الرشيد :

ألم ترنى بالكيد أرديت راشداً وإنى بأخرى لابن إدريس راصد
تناوله عزمى على بعد داره بمحتومة قد هيأتها المكايد
فتاه أخو عك بمقتل راشد وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد

قال البخارى قد خفى على الناس حديث إدريس بن إدريس لبعده عنهم، ونسبوه إلى مولاه راشد ، وقالوا إنه احتال فى ذلك لبقاء الملك له، ولم يعقب إدريس بن عبد الله ، وليس الأمر كذلك ، فإن داود بن القاسم الجعفرى وهو أحد كبار العلماء ومن له معرفة بالنسب حكى أنه كان حاضر قصة إدريس . قال وكنت معه فى المغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجهاً . وقال الإمام على بن موسى الرضا : إن إدريس بن إدريس بن عبد الله ، كان نجيب أهل البيت وشجاعهم . قال أبو هاشم : داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر الطيار أنشدنى إدريس بن إدريس لنفسه قال :

لو مال صبرى يصبر الناس كلهم لكل فى روعتى أو ضل فى جزعى

وكان إدريس بن إدريس لما مات أبوه حملا ، وأمه (أم ولد) بربرية ولما مات إدريس بن إدريس هذا ابن المحض وضعت المغاربة التاج على بطن جاريته أم إدريس ، فولدت بعد أربعة أشهر ، وليس لإدريس بن المحض عقب الا منه ، وأعقب من ثمانية رجال ، وقيل إنه أعقب من غير هؤلاء أيضًا ، ولكل منهم ممالك ببلاد المغرب هم ملوك إلى الآن . وأسماء أولاده القاسم ، وعيسى ، وعمر ، وداود ، ويحيى ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وحمزة .

وإلى هنا انتهى دور من أدوار الحكم فى إفريقية كان ولاتها فيه خاضعين لأوامر الخلفاء فى دمشق وبغداد من الأمويين والعباسيين . ودخلت فى دور فيه كثير من الحرية فى العمل والاستقلال بالرأى ، مع بقاء شىء من الارتباط

بالخلافة العباسية ببغداد لا يعدو تلك التقاليد الدبلوماسية التى تشعر بالمودة والارتباط الأدبى . . هذا الدور هو قيام دولة الأغالبة .

* * *

وقبل أن ندخل فى الكلام على دولة الأغالبة يحسن أن نذكر شيئاً من نظام الحكم فى إفريقية الذى كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بنى أمية والعباسيين .

كانت مهمة العرب فى إفريقية — فى عهد الخلفاء الراشدين — مهمة الفاتح وكانت عسكرية بحتة ، ولهم من السلطان ما لقواد الجيوش ، ولم تكن لهم فيها ، إدارات ودواوين لأن الأمور فيها إذ ذاك لم تستقر ولم يتخذها العرب دار مقام .

وجاء دور الأمويين والعباسيين ، وكثر فيه تردد العرب على إفريقية فاتحين ، فاتسعت فيه فتوحاتهم . . فكان عصر الفتح وتهدئة الثورات ونشر السلام ، وتعاليم الإسلام ، وتفهيم الناس فضائله ، وما ترمى إليه دعوته من خير للبشرية وسعادتها .

واقتضت ظروف الاستقرار أن يوضع نظام حكومى يتناسب مع الوضع القائم إذ ذاك ، فكان كما يأتى :

يعين الخليفة الوالى (الأمير) ومحل إقامته دار الإمارة بالقيروان التى بناها عقبة بن نافع بجوار الجامع الأعظم . . والوالى يعين العمال على المقاطعات ، ومحل إقامتهم عواصم المقاطعات . . فعامل طرابلس يقيم بمدينة طرابلس لأنها عاصمة القطر ، وهكذا فى غيرها من المقاطعات .

ويعين الوالى (الأمير) رئيساً على ديوان الخراج ويسمى (رئيس ديوان الخراج) وهو يساوى وزير المالية . . ويعين رئيساً على البريد ، ويسمى (صاحب البريد) وهو يساوى مدير مصلحة البريد . . ويعين رئيساً على ديوان الجند ، ويسمى (رئيس ديوان الجند) وهو يساوى وزير الحربية ، ويلحق به قائد الأسطول ، ويسمى (مقدم العمارة) وهو يساوى وزير البحرية . . وينشئ ديوان الرسائل ، ويشمل

كل ما يتعلق بالرسائل والمكاتبات . . ويعين قاضياً . والقاضى يختار نواباً عنه فى الجهات البعيدة وهو مرجعهم فى كل ما يتعلق بهم .

وما كاد هذا العصر ينقضى حتى اطمأنت نفوس البربر إلى الإسلام ، وتذوقوا آداب القرآن ، واهتدوا بهديه ، وألفوا عادات العرب ، وتسموا بأسمائهم ، واقتبسوا الكثير من طباعهم ، واقتنع الكثير منهم بما ترمى إليه سياسة الإسلام من الأخوة والمحبة ، فأصهروا فى العرب ، وأصهر العرب فيهم . وأصبحوا هم والعرب إخواناً ، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . وانتشرت فى إفريقية بل وفى المغرب أيضاً — آداب العرب وصناعاتهم ، فوجد فيها البربر غذاء روحيًّا وماديًّا . وتمكن بعض الأمراء مثل حسان بن النعمان من إدخال بعض النظم على الإدارات بقدر الضرورة .

وقد دامت مدة ولاة الأمويين والعباسيين فى إفريقية ١٣٤ سنة ، أى من سنة ٥٠ إلى سنة ١٨٤ . وعددهم ستة وعشرون أميراً ، أولهم عقبة بن نافع ، وآخرهم محمد بن مقاتل العكى .

دولة الأغالبة

دولة عربية إسلامية ، قامت فى شمالى إفريقية سنة ١٨٤ . وكان نظام الحكم فيها فرديًّا وراثيًّا ، منحصراً فى بنى الأغلب .

وأهم الوظائف فيها هى :

١ — صاحب الخراج . . . وأول من أنشأ هذه الوظيفة هو حسان بن النعمان أيام كان والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٧ ، ثم توسع فيها الأغالبة بما يتفق مع ثروة البلاد أيام حكمهم ، وهى من أكبر الوظائف خطراً فى الدولة ، لأنها تتعلق بثروة البلاد .

٢ — صاحب البريد . . . وهو بمثابة وزير المواصلات ، وسمى صاحب البريد دون أن يضاف إلى شىء آخر ، لأن للبريد أهمية كبرى فى الدولة لأنه يتعلق بنقل أخبار الدولة . . . وكان للبريد محطات فيها خيل وبغال . وكلما وصل عامل البريد محطة غير دابته التى كان يركبها ، بعد أن أجهدها فى السير للوصول إلى المحطة التى بعدها فى أقصر وقت ممكن . ويضاف إلى صاحب البريد رئاسة البوليس السرى .

٣ — قائد الجيش . . . وهو يقوم مقام وزير الحربية .

٤ — مقدم العمارة . . . وهو بمثابة وزير البحرية .

وكان لدولة الأغالبة أسطول عظيم . وكانت له الغلبة فى البحر الأبيض المتوسط على أسطول روما . . . وقد فتح صقلية ، وفالورية ، وسردانيا ، ومالطا . وكان مؤلفاً من عدة أنواع من السفن لأغراض مختلفة . وإليه يرجع الفضل فى حراسة السواحل .

٥ — العامل ، ووظيفته إدارية ، ينظر إلى المصلحة الوطنية من حيث الإدارة والتنظيم .

٦ – الحاجب ، هو مدير التشريفات ، وله نفوذ كبير فى القصر .

٧ – القضاء ، كان متمشياً مع أحكام الكتاب والسنة ، والقياس ، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص . وكان لا يتولاّه إلا من توفرت فيه قوة الإدراك والتبحر فى العلم بعد استشارة أهل الحل والعقد فى البلاد.

وكان القضاء مستقلا عن الإدارة الأميرية ، ولا يتدخل الأمير فى شئون القاضى وهو حر فى أحكامه . ويعين القاضى نواباً عنه فى الأماكن البعيدة من محل عمله فى داخل المملكة .

٨ – الجند : ينقسم الجند إلى ثلاثة أقسام : الحرس الأميرى وهو المخصص لحراسة الأمير ، وليس له عمل غير ذلك . والجيش : وهو مركب من عدة عناصر : من العرب ، والبربر ، وغيرهم ، وكلهم مأجورون « مرتزقة » لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر ، وما يقع فى أيديهم من الغنائم . . . أما المحافظة على الوطن وكيان الدولة فهما من الأمور التى لا تخطر لهم على بال . . . وقد كان هذا الجند المأجور من أقوى أسباب سقوط دولة الأغالبة .

أما سلاح الجند ، فكان القوس ، والرمح ، والسيف ، والكبش ، والمنجنيق .

هذه هى أهم الوظائف التى كانت تعتمد عليها دولة الأغالبة فى تسيير دفة الحكم وإقرار الأمن .

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أبى العرب الأغلب ، بن سالم أبى عقال ، بن خفاجة التميمى ، وهو أول من أسس دولة الأغالبة . . . وكان ماضى العزم ، قوى الإرادة ، صائب الرأى ، وشجاعاً مقداماً ، وعالماً وخطيباً . سمع من الليث بن سعد ، ووهب له جلاجل أم ولده . . . شاع ذكره بين الناس ، واتجهت إليه أنظارهم . . وقد وقع عليه اختيار هارون الرشيد فولاه على الزاب . . . والزاب

يطلق على عدة بلدان بجوار بسكرة ، وكل منها يكون قرى متجاورة ، كل منها يسمى الزاب منها زاب بسكرة ، وزاب طلوقة ، وزاب الدوسن ، وبسكرة قاعدة هذه البلدان كلها . فاضطلع بالأمر ، وأحسن السيرة ، ورضيته الكافة ، واستقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف كما سنذكره .

تقدم أن العكى كان ضعيف الإرادة ، وتبين للرشيد عجزه عن إدارة الحكم. ونتيجة لهذا العجز طمع فيه بعض الثوار فثاروا به . وقد رفع الأهالى رغبتهم إلى الرشيد فى تعيين إبراهيم بن الأغلب بدله . فاستجاب الرشيد لهذه الرغبة فعزله وولى بدله إبراهيم بن الأغلب .

وقد اشترط إبراهيم لنفسه شروطاً أقره عليها الرشيد ونفذها له ، وهى ثلاثة :

أولا : أن يستقل بإدارة شئون إفريقية الداخلية عن الخليفة .

ثانياً : أن يتولى إمارة إفريقية ذريته من بعده (بطريق الوارثة) .

ثالثاً : ألا يدفع الإعانة التى كانت تدفعها إفريقية لمصر ، وقدرها مائة ألف دينار ، واشترط على نفسه أن يدفع للخليفة خراجاً سنويًّا قدره أربعون ألف دينار ، فوافقه الرشيد على ما طلب ، وولاه أميراً على إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ وهو أول أمير من بنى الأغلب على إفريقية ، وأول من جعل إمارة إفريقية وراثية فى ذريته فى العهد الإسلامى .

ومن قوله — وكان قد خلف زوجه بمصر — :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلاّ وذكركِ يثنى دائماً عنقى
ولا ذكرتك إلا بت مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقى

بنى مدينة القصر القديم سنة ١٨٥ على ثلاثة أميال من القيروان ، وسماها العباسية ولها الآن بقايا آثار تعرف بقصور الأغالبة .

وفى هذه المدة كان سفيان بن أبى المهاجر عاملا على طرابلس من مدة هرثمة فأقره إبراهيم بن الأغلب . ويظهر أن أهل طرابلس كانوا غير راضين عن

سفيان بن أبي المهاجر فدبروا الثورة ضده ، وثاروا عليه سنة ١٨٩ بزعامة إبراهيم ابن سفيان التميمى ، وأخرجوه من داره ، وقتلوا أصحابه ، وأمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج .

إبراهيم بن سفيان التميمى

وولى أهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمى ، وما كان إبراهيم الأغلب ليقر هذا العمل من أهل طرابلس ، فهاجم طرابلس ، واستولى عليها ، وقبض على إبراهيم بن سفيان ، فعاهده على الطاعة ، فعفا عنه ، وأقره على عمله بطرابلس .

وذكر صاحب النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٢٥ كلامًا يناسب هذا الموضوع ، وهذا نصه :

فى سنة ١٨٨ استنجد إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية بأحمد بن إسماعيل والى مصر فأنجده بالعساكر .

وسبب ذلك أن أهل طرابلس الغرب كان قد كثر شغبهم على ولاتهم ، وكان إبراهيم بن الأغلب قد استعمل عليهم عدة ولاة ، فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ويولى غيرهم ، إلى أن استعمل عليهم سفيان بن المضاء وهى ولايته الرابعة ، فاتفق أهل البلد على إخراجه عنهم وإعادته إلى القيروان فزحفوا إليه ، فأخذ سلاحه ، فقاتلهم هو وجماعة ممن معه ، فأخرجوه من داره ، فدخل الجامع وقاتلهم فيه ، فقتلوا من أصحابه جماعة ، ثم أمنوه فخرج عنهم فى شعبان من هذه السنة ، وكانت ولايته سبعة وعشرين يومًا . واستعمل جند طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمى . ثم وقعت أيضًا بين الأبناء[1] بطرابلس وبين قوم يعرفون ببنى أبى كنانة وبنى يوسف حروب كثيرة ؛ حتى فسدت طرابلس ، فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية ، فاستنجد بأحمد بن إسماعيل أمير مصر ، وجمع جمعاً كبيراً ، وأمرهم أن يحضروا بنى أبى كنانة والأبناء[1]

(١) تكررت كلمة الأبناء فى الموضعين وهى غير واضحة المعنى .

وبنى يوسف ، فأحضروهم عنده بالقيروان فأراد قتلهم ، فسألوه العفو عنهم فى الذى فعلوه فعفا عنهم ، وعادوا إلى بلادهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة . ا ى ﻫ وهو كلام صاحب النجوم الزاهرة .

ويظهر أن سفيان بن المضاء هو سفيان بن أبى المهاجر . ونسب صاحب النجوم الزاهرة هذه الواقعة لسنة ١٨٨ . ويفهم من كلام غيره أنها وقعت سنة ١٨٩ .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

كنيته أبو العباس . ولاه والده على طرابلس سنة ١٩٦ ، فثار به جندها فأخرجوه منها ، ثم جمع لهم من انضم إليه من البربر وغيرهم ، وأعاد الكرة عليهم فغلبهم واستولى على طرابلس ، ولكن والده ما لبث أن عزله وولى بدله سفيان بن أبى المهاجر للمرة الثانية .

سفيان بن أبى المهاجر

هذه هى المرة الثانية يتولى فيها عمل طرابلس ، إلا أنه فى المرة الأولى كان معيناً من قبل هرثمة بن أعين ، أما فى المرة الثانية فكان معيناً من قبل إبراهيم ابن الأغلب .

وكانت قبيلة هوارة البربرية قبيلة كبيرة ، كثيرة الأفخاذ ، ذات جموع كثيرة ، تحيط منازلها بطرابلس من كل جهة . وكان ما بين المدينة وجبل نفوسة قرى ودساكر متصلة العمران . وكانت قبيلة هوارة إباضية المذهب ، وأكثرها خاضع لحكم أبى منصور صاحب جبل نفوسة الذى كان تابعاً لإمامة الإباضية بتيهرت ، وبعضها خاضع لحكم الأغالبة بمدينة طرابلس . وقد وقع بينهم وبين عامل الأغالبة بطرابلس خلاف أدى إلى تعصبهم عليه ، وأرادوا أن

ينتهزوا فرصة ليستولوا على مدينة طرابلس ويجعلوها تابعة لصاحب جبل نفوسة فثاروا عليه سنة ١٩٦ ، فخرج إليهم بعسكره ، والتقى بجموعهم فى وادى الرمل ، فتغلبوا عليه ، ورجع الجند إلى طرابلس منهزمين ، فتبعته هوارة وحاصروا المدينة ثم اقتحموها عليه فخربوها وهدموا أسوارها . قال ابن خلدون : وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب . وبلغ الخبر إبراهيم بن الأغلب بتونس ، فأرسل ابنه عبد الله فى جيش كبير[1] ، فاسترد المدينة من هوارة وجدد السور . . .

ولم تهدأ ثائرة هوارة . وإزاء ما لاقوه من شدة عبد الله الأغلب استغاثوا بعبد الوهاب بن رستم إمام الإباضية بتيهرت . وللعلاقة المذهبية بينهم لم يسعه إلا تلبيتهم ، واجتمع عليه هوارة وقبائل نفوسة وكثير من قبائل البربر ، وحاصروا ابن الأغلب فى المدينة ، وقد بذل كل جهده فى الاحتفاظ بها ، فسد باب زناتة وصار يدافع من باب هوارة المعروف الآن بباب المنشية ، وفى أثناء حصار المدينة قتل مهدى النفوسى .

قال فى كتاب السير للشماخى عند ذكر هذه الحادثة ما نصه :

« وهناك مات مهدى النفوسى ، وذلك أنه خرج من المعسكر إلى شاطئ البحر ، فسبحوا إليه حين أبصروه منفرداً فمسكوه وقطعوا رأسه . قال أبو زكريا : إذا قالوا له انهزم المسلمون تعبس، وإذا قالوا له انهزمت المسودة انبسط وجهه وتبسم[2] » . ويعنى بالمسلمين الإباضية ، ويعنى بالمسودة عسكر العرب .

---

(١) فى المنهل العذب : فى ثلاثة عشر ألفاً.

(٢) ذكر هذه القصة أيضاً سليمان باشا البارونى فى كتابه « الأزهار الرياضية » ولم يعلق عليها بغير قوله: « وإن لله خرق العوائد فلا غرابة » . يعنى سليمان باشا لا غرابة فى أن وجه مهدى النفوسى ، بعد أن قطع رأسه ، يضحك إذا قيل له انتصر الإباضية ، ويعبس إذا قيل له انهزموا . وأعتقد أن هذه خرافة نقلت بدون تمحيص ، والحامل على اختراعها الغلو فى رفع شأن مهدى النفوسى . وإن دلت هذه الخرافة وغيرها على شىء فإنما تدل على الطعن فى رواية الأخبار . وقلة التحرى فى نقلها . . . أما الأستاذ الشماخى فلم يعلق عليها بشىء .

وفى أثناء حصار عبد الله بن الأغلب فى طرابلس بلغه وفاة أبيه إبراهيم[١] ، فصالح ابن رستم على أن تكون المدينة — داخل السور — والبحر لعبد الله الأغلب وخارج السور إلى سرت لعبد الوهاب بن رستم . وبهذا أصبحت جميع الأراضى الطرابلسية داخلة تحت حكم الإباضية ما عدا المدينة داخل السور فبقيت تحت حكم عبد الله بن الأغلب .

وأقر ابن الأغلب على طرابلس سفيان بن أبى المهاجر للمرة الثالثة ورجع إلى القيروان سنة ١٩٧ وسلم له أخوه زيادة الله الأمر وولى عهد أبيه .

وكانت وفاة إبراهيم بن الأغلب فى شوال سنة ١٩٦ ، وعمره ست وخمسون سنة ، وولايته اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر .

ولم يستقم أمر عبد الله بن الأغلب بعد أبيه لأنه كان سيئ السلوك جائراً فى الحكم ، وقد وعظه بعض الأخيار من علماء زمانه فلم يتعظ ، فدعوا عليه فقبل الله منهم ، فخرجت له قرحة تحت أذنه فمات منها ليلة ١٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ ودامت ولايته خمسة أعوام وشهراً .

زيادة الله بن الأغلب

هو زيادة الله بن إبراهيم ، بن الأغلب . وكنيته أبو محمد ، وهو زيادة الله الأول[٢] تولى ولاية إفريقية فى عهد المأمون بن الرشيد ، وبويع له يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٢٠١ بعد وفاة أبيه بأيام ، وجاءه التقليد من المأمون ، وكان أعلم أهل بيته ، فأحسن والده تربيته ، وشغل مجلسه بالعلماء ، فبرع فى العربية وآدابها . وحظيت إفريقية فى أيامه بحظ وافر من العمران حتى بلغ خراجها ثلاثة عشر ألف مليون من الدراهم[٣] . وقد ابتلى بما يبتلى به

---

(١) لما مات إبراهيم بن الأغلب عهد بالإمارة لابنه عبد الله وكان إذ ذاك فى طرابلس وأمر ابنه زيادة الله أن يقوم بالأمر إلى أن يأتى أخوه عبد الله من طرابلس .

(٢) له حروب كثيرة أعرضنا عن ذكرها .

(٣) خلاصة تاريخ تونس .

الأمراء من اللهو والاسراف فى الملذات ، فساءت سيرته مع جميع الناس حتى مع جنده فثاروا عليه . . وفى سنة ٢٠٢ هرب أخوه الأغلب إلى المشرق خوفاً منه . واتخذ زيادة الله الأغلبَ بن عبد الله غلبون وزيراً له .

وزيادة الله هذا هو الذى أسند قضاء إفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالك بن أنس، ولاه قيادة الجيش الذىأرسله لغزو صقلية، وفتحها سنة ٢١٢[١]
وفى صقلية يقول ابن حمديس :

ذكرت صقلية والهـوى   يهيّج للنفس تذكارهـا
فإن كنت أخرجت من جنة   فإنى أحـدث أخبـارها

وضاق الناس ذرعاً باستهتار زيادة الله ، وثارت عليه جميع النواحى ، وتقلص حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان فتمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية وكان يشعر بإسرافه فى المعاصى فيسلى نفسه بقوله : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيان جامع القيروان . وقنطرة أبى الربيع . وحصن مدينة سوسه . وولاية أحمد بن أبى محرز قضاء إفريقية » .

توفى زيادة الله يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجبَ سنة ٢٢٣ ، وعمره إحدى وخمسون سنة . ودامت ولايته إحدى وعشرين سنة ، وسبعة أشهر ، وثمانية أيام .

---

(١) أول من غزا صقلية فى الإسلام عبد الله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج فى خلافة معاوية بنأبى سفيان . ثم محمد بن أبى إدريس الأنصارىأيام يزيد بن عبد الملك. ثم بشر بن صفوان الكلبى أيام هشام بن عبد الملك . ثم حبيب بن أبى عبيدة سنة١٢٢ . ووصل فى فتوحه إلى سرقسطة وهى دار الملك،وأخذ الجزية من أهلها ورجع إلى إفريقية . ثم عبدالرحمن بن حبيب سنة١٣٠ ثم أسد بن الفرات زمن زيادة الله بن الأغلب . وتوفى أسد بن الفرات سنة ٢١٣ .

الأغلب بن إبراهيم

هو أخو زيادة الله الأول . ولقبه أبو عقال . ويقال له جزر . . تولى بعد أخيه زيادة الله ، وأبقى سفيان بن أبى المهاجر عاملا على طرابلس . وثارت عليه قبائل زواغة ولواتة من برابر طرابلس ، وقتلوا سفيان بن أبى المهاجر عامله على طرابلس . وما زال بالثوار حتى تغلب عليهم . وكان حسن السيرة . توفى ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ٢٢٦ .

محمد بن الأغلب

كنيته أبو العباس ، ولى بعد أبيه أبى عقال . وهو الذى أسند قضاء إفريقية إلى الإمام سحنون سنة ٢٣٤ [1] ، وأسند قضاء طرابلس إلى شرحبيل . وفى زمن غير معلوم أسند قضاؤها إلى أبى العباس بن بطريقة من أصحاب سحنون .

توفى محمد بن الأغلب لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٤٢ ، ودامت ولايته خمس عشرة سنة ، وثمانية أشهر ، واثنى عشر يوماً . وعمره ست وثلاثون سنة .

---

(١) سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠ ، وتلقى العلم بإفريقية عن على بن زياد وأسد بن الفرات ، ثم توجه إلى المشرق سنة ١٨٨ فزار مصر والحجاز والشام ، وأخذ الفقه عن عبد الرحمن بن القاسم ، وابن الماجشون ، ووكيع بن الجراح وغيرهم وعاد إلى القيروان سنة ١٩١ ، فأظهر بها علم أهل المدينة ، ومذهب مالك ، وهو أول من ثبته فى إفريقية . ولما اشتهر سحنون خاطبه الأمير أبو العباس فى إسناد قضاء إفريقية إليه . وبعد امتناع منه دام نحو سنة لم يسعه -إزاء إلحاح الأمير- إلا القبول على شروط ، منها إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم ، وأن يطلق يده فى جميع الناس فقال الأمير : « نعم : لاتبدأ إلا بهم ، وأجر الحق على مفرق رأسى » . وأحدث تقليداً فى القضاء ، فأنشأ وظيفة صاحب المظالم يفصل فى القضايا الصغيرة ويجالس إلى الناس فى الأسواق والمجتمعات تسهيلا عليهم ، وطلباً للسرعة فى حل النزاع . وكانت الحسبة تابعة للأمراء فأحيلت فى عهد سحنون إلى القضاة ، وهى أشبه بالشرطة البلدية . ولشدة تمسكه بالعدالة سمى « سراج القيروان » ولم يمنعه القضاء من بث العلم ، فقد جاء إليه طلبته من الأندلس وجميع أقطار إفريقية تخرج عليه نحو سبعمائة رجل . وكان يدرس بجامع عقبة بالقيروان . وألف كتاباً كبيراً فى مذهب مالك سماه المدونة الكبرى . . توفى يوم ٦ من رجب سنة ٢٤٠ فى دولة محمد بن الأغلب . ودفن بالقيروان . وقبره هنالك معروف

أحمد بن محمد الأغلب

كنيته أبو إبراهيم . ولى إفريقية بعد وفاة أبيه محمد سنة ٢٤٢[١] . وكان حسن السيرة .

عبد الله بن محمد الأغلب

ولاه أخوه أحمد عاملا على طرابلس . . وفى سنة ٢٤٥ ثار برابرة طرابلس على أحمد الأغلب . ومنعوا عليه العشور والصدقات التى كانوا يؤدونها . وحاصروا أخاه عبد الله فى طرابلس ، فجلا عنها إلى لبدة وتحصن بها . وكاتب أخاه فى القيروان ، واتفقا على أن يرسل كل منهما جيشاً للإطباق على طرابلس من الشرق والغرب ، وكان جيش القيروان بقيادة أخيهما زيادة الله ، ووقع البربر بين جيشين ، والتحم الفريقان فى معركة كانت حامية دامية ، فهزم البربر ، وقتل منهم خلق كثير ، وطاردتهم الخيل فقتلت من أدركته ، وأسر كثير منهم فضربت أعناقهم ، واستولى على معسكراتهم ، فأذعن من أفلت منهم من الموت وقدم الطاعة .

توفى أحمد يوم الثلاثاء الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٢٤٩ . وعمره ثمان وعشرون سنة . ودامت ولايته سبع سنين ، وعشرة أشهر ، وسبعة أيام .

زيادة الله الأغلب

هو زيادة الله بن محمد الأغلب . وهو زيادة الله الثانى . تولى بعد أخيه أحمد[٢] . وتوفى فى آخر ذى القعدة سنة ٢٥٠ . ودامت ولايته عاماً وسبعة أيام ولم يكن له من الأعمال ما يستحق الذكر .

---

(١) فى خلاصة تاريخ تونس : بويع بعد وفاة عمه أبى العباس .

(٢) فى خلاصة تاريخ تونس : بويع بعد وفاة أبيه أبى إبراهيم .

محمد بن أحمد الأغلب

هو أبو الغرانيق . تولى بعد وفاة عمه زيادة الله . وكان جواداً إلى حد الإسراف ، حسن السيرة ، ثم غلب عليه لهو الأمراء . . ولقب بأبي الغرانيق – وهي نوع من الطيور – لشغفه بصيدها . . فتح جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ . وأسر ملكها .

وفي أيامه اجتمع الشاعر المشهور أبو القاسم المالطي ، وعبد الله بن السملطي المالطي ، وكانت لهذا الأخير براعة في صناعة الشعر ، فقال أبو القاسم لعبد الله: أجز هذا المصراع [١] .

جارية ترعى الصنج

فقال عبد الله من فوره :

بها القلوب تبتهج
كأن من أحكمهـــا إلى السماء قد عرج
وطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وعين محمد بن قهرب عاملا على برقة . . وبنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر ، على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب . وما زالت آثارها باقية إلى اليوم ، وقد احتفظت له الأيام بإطلاق اسمه على بئر شرقي اليهوديات بأرض سرت ما زالت تسمى « أم الغرانيق » [٢]. توفي في اليوم السابع من جمادى الأولى سنة ٢٦١ . ومدة ولايته عشر سنوات ، وخمسة أشهر ونصف .

---

(١) المصراع من بيت الشعر هو إحدى شطرتيه .

(٢) تقع شرقي سرت بنحو ١١٧ كم . وغربي العقيلة بنحو ٣٨ كم .

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب . وهو إبراهيم الأصغر ، ولد يوم عيد الأضحى سنة ٢٣٠ ، وتولى بعد أخيه أبى الغرانيق . وكان أبو الغرانيق أوصى لابنه بالإمارة ، وأن يكون أخوه إبراهيم وصيًّا عليه إلى أن يكبر ، ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة .

وفى أيام إبراهيم هذا غزا العباس بن أحمد بن طولون إفريقية لأخذها من الأغالبة . وقد ذكر بعض المؤرخين أن برقة كانت فى سنة ٢٦١ تابعة لأحمد ابن طولون بمصر ، وعليها محمد بن فرج الفرغانى عاملا عليها من قبله، فثار به أهلها فى هذه السنة وأخرجوه منها، ونقضوا عهد ابن طولون ، فأرسل إليهم جيشاً مع غلامه لؤلؤ ، وأمره بملاينتهم ، فلم تفلح الملاينة ، وأرسل إلى ابن طولون بخبرهم ، فأمره بالاشتداد عليهم ، فضيق عليهم الحصار ، ونصب عليهم المجانيق ، فسلموا إليه ، ودخل البلد ، وقبض على جماعة من أهلها ، وفظع فى قتلهم ، واستعمل عليهم أحد الموالى ورجع إلى مصر ، وكان ذلك قبل خلاف العباس على أبيه .

وقد تقدم أن أبا الغرانيق بنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب ، ويفهم من هذا أن برقة كانت تابعة لأبى الغرانيق . وسيأتى أن ابن طولون افتك برقة من ابن قهرب عامل الأغالبة فيها وهذا يتنافى مع أنها كانت تابعة لابن طولون . اللهم إلا إذا قلنا إن ابن طولون كان يملك الجزء الشرقى من برقة مما يلى الحدود المصرية، وأن أبا الغرانيق كان يملك الجزء الغربى من برقة : أجدابية وما والاها .

العباس بن أحمد بن طولون

قدم العباس بن أحمد بن طولون من مصر سنة ٢٦٧ أيام إبراهيم بن الأغلب آنف الذكر إلى إفريقية لأخذها من الأغالبة . . . ذلك أن العباس حصل بينه وبين والده أحمد ملك مصر نفور ، وكان أبوه استخلفه على مصر لما توجه إلى حصار سيا بأنطاكية فانتهز فرصة غياب والده وأخذ ما فى بيت مال مصر من الأموال ، وما كان لأبيه من الآلات وغيرها ، وتوجه إلى برقة . هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة ، ونسب الواقعة إلى سنة ٢٦٥ .

وقال غيره : خرج مغاضبًا لأبيه إلى إفريقية لاغتصابها من بنى الأغلب ، ولينشئ فيها ملكاً بعيداً عن والده ، فأخذ معه ثمانمائة فارس ، وعشرة آلاف راجل ، وخمسة آلاف جمل . وأخذ معه من خزائن مصر ثمانمائة حمل جمل من الدنانير الذهب ، وسار إلى إفريقية . . . وقد أشار عليه أحمد بن محمد الكاتب — وهو أحد رجالاته المخلصين له — بالتأخر حتى يصانع البربر ويجعل له فيهم يداً ، فلم يسمع لقوله ، وأرغمه على السير معه . وأغذ فى السير ليدرك إفريقية قبل أن تلحق به خيل والده ، وقبل أن يتمكن بن الأغلب من الاستعداد للقائه ... ومر ببرقة فى ربيع الآخر فافتكها من ابن قهرب عامل الأغالبة ، وفر ابن قهرب إلى تونس ، وتلبث ابن طولون فى برقة حتى رتب أموره وهيأ جنده وسار إلى طرابلس .

وكان ابن قهرب قد وصل إلى تونس وأخبر إبراهيم بن الأغلب بما حصل ، فاستعد للقاء بن طولون، وجهز جيشاً من ألف وستمائة فارس خيلا جرداً لا راجل معها بقيادة ابن قهرب ، وأدرك به طرابلس قبل أن يصلها ابن طولون ، وجمع من جيشها وبربرها جيشاً وسبقه إلى لبدة .

ووصل ابن طولون فى جيش جرار ، فالتقى به بن قهرب شرقى لبدة بنحو ١٥ كم ، وانجلت المعركة عن هزيمة بن قهرب ، وطاردته خيل ابن طولون

إلى طرابلس فتحصن بها . . . ولما مرّ ابن طولون بلبدة خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه ، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام ، فأمر بنهبها فنهبت على غرة ، وقتل رجالها ، وانتهكت حرماتها . . وفى هذه المعركة يقول ابن طولون مفتخراً . :

لله دَرى إذ أعدوا على فرسى — إلى اللقاء ونار الحرب تستعرُ
وفى يدى صارمٌ أفرى الرؤوس به — فى حده الموتُ لا يبقى ولا يذرُ
إن كنتِ سائلةً عنى وعن خبرى — فها أنا الليثُ والصّمصامة الذكرُ
من آل طولون أما إن سألت فما — فوقى لمفتخر بالجود مفتخرُ
لو كنت شاهدةً كرى بلبدة إذ — بالسيف أضربُ والهاماتُ تبتدرُ
إذاً لشاهدت منى ما تناقله — عنى الأحاديث والأنباء والخبرُ

وحاصر ابن طولون طرابلس ثلاثة وأربعين يوماً لا يقدر منها على شىء ، ونصب عليها المجانيق ، وقطع عليها السبل .

وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادى الذين يسكنون خارج المدينة وكانوا من البربر الإباضية ومن أتباع الياس أبى منصور النفوسى صاحب جبل نفوسة ونالوا من حرماتهم وأموالهم ، فاستغاثوا به من ظلم جيش ابن طولون .

إلياس أبو منصور

إلياس أبو منصور صاحب جبل نفوسة ورئيس الإباضية به ، وهو من بلدة تندميره ، وكان غير خاضع لحكم الأغالبة ، بل كان يدين بالطاعة لإمام الإباضية بتيهرت . وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس : « أن أقبل بسمعك وطاعتك ، وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى ، وأبحت حرمك » فرد عليه إلياس : « أما إنك أقرب الكفار منى ، وأحقهم بمجاهدتى ، فقد بلغنى من قبيح أفعالك ما لا يسعنى التخلف معه عن جهادك ، وأنا على إثر رسالتى إليك[١] » . . فجهز جيشاً من اثنى عشر ألف مقاتل ، والتقى بابن

(١) الأزهار الرياضية للشيخ سليمان باشا البارونى .

بابن طولون فى قصر حاتم[1] سنة ٢٦٧ ، فهزم ابن طولون ، وتشتت شمله ، واستبيحت أمواله ، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد . ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم ، ولا يستبيحونها فى حال السلم . . .ورجع ابن طولون إلى المشرق مهيض الجناح محطم الآمال[2] ، وأرسل إليه والده جيشاً فى طلبه فتفرق عنه أصحابه ، وقبض عليه وأرسل إلى والده مقيداً .

وجاء إبراهيم بن الأغلب من تونس فى جيش عظيم لملاقاة ابن طولون ، فوجده قد انكسر جيشه ، ورجع إلى المشرق . . وبحث ابن الأغلب عن أموال ابن طولون فأخذها ممن وجدت عندهم ، وكان الجندى يبيع دنانير ابن طولون سراً بأى ثمن خوفاً من وجودها عنده .

وبعد أن انتهت حرب ابن الأغلب مع ابن طولون ، بقى بن قهرب فى طرابلس . إلا أن البربر ما زالوا غير مطمئنين إلى حكم الأغالبة فى طرابلس ، وكان أكثر بواديها يدينون بالطاعة لحاكم جبل نفوسة . . فأعادوا الثورة على طرابلس سنة ٢٦٩ وقتلوا بن قهرب عامل الأغالبة ، واشترك فى الثورة هوارة ولواتة . وقد أرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله فى جيش ، فتغلب عليهم ، وأمعن فى قتلهم واستولى على طرابلس ولم يعبر أحد باستيلاء البربر على طرابلس فى هذه المرة وقد يفهم هذا من سياق الكلام . . وأعادوا الثورة فى سنة ٢٨٠ فهزمهم أيضاً .

وفى رجب سنة ٢٨١ انتقل إبراهيم بن الأغلب إلى تونس للإقامة بها . . ولم ينس ابن الأغلب اعتداء ابن طولون عليه ، فهو ما زال يفكر فى الانتقام منه وقد اعتزم الأمر فى غزوه فى مصر . وفى المحرم سنة ٢٨٣ جهز جيشاً وخرج من تونس لعشر خلون من المحرم ، فأقام برقّادة إلى سبع بقين من صفر ، ثم خرج بجميع من معه قاصداً غزو ابن طولون فى مصر ، ووصل إلى قابس فى ربيع الأول ، فاعترضته نفوسة فى قصر مانو لتمنعه من الذهاب إلى ابن طولون .

---

(١) قبيلة الحواتم ما زالت معروفة إلى الآن ، وتنسب إلى ترهونة ، ووادى الحواتم معروف ينسب إليهم . وبه بقايا أبنية لا يبعد أن تكون بقايا قصر حاتم .

(٢) ذكر فى المنهل العذب زيادات لا فائدة من ذكرها .

ويبدو أن معارضة نفوسة لابن الأغلب ليست من مصلحتها فى شىء ، بل المصلحة فى ذهابه ، لأنه سيذهب فى جيش كبير يكلفه نفقات كبيرة ، وهذا مما يضعف ابن الأغلب ويسهل على نفوسة الثورة عليه إن أرادوا . ولذلك فقد عارض الفكرة كثير من أعيانهم منهم أفلح بن العباس ، وسعد بن أبى يونس عامل قنطرارة : — تيجى — ومعبد الجنّاونى ، ولكن رجحت كفة الأكثرية .

وتجمعت جيوش البربر فى قصر مانو ، وهو قصر قديم على ساحل البحر بقرب قابس ، وكانوا زهاء عشرين ألفاً ، فهزمهم ابن الأغلب هزيمة منكرة . قال فى الأزهار الرياضية[1] . « فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعاً ، وتطارح منهم فى البحر بشر كثير ، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء » . ثم قال : « وقد فل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت فيها أبطالهم ، وأبقت فيهم ثلمة عظيمة ، وهى المصيبة الكبرى التى تضعضع بها ركن الإمامة بتيهيرت إذ كانوا حصنها المنيع . ولما ضعفوا أخذت فى التقهقر وطمع الأعداء فيها حتى اضمحل أمرها » . ولم تثن هذه المعركة الهائلة من عزم ابن الأغلب ، بل ظل على عزمه على غزو ابن طولون ، فسار إلى طرابلس ، وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله . وسبب ذلك أن المعتضد بالله العباسى كتب إلى إبراهيم يعنفه على أعماله فى تونس ، وقال له : إن لم تنته فسلم الأمر إلى محمد بن عمك زيادة الله ، وقد رأى فى هذا تهديداً له بابن عمه ، فقتله خوفاً أن يعزله المعتضد ويوليه مكانه .

وسار إبراهيم فى جيشه من طرابلس إلى تاورغه ، وهناك قتل خمسة عشر رجلا وأمر بطبخ رؤوسهم ، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه فارتاع الجند لذلك ، وقالوا إنه خولط فى عقله ، فلما رأى ذلك خاف انصراف الجند عنه فرجع إلى تونس .

---

(١) الأزهار الرياضية ، فى أئمة وملوك الإباضية للشيخ سليمان باشا البارونى ، وقد ذكر أن كثيراً من رجالات نفوسة لم يوافقوا على معارضة ابن الأغلب ، وقد ذكرنا بعضهم . وبسبب هذه المخالفة نزلت بهم تلك الكارثة العظيمة .

وفى سنة ٢٨٩ أرسل ابنه عبد الله لغزو إيطاليا . . وبنى إبراهيم الحصون والمحارس على الساحل ، حتى كانت النار توقد فى سبتة بالمغرب للإنذار بمجىء العدو ، فتوقد فى تلك الليلة بالإسكندرية .

وهو الذى أسند قضاء طرابلس إلى موسى بن عبد الرحمن أبى الأسود المعروف بالقطان . صحب محمد بن سحنون وسمع منه . وكان يحسن المسائل والتكلم فى الرأى على مذهب مالك وأصحابه . ولاه إبراهيم بن أحمد قضاء طرابلس فبغى وآذى فعزله وحبسه فى الكنيسة دهراً ثم أطلقه .

وقد أصيب إبراهيم – بعد ستة أعوام من ولايته كان فيها مثال الاستقامة – بحالة عصبية جنونية أتى فيها أعمالاً لا تتفق مع العقل ولا مع الإنسانية ، فكان يكثر القتل فى أقاربه ، وأبنائه ، وإخوته ، وخدمه ، وأنصاره : فقد قتل ابنه بين يديه صبراً ، وقتل ثمانية إخوة له ضربت أعناقهم بين يديه . وقد ولدت له بنات أخفتهن عليه أمه خوفاً عليهن من القتل ، وربتهن من غير أن يشعر بوجودهن ، حتى اجتمع عندها ست عشرة بنتاً كأنهن البدور . وقد رأت منه أمه مرة انشراحاً فى نفسه وهدوءاً فى أعصابه ، فرأت – لهذه المناسبة – أن تزيده سروراً وانشراحاً ، وظنت أن علمه بهؤلاء البنات خير وسيلة لذلك ، فقالت له : يا سيدى لقد ربيت لك وصائف ملاحاً ، وأحب أن تراهن ، فقال نعم ، فأتت بهن له ، وسمتهن له واحدة واحدة حتى عددتهن له ، وبعد انتهاء المجلس أخذتهن معها وخرجت ، وكان ثمن هذه المقابلة حياة هؤلاء الفتيات الست عشرة ، فإن أمه ما كادت تغيب عنه ومعها البنات حتى قال لخادم له أسود – وكان بجواره – : اذهب إليهن وائتنى برؤوسهن ، فبهت الخادم ، فراجعه ، فهدده بالقتل إن لم يفعل ، فذهب الخادم بالخبر إلى أمه ، ، فذهلت وكادت تصعق ، وأمرت الخادم أن يراجعه ، فأفهمها ألا فائدة من المراجعة ، فذهب إليهن الأسود وقتلهن الست عشرة ، وأتى برؤوسهن معلقة من شعورها ، وطرحها بين يديه . . ولا ندرى أى المجرمين أقسى من صاحبه قلباً : أ إبراهيم

الذى قسا قلبه وتحجرت عواطفه ، أم ذلك الأسود الذى كان أقسى جلاد على أولئك الفتيات الوادعات .

توفى إبراهيم ليلة الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٢٨٩ وعمره اثنتان وأربعون سنة وولايته ٢٨ سنة ، وستة أشهر واثنا عشر يوماً .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

هو عبد الله الثانى ، وكنيته أبو العباس ، ولى بعد أبيه إبراهيم . وكان شجاعاً عاقلا . وفى سنة ٢٨٤ — فى حياة والده — خرج لمحاربة نفوسة ، فقتل منهم كثيراً وأسر نحو ثلاثمائة ، ولما رجع بهم إلى والده إبراهيم قتلهم عن آخرهم وشق على قلوبهم فأخرجها ، وأخرج بعضها بيده ، ونظمت فى حبال وعلقت على باب تونس ، ولعمرى إنها لقسوة فظيعة .

وقتل عبد الله فى شعبان سنة ٢٩٠ . غدر به الجند فقتلوه وهو نائم ، ويقال إن هذا الغدر كان بإيعاز من ابنه زيادة الله .

زيادة الله بن عبد الله الأغلب

هو زيادة الله الثالث. وكنيته أبو مضر . ولى الحكم بعد قتل أبيه فى شعبان سنة ٢٩٠ واتخذ رقادة عاصمة لملكه ، وعين أخاه أحمد عاملا على طرابلس ، ووقف فى وجوه الثوار حتى تغلب عليهم ، واقتص من قاتلى والده خوفاً من أن يقال إنه متواطئ معهم . وقد ابتلى بحمى اللهو التى تصيب الأمراء دائماً ، واشتغل بما لا يعنى ، فكان ذلك سبباً فى تغلب أعدائه عليه .

وفى أيام زيادة الله هذا أراد الله زوال دولة الأغالبة فأصيبت فى أيامه بالترف والانحلال الخلقى ، وكان هو مثال الانحلال . . . وفى أيامه ظهر أبو عبد الله الداعى لدولة العبيديين وناصرته قبائل كتامة ، فكان ما فيه زيادة الله من الانشغال باللهو والقعود عن واجبات الدولة من أقوى الأسباب التى مهدت

لانتشار دعوة العبيديين . . وقد وقعت حروب بين الداعى وزيادة الله ، كان أشدها واقعة الأُرْبُس من أعمال الكاف بتونس وكانت الهزيمة فيها على زيادة الله ، وقتل أكثر جنده ، ولم يمكنه الصمود أمام هجمات الداعى ، فجمع ماله وولده وهرب إلى مصر فى ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ [1] وترك إفريقية تندب حظها من إهماله وسوء أعماله ، وأرسل إلى أخيه أحمد فى طرابلس فأخذه معه إلى مصر . واحتل أبو عبد الله الشيعى رَقَّادة غرة رجب سنة ٢٩٦ واستولى على أكثر إفريقية . واستولى على مخلفات ابن الأغلب من الأموال والسلاح ، فكان ما جمعه جدّ كثير . وكان لابن الأغلب كثير من الجوارى على جانب كبير من الجمال ، فسأل عمن كان يكفلهن فذكرت له امرأةٌ صالحة كانت لزيادة الله فأحضروها وأحسن اليها وأمرها بحفظهن ، ولم ينظر إلى واحدة منهن ، وأمر لهن بما يصلحهن .

هذا ما فعله أبو عبد الله الشيعى مع جوارى ابن الأغلب .

أما عبيد الله المهدى فإنه لما تسلم مقاليد الحكم عرض جوارى زيادة الله فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده وفرق ما بقى منهن على وجوه كتامه .

اهـ من (اتعاض الحنفاء) .

وكانت ولاية زيادة الله خمسة أعوام ، وأحد عشر شهراً ، وأربعة أيام . وبخروج زيادة الله من إفريقية انتهت دولة الأغالبة . وقد حكمت إفريقية مائة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر . . . وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً ، أولهم مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الأول ، وآخرهم زيادة الله الثالث . والملك لله يؤتيه من يشاء .

قال ابن خلدون : وكان انقراض دولة بنى الأغلب آخر عهد العرب بالدولة والملك فى إفريقية وذهبت ريحهم ، فلم تقم لهم بعد ذلك دولة . . وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى . يدعون إلى الخلفاء الأمويين بالأندلس تارة ، ويدعون إلى الهاشميين من بنى العباس وبنى الحسن تارة أخرى . ثم استقلوا آخر الأمر بالدعوة لأنفسهم اهـ .

---

(١) ثم انتقل إلى فلسطين ومات بالرملة سنة ٣٠٣ أو ٣٠٤ ودفن ببيت المقدس .

الدولة العبيدية
أو دولة العلويين . أو دولة الفاطميين

هى دولة شيعية ، تعظم أهل بيت النبوة وتنتسب إليهم وتنتصر لهم ، وتغالى بعضُ أفرادها فى تعظيمهم إلى درجة لا يقرها الدين الإسلامى ولا العقل السليم . أسسها عبيد الله المهدى سنة ٢٩٦ [١] .

وقد تكلم فيها كثير من علماء المسلمين ، ورموها بالفسق تارة وبالكفر أخرى . وقال فيها ابن تيمية « بقى ولاة القاهرة نحو مائة سنة على غير شريعة الإسلام ، وهم فى الباطن إسماعيلية ، ونصيرية ، وقرامطة وباطنية » [٢] . وقال الغزالى فى الرد عليهم : « ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض . وكانوا ينادون بين القصرين فى مصر : من لعن الصحابة فله دينار وإردب ، وكانوا شر الخلق [٢] » .

ونسبت إلى مؤسسها عبيد الله المهدى فقيل لها الدولة العبيدية ، ودولة العُبيديين : ويقال لها الدولة الفاطمية ، والدولة العلوية . ويقول الأستاذ حسن إبراهيم صاحب كتاب « المعز لدين الله » ، « وعلى أى نسبة فهى إسماعيلية وخلفاؤها قاطبة إسماعيليون » . وقد نفى ابن حزم فى جمهرة الأنساب شرف العبيديين وقال : هذه دعوى مفتضحة ، وكذب فاحش .

ويقول ابن الوردى فى تاريخه ما نصه :

أسست دولة العلويين فى إفريقية سنة ٢٩٦ .

ومؤسسها هو : أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد

---

(١) دامت الدولة العبيدية إلى المحرم سنة ٥٦٧ . وبقيت فى الحكم ٢٦٩ سنة وثمانية أشهر ، وأحد عشر يوماً ، منها أربع وستون سنة وشهر فى إفريقية . والعبيديون : ينسبون إلى أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدى ، بن محمد الحبيب ، بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام ، ابن جعفر الصادق

ويقول ابن خلدون : ولا يلتفت لإنكار هذا النسب . وله على صحته حجج ، ويجرح فى رواية من ينكره أو يقدح فيه . وقد ذكر فى الجزء الثالث ص ٣٦٠ ما يؤيد به رأيه .

(٢) انظر تاريخ ابن غلبون « التذكار »

ابن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ..
وقيل هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن محمد إلخ .

واختلف العلماء فى نسبه ، فمن قال بإمامته قال نسبه صحيح ومن العلويين من وافق عليه ، ومنهم الشريف الرضى .

وقيل نسبهم مدخول ، وبالغ قوم حتّى جعلوا نسبهم فى اليهود ، فقالوا لم يكن اسم المهدى عبيد الله ، بل كان اسمه سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح ابن ميمون بن ديصان... وقيل فيه سعيدبن الحسين ، وأن الحسين المذكور قدم سَلَمْيَة[1] ، فجرى بحضرته حديث النساء ، فوصفوا له امرأة يهودى حدّاد بسلمية مات زوجها ، فتزوجها الحسين بن محمد المذكور بن أحمد بن عبد الله القداح ، وكان للمرأة ولد من اليهودى فأحبه الحسين وأدبه ، ومات الحسين ولا ولد له ، فعهد إلى بن اليهودى الحداد ، وهو المهدى عبيد الله ، وعرفه أسرار الدعوة ، وأعطاه الأموال والعلامات فدعا له الدعاة .

واختلف كلام المؤرخين وكثّر فى قصة عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان ، قالوا : إن ابن ديصان المذكور هو صاحب كتاب (الميزان) فى نصرة الزندقة ، وكان يظهر التشيع لآل البيت رضى الله عنهم ، ونشأ لميمون ابن ديصان ولد اسمه عبد الله القداح كان يعالج العيون بالقدح ، وتعلم من أبيه ميمون الحيل ، وأطلعه أبوه على أسرار الدعاة لآل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم سار القداح من نواحى كرج وأصفهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض حمص يدعو إلى آل البيت ، ثم توفى القداح وقام ابنه أحمد ، وقيل محمد ، مقامه ، وصحبه رستم بن الحسين بن حوشب بن زاذان النجارى من أهل الكوفة ، فأرسل أحمد إلى الشيعة باليمن يدعو إلى المهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، فسار رستم إلى اليمن ودعا الشيعة فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشيعى الحسين بن أحمد ابن محمد بن زكرياء من صنعاء ، وقيل من الكوفة ، وسمع بقدوم ابن حوشب إلى اليمن وبدعوته ، فسار أبو عبد الله الشيعى من صنعاء

---

(١) قال في الروضتين جـ ١ ص ٥١٠ : لا تزال معقلا من معاقل الإسماعيلية الرئيسية .

إلى ابن حوشب وكان بعدن ، فصحبه واختص به . وكان لابى عبد الله الشيعى علم ودهاء ، وكان قد أرسل ابنُ حوشب قبل ذلك الدعاة إلى المغرب ، وقد أجابه أهل كتامة ، ولما رأى ابن حوشب علم الشيعى ودهاءه أرسله إلى المغرب إلى أهل كتامة ، وأرسل معه جملة من المال ، فسار الشيعى إلى مكة واجتمع بحجاج المغاربة من كتامة فرآهم مجيبين إلى ما يختاره ، فسار معهم إلى كتامة فقدمها منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠ .

صورة محضر كتب فى بغداد بأمر القادر سنة ٤٠٢ يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر. وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة والفضلاء ، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة .

ونص المحضر : منقول من تاريخ أبي الفداء ج٢ ص١٤٢ وتاريخ ابن الوردى.

« هذا ما شهد به الشهود أن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد منتسب إلى ديصان بن سعيد الذى ينسب إليه الديصانية ، وأن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار ، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ، لا أسعده الله ، وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس .

ابن الوردى

عليهم لعنة الله ولعنة اللاّعنين ، أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه زور باطل ، وأن هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ، ملحدون معطلون ، وللإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء ، وادّعوا الربوبية ، وتضمن المحضر نحو ذلك أضربنا عنه . وفى آخره : وكتب فى ربيع الأول سنة ٤٠٢ .

وأكبر داعية لدولة العبيديين هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد ابن زكريا الصنعانى المعروف بالشيعى القائم بدعوة عبيد الله المهدى جد ملوك الدولة الفاطمية الذين كانوا فى مصر .

خرج من صنعاء إلى عدن ، فلقى فيها رستم بن الحسين بن حوشب النجار الذى ذهب إلى اليمن يبث فيها دعوة المهدى ، فصحبه الحسين وصار من أكبر أصحابه . وهذا أول أمره فى الدعوة . وله سيرة طويلة . انظر وفيات الأعيان.

وهو الذى نشر دعوة الدولة العبيدية ، ومهد لها ، وحارب من أجلها . وهو من الدهاة المفكرين ، ولهذا فهى أسست بدعوة الدين بخلاف ما تقدمها من الدول .

عبيد الله المهدى[1]

هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها . وهو عراقى الأصل ، ولد فى الكوفة سنة ٢٦٠ ، واختبأ فى بلدة سَلَمْيَة بؤرة الإسماعيلية الباطنية فى شمال الشام.

ومن يوم أن ولد إلى أن استقر فى سلمية كان يعرف باسم سعيد بن أحمد ، ابن محمد ، ابن عبد الله ، بن ميمون القداح .

وفى منطقة سلمية ومصياف — من بلاد الشام — مات على بن الحسين ، ابن أحمد ، بن محمد ، ابن إسماعيل ، بن جعفر الصادق . وأقام له الإسماعيلية — جماعة أغا خان — مزارات سرية . . . فرسم دعاة الباطنية بعد موته خطة جديدة لدعوتهم قرروا فيها نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحى[2] ، وهو سعيد بن أحمد القداح وقرروا تغيير اسمه من

---

(١) ملخص مما كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب فى مجلة الأزهر عدد جمادي الأولى سنة ١٣٧٣ الموافق ٦ يناير سنة ١٩٥٤ .

وقال فى معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى للمستشرق زانباور : « إنه عبيد الله المهدى ولد سنة ٢٩٥ ، بن عبد الله ، ابن الحسين التقى ، بن أحمد الوفى بن عبد الله الرضا ، ابن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق » وهذا النسب أكثر قرباً من الحقيقة من الأنساب المختلفة انظر ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٢ . »

فعبيد الله المهدى هو أول الخلفاء الفاطميين . والحسين التقى ، وأحمد الوفى ، وعبد الله الرضا ، هؤلاء الثلاثة هم الأئمة المستورون . ومحمد المكتوم هو الملقب بالتام (قائم الزمان) وإسماعيل بن جعفر الصادق هو إمام الإسماعيلية توفى سنة ١٤٥ .

(٢) يفهم من كلام القرامطة فى هذا الموضوع أن التبنى بالنكاح الروحى هو إذن حامل أسطورة الحلول الإلهى لمن يشاء فى حمل لقبه ، لاعتبارات تؤهله لحمل هذا اللقب ، وتجعله خلفاً أو ابناً روحياً له ولو كان من غير نسله ، لأنهم يرون أن الإمامة ليست محتكرة تورث فى عائلة مخصوصة .

سعيد ابن أحمد القداح — وهو اسمه الحقيقى — إلى عبيد الله المهدى . . . وكلفوا بالدعاية له رجلين وهما حسن بن فرح ، بن حوشب ابن زاذان الكوفى ، وأبو عبد الله الشيعى . وأرسلوا ابن حوشب إلى اليمن ، واشتهر فيه باسم منصور اليمن . وأرسلوا أبا عبد الله الشيعى إلى إفريقية .

وقد أصاب أبو عبد الله الشيعى من النجاح فى إفريقية ما لم يصبه ابن حوشب فى اليمن . وبعد أن اطمأنوا إلى انتشار دعوتهم فى إفريقية أرسلوا إليها سعيد ابن أحمد القداح الذى سموه عبيد الله المهدى .

وقد انتبهت حكومة بنى الأغلب إلى هذه الدعوة الخبيثة — ولكن بعد فوات الوقت . فقبضت على ابن قداح وسجنته . وتمكن أبو عبد الله الشيعى من مهاجمة السجن وإخراجه فقويت شوكته وكثر أنصاره .

وقد بلغه أن أبا عبد الله الشيعى — داعيته — يعمل ضده فقبض عليه وقتله ، وانتقم الله منه بيد صديقه[١] .

هذا أصل عبيد الله المهدى ، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه .

وقد خالفهم فى نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين فى المغرب وفى كل مكان ، وفى مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون ، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذى ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحى الذى ذكرناه آنفاً .

وقد جاء فى كتب الإسماعيلية الحديثة أكثر من دليل على أن عبيد الله المهدى هوسعيد بن أحمد من ذرية ميمون القداح وأنه سعيد الخير الملقب بالمهدى .

---

(١) لما أخرج أبو عبد الله الشيعى عبيد الله المهدى من السجن وفوض إليه أمر المملكة اجتمع به أخوه أبو العباس أحمد — وكان أكبر منه سناً ، ولامه على ما فعل . وقال له : تكون أنت صاحب البلاد والمستقل بأمورها وتسلمها إلى غيرك وتبقى من جملة الأتباع ؟ . فندم أبو عبد الله وأضمر الغدر بالمهدى . وشعر المهدى بذلك : فدس على أبى عبد الله وأخيه أحمد من قتلهما فى ساعة واحدة . وكان ذلك فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ بمدينة رقادة .

(من وفيات الأعيان)

ومن أراد أن يصف العبيديين بأنهم غير إسماعيلية ، أو أنهم يعملون لخير الإسلام والمسلمين فلن يجد على صحة دعواه دليلا واحداً .

* * *

ولما ذهب عبيد الله المهدى إلى المغرب . مرّ فى طريقه بطرابلس فتوقف فيها مدة لنشر دعوته ، فأرسل زيادة الله بن الأغلب إلى أخيه أحمد — عامله بها — أن يقبض عليه ، ولأمر ما لم يفعل ، واعتذر بأنه أفلت منه .

ويقال إنه رشاه بمال كثير . وسافر عبيد الله من طرابلس بعد أن تحرج مركزه فيها إلى المغرب . وأول ظهوره بسلجماسة[1] فى ذى الحجة سنة ٢٩٦ . وأسس دولته فيها . ودخل رقّادة فى العشر الأخير من ربيع الآخر سنة ٢٩٧ . واستولى على مخلفات بنى الأغلب وكانت شيئاً كثيراً . وبويع له فيها بالخلافة كما بويع له بالقيروان فى تسع بقين من هذا الشهر . وبهذه المبايعة أصبحت دولة العبيديين ظاهرة فى الوجود .

وكانت قبيلة كتامة البربرية أول من ناصر عبيد الله المهدى ، ودولته . ولما أستقر أمره فى رقادة والقيروان وجد معارضة كبيرة لمذهب الشيعة من أنصار مذهب مالك وبعض الحنفية ، حتى شعرت نفسه أن دولته لا تستقر فى إفريقية وفيها هذه المعارضة القوية ، لأن المعارضين لا ينظرون إلى دولته أنها

---

(١) ضبطها صاحب نزهة الأنظار : بفتح السين وسكون الجيم وفتح اللام .

وقال أحمد نجاتى فى تعليقه على وفيات الأعيان : سجلماسة مدينة فى جنوب المغرب الأقصى اختطها عيسى بن يزيد ابن الأسود من موالى العرب وقيل مدرار بن عبد الله ، كان ينتجع تلك الناحية لماشيته ، فاجتمع عليه جماعة من البربر — وكانوا يدينون بمذهب الصفرية من الخوارج ، فقدموه عليهم ، وخلعوا طاعة الخلفاء ، واختطوا هذه المدينة سنة ١٤٠ .

اهـ باختصار .

دولة عربية فاطمية ، ولا إلى مذهبه أنه من مذاهب أهل السنة ، بل ينظرون إلى دولته أنها دولة بربرية تناصر مذهباً اشتمل على كثير من المخالفات لما يراه المسلمون من الاحترام لصحابة رسول الله الأولين . ومن هذه الناحية كان أنصاره من كتامة يرون أن لهم الحق فى أن يكون نصيبهم فى هذه الدولة أكبر من غيرهم . وكان أبو عبد الله الحسين الداعى يؤيد كتامة فى وجوب تقديمهم على غيرهم . . وشعر عبيد الله المهدى بتأييد الداعى لكتامة فى رأيهم ، فتسرب إلى نفسه سوء الظن به ، وشعر بحرج مركزه ، فسعى إلى استمالة الصنهاجيين إليه ليستعين بهم على كتامة أعدائهم ، وقد تم له ذلك فانتصر بهم على الداعى وعلى الكتاميين ، وقتل بعض كبار الكتاميين فخافوه ، ثم قتل الداعى كما تقدم .

وأراد المهدى أن يبتعد عن القيروان محل النزاع ومعارضة المالكية فبنى المهدية وانتقل إليها ، وسلط أنصاره على سكان الضواحى فأرهبوهم محاولين إخضاعهم بالقوة .

ولم يفد عبيد الله انتقاله للمهدية ، ولا ما استعمله مع الناس من إرهاب وبطش ، فقد اشتدت عداوة المالكيين له ، وصاروا ينظرون إلى دعوته نظرتهم إلى دعوة المبتدعة مما زاد فى قلقه وزعزع مركزه ، فجاهروه بإنكار مذهبه وأعرضوا عنه . وتدرجت معارضتهم له من رفض مذهبه إلى رفض طاعته ، وامتنعوا عن دفع الضرائب . وحاول التغلب عليهم من طريق استعمال القوة فلم يزدادوا إلا تمادياً فى عداوته ، وقد حصلت مناظرات بين الشيعيين والمالكيين انتصر فيها المالكيون . وأفحموهم بالحجة ، وأصبح عبيد الله ومذهبه أبغض الناس والمذاهب إلى أهل إفريقية .

وقد بدا لرجالات الدولة الفاطمية أن بقاء دولتهم فى إفريقية مهدد بالزوال ما دام المالكية يناهضونهم . وأصبحوا يحسبون لهذا الأمر حسابه .

ومات المهدى سنة ٣٢٢ وخلفه بنوه وأحفاده وورثوا عنه هذه الفكرة وانتهت الدولة الشيعية إلى المعز لدين الله وأبدى محاولات فى المغرب بواسطة جوهر

الصقلى ، وبالرغم على ما سفك فيها من دماء فقد باءت بالفشل ، فازداد خوفه على الفاطمية ، وأحس بأن إفريقية لم تعد معقلا للفاطمية ، فاتجه بتفكيره إلى مصر ، وأنه يجب على الدولة الفاطمية أن تتخذ منها مركزاً إذا أرادت البقاء . وواتته الظروف بفساد حكم الإخشيديين فى مصر ، وتألم المصريين من حكمهم ، وبموت كافور الإخشيدى ، فغزاها بجيش جرار بقيادة جوهر الصقلى ، ثم رحل هو إليها سنة ٣٦١ . وخلف على إفريقية بنى زيرى الصنهاجيين الذين كانوا أيدوا الفاطميين ضد الكتاميين ، وضد ثورة ابن كيداد وأخلصوا للفاطميين الإخلاص كله . وذهب المعز إلى مصر وهو فى مأمن من متابعته بسوء ، وبقى بنو زيرى فى إفريقية نواباً عن الفاطميين فيما تركوا لهم من ملك . وعلى الرغم من استقلال بنى زيرى بإفريقية ، فإن ما بقى لهم من الصلة بالفاطميين كان يذكر المالكيين دائماً بمذهب الفاطميين الذين كانوا ينظرون إليه كمذهب من مذاهب المبتدعة .

وقد أدرك بنو زيرى أن أمرهم لا يستقر ما دام الناس يعتبرونهم نواباً للفاطميين أهل المذهب المبتدع . ولا بد لهم من الانتماء إلى مذهب الإمام مالك ، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء .

واشتدت الفتنة على الشيعة أيام المنصور ، وهوجمت دار الإمارة وأحرقت الأسواق ، وحاول المنصور أن يكبح جماح الفتنة فتعذر عليه ، وأيقن ألا سبيل إلى إطفائها ولا إلى استقرار ملكه إلا بانتمائه إلى المالكية ، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء ، وقد كان ذلك . وانتهى ملك بنى زيرى إلى المعز بن باديس فأعلن انتماءه إلى مذهب المالكية وأرغم الناس على اعتناقه ، وقضى على الشيعة ومذهبهم فى إفريقية . وانتقم الشيعة فى مصر من بنى باديس بتسليط العرب عليهم ، وكان ما سنذكره من أمر دخول العرب إفريقية .

هذا مختصر ما حصل بين مذهب الشيعة ومذهب المالكية .

أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة : موقف التحفظ وعدم الامتزاج ، والنظر إلى غير العنصر البربرى نظرة الغريب المحتل . وعلى هذا دأبوا ، ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا .

ماكنون بن ضبارة اللحيانى

وأول ما افتتح به عبيد الله عمله فى طرابلس أن عين ماكنون عاملا عليها ، وانتهز البربر فرصة ابتداء العهد الجديد وعدم استقرار الأمور ، فثارت هوارة بزعامة أبى هارون الهوارى وانضم إليهم جماعات من زناتة ولماية وغيرهم من القبائل البربرية ، وحاصروا طرابلس ، وتحصن ماكنون بداخل السور . فأرسل إليهم عبيد الله المهدى نجدة بقيادة تمام بن معارك — أبا زاكى — وهو ابن أخى ماكنون فحارب البربر خارج المدينة وانتصر عليهم ، وبعث برؤوس كثير منهم إلى المهدى برقّادة وبقى ماكنون بطرابلس ، وقد بلغ المهدى أن تمام بن أخى ماكنون يتآمر عليه ويحرض ضده ، فأوعز إلى ماكنون أن يقتله ، فقتله غرة ذى الحجة سنة ٢٩٨ .

وأمن ماكنون ثورة البربر ، وخلا له الجو ، فتطاول فى الحكم ، وبسط أيدى بنى عمه من كتامة فى أموال الناس والتدخل فى شئونهم ، وامتدت إلى حرماتهم ، فثار به أهل طرابلس سنة ٣٠٠ وأخرجوه منها فلحق بالمهدى برقّادة ، وأغلق أهل طرابلس أبواب المدينة ، وقتلوا من كان بها من كتامة أنصار ماكنون(١) .

محمد بن إسحاق القرشى

ولقبه ابن القرلين وبعد أن طرد الطرابلسيون ماكنون عامل المهدى قدموا عليهم محمد بن إسحاق القرشى « ابن القرلين » ، فأرسل عبيد الله المهدى إلى طرابلس أسطولا بحريًّا ، فتلقاه أهل طرابلس بأسطولهم فأحرقوه وقتلوا من فيه . وأرسل إليهم ابنه أبا القاسم فى جيش على طريق البر فى جمادى الأولى من سنة ٣٠٠ ،

---

(١) يقول الأستاذ العسلى فى تعريبه كتاب (ليبيا) : وفى سنة ٣٠٠ أباد سكان طرابلس الحامية التى كانت لها من قبل الاباضيين ا هـ وماكنون بربرى معين على طرابلس من قبل عبيد الله . ويظهر أن أنصاره من كتامة كانوا إباضيين .

فاعترضته هوارة فأوقع بها . وحاصر طرابلس المدينة حتّى فنى ما بها من أقوات ، وأكل أهلها الميتة ، ولم يمكن ابن إسحاق المداومة على الحرب . فتقدم أهل طرابلس لأبى القاسم الشيعى وطلبوا منه الأمان فأمنهم على أن يسلموا إليه محمد بن إسحاق ، ومحمد بن نصر ورجلا آخر يقال له الحوححة ، فقبلوا ذلك وسلموهم إليه ، ودخل طرابلس[١] ، وفرض على أهلها غرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[٢] ، وقتل من كان فيها من الأغالبة بتهمة أنهم المدبرون لهذه الفتنة .

وقد وقع ما فعله أبو القاسم بأهل طرابلس من القتل وفرض الغرامة موقع الاستحسان من المعز لدين الله ، وكتب إلى جوذر يقول له : «فاكتب باستحساننا فعله ورضانا بمايبلغنا من حميد سيرته ، وليدم على ذلك ينفعه الله به إن شاء الله .»

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له خليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس . .

وخليل هذا هو الذى أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته . . . وقد قتله ابن كيداد اليَفْرَنى لما استولى على القيروان سنة ٣٣٢ .

وبعد أن استقرت الحال فى طرابلس رجع أبو القاسم الشيعى إلى رقادة[٣] ومعه الرجال الثلاثة الذين ذكرناهم آنفاً ، فقتلهم بعد أن طاف بهم فى شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم .

حَباسة بن يوسف الكتامى

حَباسة — بفتح الحاء والسين المهملة . وقيل حَباشه ، بالشين المعجمة . وقيل بضم الحاء : وهو حباسة بن يوسف قائد بربرى من قواد عبيد الله المهدى الفاطمى ، حارب أبا اليمن الذى غزا برقة من قبل تكين[٤] ، وكانت الغلبة

---

(١) يفهم من رحلة التيجانى أنه دخلها سنة ٣٠٣

(٢) وقيل أربعمائة ألف . ورواية المؤنس ثلاثمائة وأربعون ألفاً .

(٣) رقادة مدينة بافريقية تقع جنوبى القيروان بنحو ستة أميال بناها إبراهيم بن أحمد الأغلب سنة ٢٦٣ . ووقعت فيها حروب هائلة بين أبى الخطاب بن السمح وبين قبيلة ورفجومة . ويقال إنها سميت رقادة لكثرة ما رقد فيها من القتلى فى هذه الملحمة

(٤) مولى المعتضد وقائده . وكان جباراً .

لحباسة على أبى اليمن ، ورجع أبو اليمن مهزوماً إلى مصر واستولى حباسة على برقة ، وتقدم إلى الإسكندرية واستولى عليها .

وفى سنة ٣٠٢ جمع تكين جيوشاً جرارة وهاجم جيش حباسة وأجلاه عن الإسكندرية وبرقة ورجع حبّاسة إلى المغرب فى أسوأ حال . . وجيش حباسة أول جيش ورد الإسكندرية من جهة عبيد الله المهدى الفاطمى .

ابتدأ عبيد الله المهدى أمره من المغرب وسار إلى المشرق ، ولما هدأت الحال فى طرابلس بعد ثورة أهلها على عامله ماكنون شرع فى الخطوة الثانية إلى الشرق للقضاء على بقية الأغالبة والعباسيين وطردهم من سرت وبرقة ، فجهز جيوشاً كثيرة سنة ٣٠١ بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى وتوجه إلى سرت لأنها إذ ذاك ما زالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب ، وهرب من كان بها من جند العباسيين والأغالبة ، وتقدم إلى أجدابية ، فهرب من كان فيها من الأغالبة والعباسيين ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون حرب ، واحتل مدينة برقة . . . وكان عبيد الله يمد حباسة بالجيوش بدون انقطاع .

وكان حباسة[1] مستبداً وقاسياً ، لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، فكان لا يفى بوعد ، وكلما دخل مدينة قتل من أهلها وأخذ أموالهم ، ووجد جماعة فى برقة يلعبون بالحمام فأمر بهم فأجلسوا حول نار ، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى ، ثم أمر بهم فألقوا فى النار . . . ونادى فى برقة . . . من أراد العطاء فليأت إلينا ، فحضر إليه من الغد نحو ألف رجل ، فأمر بهم فقتلوا جميعاً ، ثم وضع بجثثهم بعضها على بعض ، وجيء له بكرسى فوضع على الجثث وجلس عليه ، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم ، وقد مات منهم جماعة من فظاعة ما رأوا ، وقال لهم : إن لم تأتونى غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً ، فأحضروها له .

---

(١) كان من أتباع عبد الرحمن القائم ، أغار على الإسكندرية بأسطول مكون من مائتى مركب أيام المقتدر العباسى فاحتلها لعبد الرحمن القائم ، وتقدم إلى الصعيد ، فبعث اليه المقتدر جيشاً لمحاربته بقيادة بكير التركى .

وقتل حباسة في هذه السنة حارثاً ونزاراً ابني حمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة برقة ، وباع نساءهم ، وأخذ جميع أموالهم وقد ضاق أهل برقة بقبيح أفعاله ، فشكوه لعبيد الله المهدي ، فاعتذر ، وحلف أنه ما أمر بشيء من ذلك ، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر ، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله في برقة . . .

وفي سنة ٣٠٢ غزا أبو القاسم الإسكندرية ولم يوفق في هذا الغزو ورجع مهزوماً . وسبب غزوه الإسكندرية أنه أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما فتح من البلاد ، فأجابه الصولي[1] بقصيدة على وزنها ورويها ومنها :

فلو كانت الدنيا مثالا لطائر لكان لكم منها بما حزتم الذنب

فغضب من هذا البيت ، وقال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه — إن قدرت — أو أهلك دونه » .

وفي هذه السنة ثار أهل برقة على عامله وقتلوه ، وقتلوا كثيراً من رجال كتامة .. فأرسل إليهم المهدي الجيوش سنة ٣٠٣ لتأديبهم على ثورتهم على عامل ابنه أبي القاسم ، وكانت الجيوش بقيادة أبي مديني ابن فروخ اللهيضي . وقد استمر على حرب مدينة برقة وحصارها ثمانية عشر شهراً مع حصار شديد حتى افتتحها سنة ٣٠٤ ، وقتل أكثر أهلها ، وأحرق كثيراً منهم ، واستباح ما فيها من أموال ، وبعث بجماعة من وجوه أهلها إلى المهدي فأمر بقتلهم وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بها سنة ٣٠٦ .

وفي سنة ٣٠٤ حارب المهدي أهل صقلية . وغزا مصر في ذي القعدة سنة ٣٠٦ فاستولى على الإسكندرية وأكثر الصعيد . . . وفي هذه السنة ابتدأ في إنشاء المهدية ، وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨ . . .

---

(١) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين المعروف بالصولي الشطرنجي .

له كتب في الأخبار والأدب والتاريخ ، أهمها أدب الكاتب توفي سنة ٣٣٥ أو ٣٣٦ هـ .

وشعر الناس – لا فرق بين السنيين والإباضيين – بسوء معاملة عبيد الله وأنصاره ، ولمسوا فى أحكامهم القسوة والجور ، فحقدوا عليهم وصاروا يتربصون بهم . وثارت نفوسة سنة ٣١٠ على عبيد الله ، وقدموا عليهم أبا بطّة ، وهو أحد رجالاتهم ، فعظم شأنه ، وقويت شوكته . فأرسل إليهم عبيد الله أحد رجاله علىّ بن سلمان الداعى فى جيش ، فحاربته نفوسة وقتلوا كثيراً من جنوده ، وفر علىّ إلى طرابلس ، ثم أمده عبيد الله بالجيوش ، وأعاد الكرة على نفوسة وحاصرها .

وولّى محمد بن عمر النفطى قاضياً على طرابلس .

ومضت مدة نحو اثنتى عشرة سنة لم نهتد إلى ما وقع فيها من أخبار وحوادث . وسيأتى عما قريب ما يفيد تذمر أهل السنة وعلماء القيروان من أعمال العبيديين حتى إنهم ناصروا عليهم ابن كيداد .

قال صاحب البيان المغرب : ملك المهدى جميع المغرب ، وإفريقية ، وطرابلس ، وبرقة ، وجزيرة صقلية ، وتوفى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة ولايته ٢٤ عاماً وعشرة أشهر .

محمد بن عبيد الله المهدى

كنيته أبو القاسم ، ولقبه القائم بأمر الله . ويقال إن اسمه نزار . . كان عهد له أبوه المهدى بالأمر من بعده ، وتولّى بعد وفاة أبيه . وفى أيامه ظهر مخلد ابن كيداد وثار عليه فى ناحية طرابلس .

مخلد بن كيداد[1] صاحب الحمار

أبو يزيد

هو مخلد بن كيداد اليَفْرَني ، بن سعد الله ، بن مغيث ، بن كرمان ، بن مخلّد ، بن عثمان ، بن وريمة ، بن تبقراسن ، بن سميدان بن يَفرَن ، ويَفرَن هذا أخو مغراوْ الذى تنسب إليه قبيلة مغراوة . وأمه أم ولد ، واسمها سيكة ، وهى سودانية لأنّ والده كان يغشى السودان للتجارة فاتخذها جارية له . ومات والده وتركه فقيراً لا يملك شيئاً ، وعاش زمناً على إحسان الناس ، ولما كبر خالط النُّكّار وتمذهب بمذهبهم . واشتهر عنه تكفير أهل السنة وسبّ على بن أبى طالب ، ونشأ فى مدينة توزر من بلاد الجريد وهو من قبيلة زناتة . وكان يدعى أنه ابن المهدى ، وكان يركب حماراً فسمى صاحب الحمار. وقد ظهر بجبال أوراس .

وقد ثار على محمد بن عبيد الله المهدى فى جهات طرابلس سنة ٣٣٣ ، وحاصر طرابلس وقاتله أهلها . وقد تبعه فى بادئ الأمر كثير من البربر . ولشدة جور محمد ابن عبيد الله المهدى على أهل السنة ، وظلمه لهم ، وتعذيبه إياهم انضم إلى ابن كيداد كثير من علماء القيروان لأنه كان يخفى أمره عليهم ، وحاربوا معه . . . وقد استفحل أمر ابن كيداد وقويت شوكته ، وهاجم ابن المهدى فى رقّادة ففر أمامه إلى المهدية .

وسمى ابن كيداد نفسه شيخ المؤمنين . وكان يضمر لأهل السنة أشد العداوة ، لأنه كان نكارياً يستحل أموال أهل السنة ونساءهم ، ولكن انتهز كراهتهم لمحمد بن عبيد الله الشيعى ، فأخفى عليهم عقيدته فيهم وأظهر لهم صداقته واستغلهم ضده . . ولما رأى القدرة من نفسه على ابن المهدى الشيعى

---

(١) بضم الميم وتشديد اللام. وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بفتح الميم واللام وسكون الخاء. وكان يستبيح الأموال والدماء .

غدر بأهل السنة ، وخلىّ بينهم وبين الشيعى يقتلهم ويستبيح منهم ما حرّم الله ، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل أنصاره فينفض الناس من حوله لفعل بهم أكثر مما فعل الشيعى ، وقد قتل الشيعى منهم خلقاً كثيراً . . ومع ذلك فقد افتضح أمر ابن كيداد وتحقق البربر كذبه فانفضوا من حوله .

كان ابن كيداد قاسى القلب ، جباراً شديد البطش بأعدائه ، تدل أفعاله على نبذ الأديان ، وعدم احترام الإنسانية . . . دخل القيروان بعد أن خرب البلاد ، وقتل الرجال ، وسبي النساء ، وشق فروجهنّ ، وبقر بطون الحوامل ، والتجأ الناس إلى القيروان حفاة عراة ، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً ، وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من خراب ، فقال لهم فى سخرية واستهزاء : « وما يكون لو خربت مكة أو بيت المقدس » ! !

توفى أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدى فى ١٣ من شوال سنة ٣٣٤ . ودامت ولايته اثنتا عشرة سنة .

إسماعيل بن محمد القائم

هو أبو الطاهر ، ولقبه المنصور ، عهد له أبوه فى حياته بالإمارة ، وبويع بها بعد وفاته ، وكان ابن كيداد ما زال قائماً بالثورة ، فخرج لقتاله وهزمه . وأعاد ابن كيداد الكرة فهزم أيضاً فى معركة شديدة . وفر إلى قلعة كتامة ، فتبعه إسماعيل وحاصره بها . واقتحمها عليه وظفر به مثخناً بجراحه ، ومات متأثراً بها ، فسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه . وفى سيرة جوذر : وحشّاه سعفا . وفى هذه المعركة يقول على بن محمد الإيادى الشاعر :

فارتقى الملعون من خيفتـــه ... فى ذرى أعيط عال مُصَّعد
فى ذرى حلقاء ملساء عـــلى ... ذلك المعقل ليست بصدد
معقـــل من فوقـــه الله ومن ... تحته المنصور فى جيش مَعد
فارتـــقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد
فإذا مخلد فى كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسد

إلى أن قال :

فأبى الله سوى إعجاله وعذاب الله للجسم أهد

فنضى عنه أديماً دنساً كان قد أسرف فيه ومرد

كأديم التيس لما لم يطب ريحه جرد منه فانجرد

وحشاه سالخوه سعفا ماليا ما بين كعب وكند

ثم رقاه على مستحصد باسق أجرد ما فيه أود

اﻫ من سيرة جوذر

وبقى مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٣٦ ...
وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه فأرسل إليه المنصور زيرى بن منّاد فقتله .
وانتهى أمر ابن كيداد وابنه .

وفى سنة ٣٣٦ بنى المنصور مدينة المنصورية ، وهى منسوبة إليه . ويقال لها صبرة ، وهى على نصف ميل من القيروان ، وانتقل إليها سنة ٣٣٧ ، وتوفى فى العاشر من شوال سنة ٣٤١ ، وعمره تسع وثلاثون سنة ، ومدة ولايته سبعة أعوام ونصف شهر .

زيان الصقلى

كنيته أبو الفتوح . ولاه إسماعيل المنصور عاملا على طرابلس . وقام بأعباء الحكم فيها ، وعنى بإصلاح سور المدينة ، وزاد فى جميع جهاته البرية والبحرية فى أيام المعز سنة ٣٤٥ .

المعز لدين الله

هو معد بن إسماعيل المنصور ، وكنيته أبو تميم . ولد بالمهدية فى ١١ من رمضان سنة ٣١٩ وعهد له والده بالخلافة بعده ، ويقال بويع له فى حياته ، وجددت له البيعة يوم وفاته ، وفى يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٣٤١ جلس على سرير الملك ، وسلم الناس عليه بالخلافة ، وهو الخليفة الفاطمى الرابع . وكان عالماً فاضلا جواداً منصفاً ، وهو أول خليفة من العبيديين ملك مصر .

وفى سنة ٣٤٢ ولى باسيل الصقلى عاملا على سرت ، وولّى على أجدابية ابن كافى الكتامى . وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب . وكان له فتح فى صقلية سنة ٣٤٥ . . . وفى أيامه دخل اليهود إفريقية .

وبدخول برقة تحت حكمه أصبحت حدود مملكته على حدود مصر ، ومكنه هذا الجوار القريب من استطلاع أحوالها والوقوف على حقيقة حكم الإخشيديين فيها . وصارت نفسه تنازعه إلى احتلال مصر من الإخشيديين ، وأصبح يتحين الفرص . . . . وفى صفر سنة ٣٥٥ مات كافور الإخشيدى فاضطرب حبل الأمن فى مصر ، فكان ذلك مما شجع المعز على الإقدام فاعتزم الأمر وأخذ يعد العدة لذلك ، وفى هذه السنة أمر بحفر الآبار ، وبناء القصور فى طريق مصر . وقد بنى على رأس كل ثلاثين ميلا قصراً من القيروان إلى مصر . وجشد الجيوش الجرارة وجمع الأموال اللازمة لها ، واختار لقيادة هذا الجيش الفاتح مملوكه جوهر الصقلى ، وزوده بالأموال الكافية ، وأمر قواده ، وعماله فى جميع النواحى أن يترجلوا فى ركابه . وقد استكملت جميع الوسائل والمعدات للجيش ولم يبق إلا الرحيل ، وكان الجيش يربى على مائة ألف .

وفى يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٥٨ ابتدأ هذا الجيش مسيره إلى مصر ، بقيادة جوهر الصقلى [١] وانساب فى تلك البطائح يملأ ما بين تونس ومصر ، لا يتجاوز الطرف أوله ولا ينتهى إلى آخره . وقد وصف ابن هانئ كثرة هذا الجيش بقوله :

ألا إن هذا حشدُ من لم يذق له غرارَ الكرى جفنٌ ولا بات يهجعُ
إذا حلّ فى أرض بناها مدائناً وإن سار فى أرض غدت وهى بلقعُ

وقد أنفق المعز على تجهيز هذا الجيش أربعة وعشرين مليوناً من الدنانير .

---

(١) كنيته أبو الحسن ، وهو رومى وكان غلاماً للمنصور والد المعز . توفى بمصر سنة ٣٨١ ولم يبق شاعر بمصر إلا رثاه . وقال ابن خلكان : سافر جوهر القائد من إفريقية ، ومعه أكثر من مائة ألف فارس ، ومعه أكثر من ألف ومائتى صندوق من المال . وكتب المعز إلى عامله على برقة : أفلح الكتامى أن يترجل للقائد جوهر .

وحينما مر جوهر ببرقة كان بها أفلح الكُتامى(١) عاملا عليها من قبل المعز ، فأنفت نفسه أن يترجل فى ركاب جوهر كما أمر المعز عماله أن يترجلوا فى ركابه . وقدم له خمسين ألف دينار على أن يعفيه من ذلك ، فأبى جوهر إلا أن يترجل فى ركابه كغيره من العمال والقواد ، ورد عليه المال ، فترجل الكتامى . وبعد مسير خمسة أشهر دخل مصر يوم الثلاثاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ ، ولم يجد عناء فى فتحها ، ووضع أساس القاهرة إثر دخوله ، وأرسل إلى المعز يبشره بالفتح ويستقدمه إلى مصر .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ شرع فى بناء الأزهر وانتهى منه فى رمضان سنة ٣٦١ ، وفتح دمشق سنة ٣٥٨ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد جوهر . وأخذ المعز يفكر فى الانتقال إلى مصر ويعد له العدة .

رحلة المعز إلى مصر

بعد أن تم فتح مصر ، وأسست القاهرة ، وتم بناء الأزهر . وبعد أن وطد جوهر ملك سيده المعز فى مصر ، وفتح دمشق — بعد كل هذا لم يبق للمعز إلا أن يرحل عن إفريقية مسقط رأسه ، وموطن آبائه وأجداده ، ليتمتع بملك مصر ، ويتمثل بما قاله فرعون « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى » .

---

(١) هو أفلح بن ناشب الكتامى ، عامل برقة وواليها للمعز .

قال فى سيرة الأستاذ جوذر : كان له أثر كبير فى برقة لما قام به من جهاد لكل من خالف المعز من البربر وغيرهم ، ولكل ما يلى مصر من القبائل من ناحية برقة مثل بنى قرة وسواهم من الأعراب ، فخضعت له بلاد برقة . وقد بلغ من اعتداد أفلح بنفسه أنه أبى أن يترجل للقائد جوهر عند مروره ببرقة إلى مصر مع عظيم منزلة جوهر . وكان المعز يعتمد على أفلح فى مهاجمة جزر بحر الروم من موانئ برقة . وكانت برقة قاعدة لغزو تلك الجزر منذ الفتح الإسلامى ا هـ .

وقد مدحه ابن هانئ بقصيدة منها هذا البيت :

حيّوا جلالة قدره فكأنما ... حيّوا أمين الله فى الدّيوان

وقد وكل إليه المعز القضاء على ثورة آل قرة من عرب البحيرة فنجح فى ذلك نجاحه فى توطيد دعائم الملك والأمن فى برقة .

وفى ٢٢ من شوال سنة ٣٦١ رحل المعز لدين الله من المنصورية [1] إلى سردانية — وهى بلد قريب من القيروان — فأقام بها حتى لحق به أهله وماله وجنده ، وأخذ معه ألف جمل محملة بالمال ، وفى أول صفر سنة ٣٦٢ رحل إلى مصر ، واستخلف على إفريقية بُلكين بن زيرى ، وسماه يوسف ، وكنيته أبو الفتوح ، وذلك لتكون مملكتهم فى المغرب حصناً لمملكتهم فى المشرق ، ولتحول إفريقية بينهم وبين زناتة الموالين لبنى أمية . وكانت صنهاجة تناصر العلويين .

واستثنى المعز لعبد الله بن يخلف الكتامى من إفريقية طرابلس وسرت وبرقة ، فلم يدخلها تحت حكم بلكين وألحقها بمصر ، وولى عليها عبد الله بن يخلف الكتامى ، تقليلا من نفوذ بلكين ، لأن سياسة الفاطميين كانت مبنية على الاعتماد على أنصارهم ، وإشعار هؤلاء الأنصار بدوام صلتهم بهم ، مراعين فى ذلك مصلحتهم بقدر الإمكان . . . وكان مقر يخلف الكتامى طرابلس .

وسار بُلكين مع المعز إلى قابس يودعه ويتلقى إرشاداته ووصاياه ، وقد أوصاه بثلاث :

ألاّ يرفع السيف عن البربر . ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحداً من أهل بيته .

ورحل المعز من قابس يوم الأربعاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٦٢ ، ودخل طرابلس يوم الأربعاء ٢٤ من الشهر المذكور ، وكان معه جماعة من الإباضية فهربوا إلى إخوانهم فى جبل نفوسة فلم يبالهم ، وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين . . ورحل عن طرابلس يوم ١٧ من ربيع الآخر ووصل إلى سرت فى اليوم الرابع من جمادى الأولى . . . ورحل عنها ونزل بقصره الذى بنى له فى

---

(١) نسبة إلي المنصور بن بلكين بن زيري . وتسمى صبره أيضاً .

أجدابية[١] . ورحل عنها ونزل بقصره المعروف بالمعزية[٢] فى برقة فى أواخر رجب. وكان معه الشاعر محمد بن هانئ الأندلسى ، وكان يتغالى فى مدح المعز إلى حد الكفر ، وله أشعار صريحة فى ذلك ، منها قوله يخاطب المعز :

فكأنما أنت النبى محمدٌ ... وكأنما أنصارك الأنصارُ
ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهارُ
هذا الذى تجدى شفاعته غداً ... حقًّا وتَخْمُدُ أن تراه النار

ومن شعره فى المعز :

النورُ أنت وكل نور ظلمةٌ ... والفوق أنت وكل فوق دُونُ
فارزُق عبادك منك فضل شفاعة ... واقرب بهم زُلفى فأنت مكينُ

ومنه :

ندعوهُ منتقماً عزيزاً قادراً ... غفار مُوبقة الذنوب صفوحا
أقسمتُ لولا أن دُعيت خليفةً ... لدُعيتَ من بعد المسيح مسيحا
شهدتْ بمفخرِكَ السمواتُ العلا ... وتنزلَ القرآنُ فيك مديحا

ومنه :

وعلمتَ من مكنون سر الله ما ... لم يُؤتَ فى الملكوتِ ميكائيلا
لوْ كان آتى الخلق ما أوتيتَه ... لم يخلق التشبيه والتأويلا

---

(١) كان أحد مماليك المعز يسمى جوذر كان معه فى هذه الرحلة ، وقد مرض مرضاً شديداً فكان يتمنى أن يجتمع بالمعز ، فاجتمع به فى هذا القصر ، وكانت آخر مرة اجتمع فيها بالمعزّ . . ومات جوذر فى مدينة برقة من مرضه هذا . وحمل إلى القصر الذى كان به المعز بموضع يعرف بمياسر وصلى عليه ، ودفن بالمسجد الذى كان بهذا القصر .

وأصل جوذر من الصقالبة وعتقه المعز سنة ٣٣٦ تقريباً ، ولقب بجوذر مولى المعز ، وكان من أقرب المقربين اليه .

(٢) يوجد الآن مكان فى برقة يقال له العزيات قريباً من طريق العبد جنوبى الجبل الأخضر ، وبهذا المكان آثار بناء قديم ، ولا يبعد أن تكون آثار قصر المعز ، ولطول الزمن حرفت إلى العزيات . وطريق العبد — على ما يقال — هو الذى سلكه جوهر الصقلى فى مجيئه إلى مصر .

وقال فيه :

ونورُ هدًى فى جسم نور يمدهُ ... شُعاعٌ من الأعلى الذى لم يجسم

فأقسِمُ لو لم يأخذ الناسُ وصفه ... عن الله لم يُعقلْ ولم يُتوهم

وبمثل هذا الإغراق فى الكفر يمدح ابن هانئٌ المعزّ الفاطمى ، ولمثل هذه المكفرات يصغى المعز ولا ينكرها ، فأى مكفرات بعد هذه يا ترى ينكرها المعز .

وابن هانئ هو محمد بن هانئ . ويلقب بأبى القاسم ، وأبى الحسن ، وهو من قبيلة الأزد ولد بأشبيلية من بلاد الأندلس ، واتصل بجوهر الصقلى سنة ٣٤٧ تقريباً ، وكأنّ إحسانَ جوهر له لم يشبع نفسه الطامحة فاتصل بجعفر بن على أحد قواد المعز وأمير الزاب فأغدق عليه ما أرضاه . واتصل بالمعز سنة ٣٥٠ فى القيروان ، وصحبه فى رحلته إلى مصر . واغتيل ابن هانئ فى برقة لسبع ليال بقين من رجب سنة ٣٦٢ وهو فى الثانية والأربعين من عمره نتيجة التآمر عليه من خصومه السياسيين والأدباء لما كان له من الحظوة لدى المعز .

وقد وجد مقتولا بساحل البحر ببرقة ولم يعرف قاتله . ولما بلغ المعز خبرُ وفاته تأسف وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وقال فى المغرب فى حلى المغرب ص ٩٧ ج ٢ : أبوالقاسم محمد بن هانئ الأزدى أصله من بنى المهلّب الذين ملكوا إفريقية ، وانتقل أبوه منها إلى جزيرة الأندلس ، وسكن إلبيرة فولد له بها محمد بن هانى المذكور ، وبرع فى الشعر واشتهر ذكره . وقصد جعفر بن على الأندلسى ملك الزاب من المغرب الأوسط ، واحتال لمقابلته ، وأكرمه وأجلّ قدره ، وبقى فى جواره مكرمًا ، إلى أن كتب المعز الإسماعيلى الخليفة بالقيروان إليه فى توجيهه لحضرته ، فوجهه للقيروان ، فقال فيه الشعر وبالغ فى مدحه .

وكان ابن هانئ مغرمًا بحب الصبيان ، وله فى ذلك أشعار مبتذلة .

ولما رحل المعز إلى مصر رجع لتوصيل عياله ، فقتل فى برقة على صبى .

وقال فى وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥ التحق بجعفر ويحي ابنى على بالمسيلة وهى عاصمة الزاب ، فامتدحهما فبالغا فى إكرامه والإحسان إليه . فنمى خبره إلى المعز العبيدى فطلبه منهما ، فلما انتهى إليه بالغ فى الإنعام عليه . ولما توجه المعز إلى الديار المصرية شيعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به ، فتجهز وتبعه . ولما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً فى مجلس الأنس ، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه . وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام فى الطريق وأصبح ميتاً (١) ولم يعرف سبب موته . وقيل إنه وجد فى سانية من سوانى برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وكان ذلك فى بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة ٣٦٢ وعمره ست وثلاثون سنة وقيل اثنتان وأربعون . هكذا قيده صاحب كتاب أخبار القيروان »

وله فى المعز غرر المدائح . فمن ذلك قصيدته النونية التى يقول فيها :

فارزُق عبادَك منك فضلَ شفاعة   واقرُب بهم زُلفى فأنتَ مكين

وكان المعز وأجداده يستمعون إلى مثل هذه المكفرات ولا ينكرونها . وكانت أيمان كتامة أيام المهدى : « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة » وقد قتلوا العروس مؤذن مسجد ابن عياش بعد أن ضربوه بالسياط وقطعوا لسانه لأنه أذن ولم يقل حيّ على خير العمل ، وكانوا يمنعون الناس من صلاة الضحى وصلاة التراويح . . . وعلى كل حال فإن الذين يريدون الطعن على أعمال العبيديين يجدون أكثر من دليل على أنها لا تتفق مع تعاليم الإسلام ، ولا مع ما كان عليه نبى الإسلام .

وواصل المعز سيره من برقة ، فوصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢ . ووصل مصر يوم السبت الثانى من شهر رمضان من هذه السنة ، ودخل القاهرة يوم الثلاثاء الخامس منه . ودخل من الباب القبلى وهو باب

---

(١) قال فى النجوم الزاهرة إنه قتل فى رجوعه من مصر إلى المغرب للإتيان بأهله ولحوقه بالمعز فى مصر .

زويلة[1] ووفد عليه أعيان القاهرة فأكرمهم وأحسن استقبالهم .

وامتد ملك المعز من مضيق سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق . وكان يصدر أوامره بالقاهرة ، فيأتمر بها سكان سواحل المحيط الأطلنطى .

ويظهر أن المناطق الجنوبية من إفريقية التى كانت يسكنها البربر لم تدخل تحت نفوذه ، لأنه تقدم أنه لما مر بطرابلس وكان معه جماعة من البربر فروا إلى إخوانهم بجبل نفوسة . وهذا يدل على أن جبل نفوسة لم يكن تحت نفوذه ، وقد تقدم أنه كان تابعاً لتيهرت عاصمة إمامة الإباضية ، ويظهر أنها هى أيضاً لم تكن تحت نفوذ المعز .

وبقى المعز فى مصر سنتين ونصفاً . وتوفى بالقاهرة فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٦٥ . ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر .

ودامت دولة الفاطميين ٢٦٠ سنة ، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب ومائتان وثمان سنوات بمصر . وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة ، أولهم عبيد الله المهدى ، وآخرهم العاضد الذى توفى بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ ، وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب . والملك لله وحده . يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

الدولة الصنهاجية

نسبة إلى صنهاجة ، وهى قبيلة بربرية من قبائل البربر ذات الشهرة والمكانة الكبيرة فى إفريقية ، وكانت تناصر العلويين ، ولذلك كانت محل ثقة المعز لدين الله . . . وكان بيت آل زيرى من بيوتاتها المشهورة لذلك اختصه المعز بثقته ، وجعل رجالاته خلفاءه على إفريقية من بعده .

---

(١) لما بنى جوهر القاهرة كان معه طوائف كثيرة من البربر . وكانت طائفة منهم تسمى زويلة ، فسكنت بقرب هذا الباب فسمى باسمها وما زال معروفاً بها إلى الآن . ويسميه العامة بوابة المتولى غلطاً . وبجواره حارة تسمى حارة زويلة .

والدولة الصنهاجية ، وإن كانت تمثل الدولة العبيدية فى إفريقية ، ولكنها هى ذات النفوذ الفعلى والسلطان المباشر فى إفريقية . . . وقد حكمت إفريقية ١٨٢ سنة ، من سنة ٣٦١ إلى سنة ٥٤٣ ، وتولاها ثمانية أمراء من آل منّاد ، أولهم بلكين بن زيرى ، وآخرهم الحسن بن على .

وفى سنة ٤٠٦ انقسمت الدولة الصنهاجية إلى قسمين : شرقية ، وعاصمتها القيروان ، وغربية وعاصمتها قلعة بنى حماد [١].

بلكين [٢] بن زيرى [٣]

كنيته أبو الفتوح ، ولقبه سيف الدولة ، وسماه المعز لدين الله يوسف ، وهو أول أمير فى الدولة الصنهاجية . وحينما سافر المعز إلى مصر استخلفه على

---

(١) قلعة بنى حماد تقع فى جبل كتامة . وهى مشهورة فى إفريقية ، ولها تاريخ مجيد بما تعاقب عليها من الملوك وعظماء الرجال ، وبما كان لها من الشأن الرفيع فى حروب إفريقية عامة ، وحروب العرب والبربر خاصة . أسسها حماد بن بلكين بن زيرى سنة ٣٩٨ . وكانت تسكن حولها فى جبل كتامة قبائل عياض من بنى هلال . وقد شيد حماد بنيانها ، وأحكم أسوارها ، وأكثر فيها المساجد والفنادق وكل شىء يوفر للناس أسباب الراحة . وقد اتجهت إليها أنظار طلاب العلم والتجار ، وأصحاب الحرف والصنائع فأخذوا يهاجرون إليها أفواجاً . وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة . وتوفى حماد سنة ٤١٩

وحماد هذا عم باديس . وكان باديس أرسله لمحاربة زناتة ، وكانت خالفت عليه سنة ٣٨٨ وجعل له ملك جميع ما يفتحه ، فانتصر عليها ؛ وبنى القلعة ، وجعلها قاعدة ملكه . وانقسمت دولة صنهاجة إلى دولتين : شرقية وقاعدتها القيروان . وغربية وقاعدتها القلعة .

(٢) كتبه بعض المؤرخين بالجيم ، وبعضهم بالقاف ، وهذا يرجح القول بأنه بالكاف المعطشة التى تخرج بين القاف والكاف . وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بضم الباء واللام وتشديد الكاف . ولبلكين مكانة ممتازة لدى المعز لدين الله لما ناله على يديه من نصر على خصومه . وذلك أن محمد بن الحسن بن خزر المغراوى كان مخالفاً على المعز فى المغرب الأوسط . وكان جباراً طاغية ، فخافه المعز على إفريقية ، فأرسل إليه بلكين فى جيش كبير ، فانهزم محمد بن الحسن . وقد كبر عليه أن ينهزم ، فتحامل على سيفه وقتل نفسه . وقتل اثنا عشر من أمراء زناتة ، وأسر منهم كثير ، وكان ذلك سنة ٣٦٠ ، فسر المعز بذلك وعظم بلكين فى نظره ، فاستخلفه عنه فى إفريقية . وأناب عنه فى طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى ولم يجعل لبلكين ولاية عليه ولا على صاحب صقلية

(٣) ذكر فى الأنيس المطرب لابن أبى زرع أن زيرى بن عطية أرسل هدية إلى المنصور ابن أبى عامر ، وكان فيها عدة أحمال من قسى الزارة . والزارة قرية بطرابلس تصنع فيها القسى الجيدة . . وكان هذا حوالى سنة ٣٧٧ . وهى المعروفة عندنا بعين زارة .

إفريقية والمغرب فى شوال سنة ٣٦١ . وقد فصل عنه طرابلس وسرت وبرقة كما تقدم . ولما مات المعز لدين الله ، وتولى بعده العزيز بالله نزار أرسل إليه يوسف بُلكين سنة ٣٦٧ هدية وطلب منه أن يضيف إليه هذه المقاطعات الثلاث ، فجدّد له العهد بالإمارة على إفريقية وأضافها إليه ، فرحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامى الذى كان مولىّ عليها من قبل المعز لدين الله ، وبعث يوسف بلكين إليها عماله .

عوصلة بن بكار

ولاه بلكين عاملا على طرابلس بدلا من عبد الله بن يخلف . وعوصلة هذا أحد موالى بلكين جاء به من مدينة بونة .

وتوفى بلكين بن زيرى[1] يوم ٢٣ من ذى الحجة سنة ٣٧٣ . ومدة حكمه اثنتا عشرة سنة .

المنصور بن بلكين

كنيته أبو الفتوح ، ولقبه عدّة العزيز بالله . تولى الإمارة بعد وفاة والده بلكين ، وأقر عوصلة عاملا على طرابلس . . . وكان المنصور جواداً حازماً ، عادلا . . . وفى أيامه أرسل أخاه يطوفت إلى القيروان فاحتلها. وفى سنة ٣٨١ ختن ولده باديس فأرسل إليه عوصلة عامله على طرابلس —هدية فيها مائة حمل من المال . . . وكانت زويلة السودان تابعة له ، وعامله عليها ابن الخطاب ، فأرسل إليه هدية بهذه المناسبة ومن ضمنها زرافة وبعض مصنوعات السودان.. ودامت إمارته/ نحو ١٣ سنة وتوفى يوم الخميس الثالث من ربيع الأول سنة ٣٨٦.

---

(١) وقعت حروب كثيرة بين زناتة وصنهاجة . وفى رمضان سنة ٣٦٠ وقعت بينهم حروب شديدة عقر فيها فرس زيرى فكبا به ووقع بين الصفين ، واحتدمت عليه الخيل من الفريقين : فريق يريد قتله وفريق يريد إنقاذه . وقتل فى هذه المعركة .

باديس بن المنصور

تولى إمارة إفريقية بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٨٦ . وأقر ولاية عوصلة على طرابلس . وطلب عوصلة من الحاكم بأمر الله المنصور خليفة مصر أن يعفيه من عمله بطرابلس ، ويأذن له فى الالتحاق به فى مصر ، فأعفاه من الوظيفة . وأذن له فى القدوم إلى مصر فلحق به .

يانس الصقلى (١)

تقدم أن المعز لدين الله لما سافر إلى مصر استخلف عنه بلكين بن زيرى ، وجعل إمارة إفريقية فى بيت آل زيرى على أنهم خلفاء للدولة الفاطمية فى إفريقية . واستمروا تابعين لدولة الفاطميين بمصر إلى أيام المعز بن باديس كما سيأتى . إذاً فأمراء آل زيرى ليسوا مستقلين بإفريقية ، وإنما هم تابعون للفاطميين فى مصر ، والكلمة العليا فى أمور إفريقية ترجع إلى الخليفة فى مصر . وعلى هذا الأساس اعتبر يانس نفسه معيناً فى طرابلس من قبل خليفة مصر ، وليس لأمير إفريقية المعارضة فى هذا التعيين ، وإن كان يعتبر نفسه تابعاً له فى الإدارة . كما يعين الملك موظفاً ، فليس للوزارة المعارضة فى هذا التعيين وإن كان تابعاً لها فى الإدارة .

وقبل أن يسافر عوصلة إلى مصر عين الحاكم بأمر الله خليفة مصر يانساً الصقلى عاملا على طرابلس ، ولم يأخذ رأى باديس فى هذا التعيين ، وجرت

---

(١) قال فى الخطط التوفيقية :

هو أبو الحسن يانس الصقلى ، كان خادماً خصيّاً من خدام العزيز بالله الفاطمى ، وكان قد خلفه على القاهرة ، فلما مات العزيز أقره ابنه الحاكم بأمر الله على خلافة القصور وخلع عليه ، وحمله على فرسين ، وكان له أتباع يقال لهم اليانسية نسبة إليه ، وبهم سميت عطفة اليانسية بمصر بالدرب الأحمر قبالة جامع أبى حريبة من الجهة الغربية .

ولما كان المحرم سنة ٣٨٨ سافر لولاية برقة بعد ما خلع عليه وأعطى خمسة آلاف درهم ، وعدة من الخيل والثياب .

الأمور بدون علمه . ولم يشعر باديس حتى قدم يانس من مصر سنة ٣٩٠ ، وسلم له عوصلة طرابلس وسافر إلى مصر ، وأخذ معه ماله ، وأهله ، وولده . . وكان عوصلة كثير الولد والسرارى ، يقال إنه كان له قرابة ستين ولداً بين ذكر وأنثى ، وله من السرارى ما يربى على الثلاثين . . ووصل إلى مصر فأكرم الحاكم وفادته، وقلده ولاية دمشق وأعمالها وما بها[1] . . . واستولى يانس على كل ما تركه عوصلة بطرابلس ودام عوصلة فى الحكم تسعة وعشرين سنة .

ولما بلغ باديس خبر قدوم يانس طلب إليه أن يطلعه على عهد الحاكم له بولاية طرابلس ، فامتنع يانس لاعتماده على مكانته من الحاكم بأمر الله . . فأرسل إليه باديس جعفر بن حبيب لقتاله سنة ٣٨٩ . . . وجمع جعفر الجيش اللازم وسار لقتال يانس بطرابلس ، إلا أنه تلبث بقرية أجاس بقرب قابس نحو ثلاثة أشهر ، وأخذ يكاتب يانسا أملا فى رجوعه ، ولما يئس من الاتفاق معه خيره بين ثلاث : إما أن يرسل سجله — العهد الذى كتبه له الحاكم — ، وإما أن يقدم إلى باديس للمفاوضة معه فيما جاء من أجله ، وإما أن يناجزه الحرب . فرد عليه يانس : أما القدوم على باديس فلا سبيل إليه ، وأما السجل فأنا أكبر من ذلك ، إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس ، وأما الثالثة فأنا أوافيك إلى موضعك وأقاتلك به . . وبعد هذا الجواب من يانس لم يبق لدى جعفر أمل فى الاتفاق معه ، فزحف إليه والتقوا بزنزور ، فنزل جعفر

---

(١) جاء فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص٢٠٧ حكاية عن عبد بربرى اسمه تموصلت تشبه حكاية عوصلة فى معناها وتاريخها . ولعل عوصلة هو تموصلت ، وهذا نصها :

تموصلت الأسود ، أو طزملت ، القائد البربرى . كان عبداً لابن وفرى والى القيروان ، فولاه طرابلس الغرب ، فجار على أهلها ، وظلمهم وأخذ أموالهم ، فحصل له منهم مال عظيم ، فلما انتهى خبر ظلمه إلى مولاه طلبه والتمس إشخاصه إلى القيروان لكشف الأمر ، فخافه وانهزم إشفاقاً على نفسه وماله ووصل إلى مصر ، وحمل بعض ما كان معه إلى الحاكم فتمكنت حاله عنده وتاثلت منزلته منه وولاه دمشق فأقام والياً عليها .

وفى ربيع الآخر من سنة ٣٩٣ أمر تموصلت الأسود بمغربى فضرب وطيف به على حماره ، ونودى عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ثم أمر به فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

غربيها ، ونزل يانس شرقيها ، ثم التقى الجيشان وكانت الهزيمة على يانس ، فقتل أكثر جنده ، وأخذ هو أسيراً ، فطلب من آسريه أن يأخذوه إلى جعفر فأبوا ، وقتلوه وأخذوا رأسه إلى جعفر ، ولجأ المنهزمون من جيش يانس إلى طرابلس .

فتّوح بن على

اجتمعت بقايا فلول جيش يانس بمدينة طرابلس وقدموا عليهم فتوح بن على ، وهو من أنصار يانس ، وتقدم جعفر بجيشه إلى المدينة وحاصرها فلم ينل منها شيئا . وفى أثناء حصاره لها وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يخبره أن فلفل بن سعيد وصل إلى قابس وأنه يريد طرابلس لمحاربته ، فارتحل جعفر عن المدينة إلى ناحية الجبل خوفاً من أن يأتيه فلفل من الخلف ، وأصبحوا مهددين بالهجوم من فلفل من الناحية الغربية ومن فتوح من المدينة من الناحية الشمالية . وقد ضاقت به وبأصحابه الحال ، فاعتزموا الرحيل إلى قابس ، وأن يقاتلوا كل من يعترضهم مهما كانت النتيجة . ولما سمع فلفل تنحى عن طريقهم ووصلوا إلى قابس .

يذكر المؤرخون أنه كانت حروب كثيرة بين صنهاجة وزناتة ، وهما من قبائل البربر المشهورة بالقوة والسلطان . وقد ازدادت هذه الحروب بعد أن رحل المعز لدين الله إلى مصر ، واختار لإمارة إفريقية آل زيرى الصنهاجيين . ولم يقع هذا الاختيار من بنى خزرون الزناتيين موقع الرضا ، وتحملوه على مضض إلى أن تحين الفرصة للثورة . وفى أيام باديس كان الصدام بينه وبين الخزرونيين على أشده ، وكان الخزرونيون فى جهات قابس ، وكان قائدهم فلفل بن سعيد ابن خزرون .

وسعيد بن خزرون هذا كان من ملوك مغراوة البرابر ، ومن مشاهيرهم وكانت له صلة قوية بالمنصور بن بلكين وكان أميرًا على طبنة . ولما

توفى سعيد بن خزرون سنة ٣٨٢ [1] كفنه المنصور فى سبعين ثوباً . وفى هذه السنة قدم ابنه فلفل على المنصور فى مدينة المنصورية بعد وفاة أبيه ، فزوجه ابنته ، وزفها إليه مزودة بثلاثين حملا من المال ، وأهدى إليه خيلا مسرجة بسروج محلاة بالذهب ، وبنوداً مذهبة ، وجعله أميراً على مدينة طبنة بدل أبيه ، ومع هذه الصداقة وهذه المصاهرة فقد كانت له مع باديس حروب كثيرة .

بنو خزرون

أسرة بربرية نسبها فى زناتة ، وقد حكموا طرابلس حوالى ١٥٠ سنة . وأول حاكم منهم عليها هو فلفل بن سعيد تولاها سنة ٣٩١ . وآخر حاكم منهم عليها محمد بن خزرون وطرد منها سنة ٥٤٠ . وقد صفا لهم الجو بعد أن سافر المعز لدين الله إلى مصر ، فاستقلوا بطرابلس ، وتغلبوا على ما كان بينهم وبين العبيديين من صعوبات.

فلفل بن سعيد

تعتبر إمارة فلفل بن سعيد على طرابلس عهداً جديداً فيه شيء من الاستقلال بالرأى وعدم التابعية للغير . وقد حملته عداوته للصنهاجيين على أن يستقل بطرابلس وينفرد بها عنهم ما أمكنته الفرصة .

قال التيجانى فى رحلته : « وبعد أن انتقل العبيديون إلى مصر استولى بنو خزرون الزناتيون على طرابلس ، وكان بينهم وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة وبقيت بأيدى الزناتيين إلى سنة ٥٤٠ » .

وفى أيام بنى خزرون تمتعت المدينة بشىء من الأمن والطمأنينة . أما الدواخل فكانت فى اضطراب دائم نتيجة لإغارات العرب المتكررة .

---

(١) يقال إن سعيد بن خزرون قتل فى حروبه مع زغبة ورياح من بنى هلال ، وهذا بعيد ، لأن بنى هلال لم يدخلوا إفريقية إلا سنة ٤٤٢ وبعد وفاة المنصور بنحو ٥٦ سنة .

تقدم أن جعفر بن حبيب أرسله باديس لحصار طرابلس وطرد فتوح ابن على منها، وقد ارتحل جعفر عنها هاربا أحينا علم بأن فلفل بن سعيد وصل إلى قابس يريد محاربته ... وأسرع فلفل بالقدوم إليها، وتزل له فتوح عنها فدخلها فى رجب سنة ٣٩١ . ووقعت حروب بين فلفل وبين باديس دامت نحو سنتين ، وملك فلفل طرابلس واستبد بها عن باديس . وأراد فافل أن تكون طرابلس تابعة للحاكم بأمر الله بمصر، فأرسل إليه بطاعته سنة ٣٩١ فقبل الحاكم طاعته ولكنه لم يعينه حاكماً على طرابلس ، بل أرسل يحيى بن حمدون الأندلسى وعقد له على طرابلس وقابس، ووصل يحيى إلى طرابلس فى التاسع من ربيع الأول سنة ٣٩٢ فقابله فلفل بالطاعة، وارتحل معه هو وفتوح إلى قابس لحصارها وطرد جعفر بن حبيب منها . ولكن جعفراً تحصن بالمدينة فلم يمكنهم اقتحامها عليه فرجعوا إلى طرابلس ، وأقام يحيى بن على مع فلفل فى طرابلس إلى سنة ٣٩٣ . وقد وجد من فلفل إعراضاً عنه واستبداداً بالأمر دونه ، مع أن يحيى هو المعين من قبل الحاكم بأمر الله والياً على طرابلس وقابس . وقد استاء يحيى من مقابلة فلفل ، فرجع إلى مصر فى هذه السنة بعد أن أخذ منه فلفل كثيراً من خيله وخيل أصحابه .

وقد وجد الحاكم فى نفسه على فلفل بسبب معاملته السيئة ليحيى فقطع عنه المدد ، واشتد غضبه عليه .

واستقل فلفل بطرابلس ؛ واستحكمت العداوة بينه وبين باديس وأصبح مقطوع الصلة من خليفة الفاطميين بمصر ، ومن خليفتهم بإفريقية ، فأرسل بطاعته إلى المهدى محمد بن هشام حاكم قرطبة يستنجده ويعده بالطاعة وضرب الدنانير باسمه . وقد مات فلفل سنة ٤٠٠ [1] قبل أن ترجع رسله من قرطبة .

---

(١) وقيل مات سنة ٣٩٩ .

ثورة الوليد بن هشام فى برقة

وفى سنة ٣٩٥ كان رجل فى برقة ادعى أن اسمه الوليد بن هشام بن عبدالملك بن عبد الرحمن الداخل لأنه من بنى أمية من ولد المغيرة ، وأنه هرب من المنصور ابن أبى عامر ، وكان يحمل الماء لوضوئه فى ركوة على طريقة الصوفية فقيل له أبو ركوة . وذهب إلى الشام ومكة واليمن ، وعاد إلى جهات مصر ، ونزل على بنى قرة من بنى هلال ، بنواحى برقة ، وأقام فيهم يصلى بهم ويعلم الصبيان القرآن . وانتهز فرصة صلته بالناس من طريق هذه المهنة ، فأخذ يشيع فى الناس أن عنده أدلة على أنه سيملك مصر ويهلك الجبابرة ، وما زال بالناس حتى استمالهم إلى دعوته ، وأعلن الثورة ضد الحاكم بأمر الله فى مصر ، لأن الحاكم كان قد أسرف فى قتل الناس من جميع الطبقات ، وقتل جماعة من بنى قرة وأحرقهم بالنار ، وقد وجدت دعوته منهم آذاناً صاغية . . ويقول ابن خلدون : إنه كان بين بنى قرة وبين لواتة ومزاتة ، وزناتة — جيرانهم من البربر — دماء وثارات قديمة ، فوضعوها واصطلحوا على يد أبى ركوة ، والتفوا حوله ، وبايعوه .

وكانت برقة أيام أبى ركوة خاضعة لنفوذ الحاكم بأمر إليه بمصر . وله فيها عامل اسمه أنيال الطويل يمثله ويحكم باسمه ، فعرفه بأعمال أبى ركوة فلم يهتم لها .

وفى رجب سنة ٣٩٥ ثار أبو ركوة ببرقة وحاصرها وقتل عاملها من قبل الحاكم بأمر الله بمصر[١] . وغنم سلاحاً وأموالا كثيرة . .

وتنبه الحاكم لخطره فأرسل إليه سنة ٣٩٦ جيشاً من خمسة آلاف فارس بقيادة أبى الفتوح الفضل بن صالح ، فبلغ هذا الجيش ذات الحمام[٢] ، وكانت بينها وبين برقة مفازة معطشة ، فأمر أبو ركوة أتباعه بتغوير المياه على قلتها ،

---

(١) قال ابن خلدون قتله برمادة ببرقة .

(٢) هى المعروفة الآن بالحمام أو حمام مريوط .

ففعلوا وأخذ أبو ركوة يستعد للقائهم على حدود برقة . . ووصل الفضل بن صالح حدود برقة فى حالة عطش وإعياء من طول السفر ، فقاتلهم أبو ركوة ونال منهم . وانضمت إليه جماعات من كتامة هرباً من ظلم الحاكم ، فقبلهم أبو ركوة وأمنهم ، وانهزمت عساكر الحاكم ، وقتل منهم خلق كثير ، ورجع أبو ركوة ظافراً .

وقد اغتر أبو ركوة بهذا النصر فى برقة ، فأخذ يفكر فى الهجوم على مصر ليحقق لأتباعه ما كان يعدهم به ، فردّد سراياه على الصعيد وأرض مصر ، وكثر أنصاره وقويت شوكته .

وفى سنة ٣٩٧ شرع الحاكم يدبر الحيل لأخذه ، فأشار على قواده بمكاتبته وإظهار ميلهم إليه ، فكاتبوا أبا ركوة بأنهم على رأيه وأنهم مستعدون للثورة معه ، فانطلت عليه الحيلة ، وزحف بجيوشه على مصر ، على اعتبار أن قواد الحاكم بأمر الله سينضمون إليه ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجموه بجيوش جرارة وخذله ماضى بن مقرب من شيوخ بنى قرة ، فهزم هزيمة منكرة ، ولم يتمكن من الرجوع إلى برقة فهرب إلى بلاد النوبة ، وطورد حتى قبض عليه وسلم إلى الفضل بن صالح فأنزله فى خيمة ، ثم جىء به إلى مصر ، وطيف به فى شوارعها على جمل لابساً طرطوراً ، وخلفه قرد يصفعه تشهيراً به ، ثم قتل فى منتصف شوال سنة ٣٩٧ وصلب .

ورو بن سعيد [١]

هو أخو فلفل . ولما مات فلفل اجتمعت زناتة وولوا ورُّو مكانه والياً على طرابلس . . . وهاجم باديس طرابلس ، فلم يمكن ورُّو الدفاع عنها وفر كثير من جندها إلى باديس ، فاضطر ورّو إلى التسليم فسلم هو ومن كان معه من زناتة ، وطلبوا الأمان من باديس فأمنهم ، وأحسن إليهم ، وشرط عليهم ألا

(١) ضبط فى الجزء الثالث من البيان المغرب : بواو وراء مضمومتين ، والراء مشددة ، وبعد الراء واو بدون ألف بعدها . ورسم فى تاريخ ابن الأثير بواو وراء مشددة وواو بدون ألف .

يقيموا فى طرابلس ، وأقطعهم نفزاوة وقسنطينة فانتقلوا إليهما ودخل باديس طرابلس ، ونزل قصر فلفل [١] .

ولم تؤثر الأحداث التى حصلت بين فلفل وورو وبين باديس على علاقة باديس بالحاكم بأمر الله ، فما كاد يتم الغلب لباديس على وروّ حتى أرسل إليه الحاكم هدايا كثيرة ، ومرسوماً بإضافة برقة إلى عمله تقديراً لإخلاصه ، ولما أبداه من ثبات فى دفاع الخزرونيين ، فوصلته الهدايا سنة ٤٠٣ وعين عاملا من قبله على برقة .

محمد بن حسن

وعين باديس محمد بن حسن عاملا على طرابلس بعد أن استسلم وروّ وذهب إلى قسنطينة . ولكن وُروّ لم يف بعهده لباديس ، فلم يلبث أن جمع حوله من زناتة وغيرهم وهجم على طرابلس فتصدى لهم محمد بن حسن ، ودافع دون المدينة ، وانجلت الحرب عن هزيمة وُرّو وأتباعه بعد أن قتل كثير منهم . . ثم جمع شمله وأغار على طرابلس مرة ثانية ، وحاصرها . . وكان خزرون أخو وُروّ فى طاعة باديس فأرسل إليه باديس هو وبعض أمراء زناتة بجهة الجريد أن يخرجوا لحرب وُروّ ، فخرجوا إليه وحاربوه « بعبرة » موضع بين قابس وطرابلس . ولم يلبث خزرون أن اتفق مع أخيه وُروّ سرًّا ، وقد أدرك باديس هذا الاتفاق ، فلم يجد خزرون بدًّا من الجهر بأمره ، وانضمت إليه زناتة ، والتحقوا جميعاً بوروّ سنة ٤٠٤ ، وكان قد وضع رهائن عند باديس . ولما تحقق باديس من خيانة وُروّ قتل من كان عنده من رهائن زناتة .

وتجمعت زناتة وضيقت الحصار على طرابلس ، ووقف محمد بن الحسن دونها يدافع عنها بكل ما أوتى من قوة .

---

(١) هذا القصر ما زالت بقاياه في مدينة طرابلس ، وقد طغى عليه البحر ، وتسمى هذه الجهة « فلفول » وصاحب القصر فلفل ، لا فلفول .

وفى سنة ٤٠٥ أرسل وُرّو بطاعته إلى باديس ، وهذا يدل على أن محمد ابن حسن انتصر عليه ولم يتمكن من دخول طرابلس . ومات وُرو فى شوال سنة ٤٠٦ .

وبعد موت وُرّو تنازع السلطة بعده ابنه خليفة وأخوه خزرون وانقسمت زناتة بينهما ، وانضم أكثرها إلى ابنه خليفة ، فحارب عمه خزرون حتى غلبه ، وبعث بطاعته إلى باديس على أن يحافظ على الأمن ويحفظ عهده بطرابلس فقبل ذلك . . . أما خزرون فبعد أن تغلب عليه ابن أخيه ذهب إلى مصر واستقر بها . ونشأ بها بنوه : خليفة ، وسعيد ، والمنتصر .

ويفهم من تعهد خليفة لباديس بالمحافظة على عهده بطرابلس أن باديس عين خليفة عاملا عليها حينما شرط على نفسه أن يحافظ على عهده بها ، وبقى فيها إلى أن تولى المعز . . يدل على هذا ما سيأتى من أن خليفة جهز حملة بحرية من طرابلس ليهاجم بها فتوح بن القائد حينما علم أنه كاتب المعز ليدخل تحت طاعته . وقد اعتبر المعز هذا العمل من خليفة خيانة ، ونقضاً للعهد الذى أعطاه لوالده ، فجهز جيشاً لغزو طرابلس وقاده بنفسه .

وفى سنة ٤٠٥ أرسل باديس هدية إلى الحاكم بأمر الله فى مصر ، ولما وصلت إلى المهدية أرسلت فى البحر مع يعلى بن فرج . وكان من ضمن الهدية مائة فرس بسروجها المذهبة ، وثمانية عشر حملا من الخزّ والمتاع النفيس المذهب وعشرون جارية ، وأشياء أخرى ثمينة . ولما وصلت الهدية ناحية برقة استولى عليها العرب ، وهرب يعلى بن فرج . وهؤلاء العرب من الهلاليين ، وكان شيخهم إذ ذاك مختار بن القاسم ، وقد استغاث بهم فلفل بن سعيد فى طرابلس على يحيى بن على فأغاثوه وهزموا يحيى ثم رجعوا إلى برقة . ولما استولوا على الهدية وهرب يعلى الذى أرسلت معه ثاروا على عامل برقة من قبل العبيديين وطردوه واستولوا عليها ... ولما زحف إخوانهم الهلاليون على إفريقية سنة ٤٤٢ زحفوا معهم ، وكان من شيوخهم ماضى بن مقرب .

ومما يلفت النظر ما تقدم آنفاً من أن فلفل بن سعيد استنجد بهؤلاء العرب ضد يحيى بن على إلى آخر ما ذكر . ولم يذكر فيما تقدم أن حصلت حرب بين فلفل ويحيى بن على ، وكل ما حصل هو أن يحيى بن على استاء من معاملة فلفل له فرجع إلى الحاكم بأمر الله فى مصر ، ولم نطلع على ما يفيد أنه وقعت بينهما حرب .

وكان باديس جواداً مقداماً يحب العفو عن المسيئين . . توفى بلسعة عقرب آخر ليلة من ذى القعدة سنة ٤٠٦ . ومدة حكمه عشرون سنة وأشهراً ،

عبد الله بن الحسن

لما آل الملك إلى المعز بن باديس كان محمد بن الحسن عاملا على طرابلس من قبل والده باديس ، فخلعه وأتى بدله بأخيه عبد الله . . وقدم محمد بن الحسن على المعز ، وأقام معه فى محل الرعاية والتقدير نحو سبع سنوات .

وفى سنة ٤٠٦ نقض خليفة بن ورو عهده مع الصنهاجيين الذى كان أعطاه لباديس ، وهاجم طرابلس وضيق عليها ، وطال حصاره لها ، وبذل عبد الله بن الحسن ما أمكن فى الدفاع عنها ، وعجز خليفة عن إقتحامها عليه .

وفى سنة ٤١٤ تغير المعز على محمد بن الحسن — وكان وزيره وصاحب جيشه — لأمور أنكرها عليه ، منها أنه استأثر لنفسه ببعض الجبايات ، فقتله . وكان هذا العمل من المعز سبباً فى ثورة عبد الله بن الحسن على باديس ، وانضمامه إلى الخزرونيين انتقاماً لأخيه ، وفتح مدينة طرابلس لخليفة بن ورّو ودخلها ه

خليفة بن وُرّو

اتحدت سياسة عبد الله بن الحسن وخليفة بن وُرّو ضد الصنهاجيين : الأول موتور بأخيه والثانى ثائر عليهم للأخذ بثأر الخزرونيين الذين قتلهم الصنهاجيون . واستعان خليفة بعبد الله على قتل الصنهاجيين الذين كانوا يحاربون مع عبد الله داخل المدينة قبل أن يثور عليهم فقتلوهم قتلا ذريعاً . . فاستغاث نساء المقتولين بالمعز ، فقبض على أولاد عبد الله بن الحسن وجماعة من أهله ، فحبسهم ثم قتلهم .

ولم ينس خليفة لعبد الله بن حسن حروبه معه وشدة دفاعه عن طرابلس ، فلم يلبث — بعد أن أوقع بالصنهاجيين فى طرابلس — أن قبض عليه وقتله واستولى على قصره بما فيه من مال ومتاع ، حتى نسائه وبناته ، واتخذ قصره مقرًّا له [1]. ووصل خليفة سلسلة حكم بنى خزرون فى طرابلس بحلقتها الأولى التى كانت انقطعت سنة ٤٠٣ باستسلام ورو لبادس وتعيين محمد بن الحسن على طرابلس .

ويود خليفة ألا يدخل فى طاعة صنهاجة ، كما يود أن يحتفظ بطرابلس ، ولكنه واقع بين سلطة العبيديين فى مصر وسلطة خلفائهم فى إفريقية ، ولأجل أن يأمن شر هذين العدوين ، أو أحدهما على الأقل كاتب فى سنة ٤١٧ الظاهر خليفة الفاطميين بمصر ، ووعده بالطاعة ، وأن يحفظ عهده على طرابلس . ثم أرسل أخاه حمادا إلى المعز بن باديس بهدايا من عنده فتقبلها ووصله باديس بهدايا مثلها . وبذلك أمن خليفة بن ورو جانب خليفة الفاطميين بمصر بما وعده به ، وجانب المعز فى إفريقية بما أهداه له ، وتم لخليفة الأمر فى طرابلس .

---

(١) قال صاحب المسألة الشرقية : إن خليفة بن ورو قتل عبد الله بن حسن واستولى على طرابلس وخاطب الخليفة الظاهر سنة ٤١٧ . وبقيت طرابلس بأيدى بنى خزرون واستقلوا بها وأصبحوا ملوكها إلى أن قدم العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على افريقية .

سعيد بن خزرون

تقدم أن خزرون بن سعيد لما تغلب عليه خليفة بن أخيه وُرّو ذهب إلى مصر ، ونشأ بها أبناؤه سعيد وخليفة والمنتصر .

والآن يعود سعيد بن خزرون للأخذ بالثأر من ابن عمه خليفة بن وُرّو . فقدم من مصر سنة ٤٣٣ ، ووصل إلى طرابلس وكان بها ابن عمه خليفة بن ورّو ، وأقام بضواحيها يؤلب عليه البربر ، والتفت حوله زناتة وكثرت أنصاره وهاجم المدينة فى جموع كثيرة من زناتة وغيرها . ورأى خليفة بن وُرّو ألا قبل له بهذه الجموع فتخلى عن المدينة وفرّ هارباً ، وتمكن سعيد من دخول المدينة وأصبح حاكماً عليها إلى أن قتل سنة ٤٤٦ .

خزرون بن خليفة

خزرون هذا حفيد وُرّو ، وبعد أن قتل والده خليفه لأسباب لم نطلع عليها صار والياً على طرابلس . ويقال إن رئيس الشورى الذى كان زمن والده هو الذى هيأله الأمور حتى تمكن من الحكم .

وفى أيام خزرون هذا ثار الطرابلسيون على مذهب العبيديين الشيعة بزعامة الأستاذ أبى الحسن بن المنتصر ، ونبذوا تقاليدهم الخاطئة وبدعهم الممقوتة وخلص الطرابلسيون من زيغهم واعتنقوا مذهب الإمام مالك كبقية إفريقية . وبقى خزرون بن خليفة والياً عليها إلى سنة ٤٥٠ .

المنتصر بن خزرون بن سعيد

المنتصر بن خزرون أحد أولاد خزرون الثلاثة الذين فربهم والدهم إلى مصر وتربوا فيها . وقد جاء إلى إفريقية كما جاء أخوه سعيد من قبل . . . وفى ربيع الأول من سنة ٤٥٠ تقدم إلى طرابلس فى جموع كثيرة لينتزعها من خزرون

ابن خليفة ، ففرخزرون بن خليفة وترك طرابلس ، فاحتلها المنتصر بن خزرون .

تقدم أن خزرون بن سعيد كان يناصر الصنهاجيين . وكان أخوه وُرّو ابن سعيد ثائراً ضدهم . ولما ثار أبو الحسن على مذهب الشيعة فى طرابلس كان يحتمى بسلطة خزرون بن خليفة وهو حفيد وُرّو . ولما تولى المنتصر الأمر فى طرابلس — وهو من ذرية خزرون — انتقم من الأستاذ أبى الحسن ، ونفاه إلى غنيمة [1] . ونكل بكثير من أنصاره .

ولما تغلبت العرب على إفريقية أيام تميم بن المعز قوى نفوذ المنتصر فى جهات طرابلس ، ولم يرع عهده للصنهاجيين ، فجمع حوله بنى عدى من بنى هلال وذهب إلى قلعة بنى حماد لغزو بقايا الصنهاجيين هناك ، وأصبح لا يخاف نفوذهم فى ناحية القيروان وتونس لأن نفوذ تميم انحصر فى المهدية . وتقدم المنتصر إلى أن دخل أشير ، فخرج إليه الناصر من آل حماد وطرده حتى دخل الصحراء ، ولما رجع الناصر عاد المنتصر إلى غزو أراضى بنى حماد . وقد احتال عليه الناصر وأوعز بقتله إلى عروس بن هندى — وهو من أنصاره — فقتله غيلة سنة ٤٦٠ .

خليفة بن خزرون

هو أخو المنتصر أحد الثلاثة الذين تربوا فى مصر . ولما قتل أخوه المنتصر تولى بعده على طرابلس ، وبقى والياً عليها إلى سنة ٤٨٨ ، وقد ساءت سيرته ، واستبد بالناس حتى سئموا حكمه ، وصاروا يتربصون به .

شاه ملك

رجل تركى ابن أحد أمراء الأتراك ببلاد الشرق ، نزل به ضيم فى بلده اقتضى خروجه منه . فخرج فى جماعة من أنصاره إلى مصر زمن الأفضل أمير الجيوش فنزل ضيفاً عليه وأكرم وفادته ، وأقطعه أرضاً وأعطاه أموالا ... ولكن هذا

(١) قرية من قرى مسلاتة .

التركى كفر النعمة وجحد المعروف ، وأتى أعمالا أغضبت أمير الجيوش ، فغضب عليه وطرده هو وأتباعه ، فخرج شاه ملك فى نحو مائة فارس ؛ وأمكنهم أن يتحصلوا على سلاح وتوجهوا إلى إفريقية . ولما وصلوا طرابلس تسقطوا أخبارها ، فعلموا أن السكان مستاءون من حاكمهم ويتمنون زواله . . . وقد أمكن شاه ملك أن يتصل ببعض الأهالى واتفق معهم على مهاجمة المدينة ، ووعدوه بفتح أبوابها . وقد تم ذلك ، ولم يجد شاه ملك عناء فى التغلب على المدينة ، فدخلها وفر خليفة ابن خزرون[1].

وقد اتصلت أخبار شاه ملك بتميم بن المعزّ بالمهدية — وكان أمير إفريقية إذ ذاك — فأرسل جيشاً إلى طرابلس وحاصرها ، وضيق عليها حتى اضطر أهلها إلى فتح الأبواب ، واستسلم شاه ملك ومن معه وأخذ أسيراً إلى المهدية .

وقد احتال شاه ملك فى تحسين سياسته مع تميم حتى أصبح منه فى محل الرضا ، ولكن مالبث أن عاوده نكران الجميل فأتى أفعالا غيرت تميماً عليه ، فحذر تميم ابنه يحيى من الانقياد إلى آرائه ، فأخذ شاه ملك فى التحايل على يحيى حتى أصبح من أصدقائه . واتفق أن خرج يحيى إلى الصيد فى جماعة من أصدقائه ومعهم شاه ملك فلما أبعدوا حرض أصحاب يحيى عليه ، فقبض عليه وذهب به إلى صفاقس . وبلغ الخبر تميماً فأرسل فى أثرهم جيشاً فلم يدركهم . . . وخرج حمّو حاكم صفاقس لملاقاة يحيى ، وسار فى ركابه ، وأظهر له ما يليق به من الخضوع والاحترام وكان بين حمّو وتميم منافرة ، ولكن هذا لم يمنعه من احترام يحيى وتكريمه .

وبقى يحيى أياماً عند حمّو لم يخاطبه أبوه بشىء . وكان أبوه قد جعله ولى عهد له ، ولكنه لما وقع فى هذه المخالفة بتأثير من شاه ملك أقام أخاه المثنى ولى عهده .

ثم إن حمو صاحب صفاقس خاف يحيى على نفسه ، وأن يثور معه الناس والجند فأرسل إلى تميم يطلب منه أبناء شاه ملك ومن معه من الأتراك ، ويرسل

---

(١) لم يذكر أحد أين ذهب .

إليه ابنه يحيي ، فتردد تميم أول الأمر ، ثم أرسل أبناء الأتراك إلى حمو ، وأرسل حمو يحيي إلى تميم ، وبقي يحيي محجوباً عن والده مدة ، ثم عفا عنه وقربه . وجعله ولى عهده وجهز تميم جيشاً إلى صفاقس بقيادة ابنه يحيي ، فحاصرها برًّا وبحراً ، وضيقوا على أهلها ، وأقاموا على حصارها شهرين، ثم استولوا عليها وفر الأتراك إلى قابس .

ولم تطب نفس المثنى برضاء والده عن أخيه يحيي وإسناد ولاية العهد إليه بعد أن أسندت إليه هو فى غياب أخيه يحيي ، فأراد أن يدس له عند والده فلم يقبل والده منه . وانتهى الأمر إلى أن تغير تميم عن المثنى وأمر بإخراجه من المهدية هو وأصحابه ، فركب فى البحر إلى صفاقس ، فمنعه حمّو من دخولها ؛ فذهب إلى قابس . وكانت تحت حكم مكى بن كامل الدُّهمانى ولحق به شاه ملك وأصحابه الأتراك ، فأخذ المثنى يغرى كاملا بغزو صفاقس والمهدية ، وضمن له الإنفاق على الجيش من ماله ، وما زال به حتّى وافق ، وجهزوا جيشاً لغزو صفاقس ومعهم شاه ملك وأصحابه ونزلوا عليها . فأرسل إليهم تميم جيشاً ، ولما علموا ألا قبل لهم به ساروا إلى المهدية ، وكان يحيي هو الذى تولى الدفاع عنها ، وأظهر من حسن التدبير والشهامة ما نصره على أعدائه ، ورجع المثنى وشاه ملك خائبين ، ولم يبلغوا غرضاً . ونفد ما عند المثنى من مال ، وأصبح يحيي سيد الموقف .

وإلى هنا انتهى ما عثرنا عليه من أخبار شاه ملك ، ذلك الأفّاق التركى الذى كان يقابل الإحسان بالإساءة والمعروف بالمنكر ، إرضاء لما كان يجيش فى نفسه من حب العظمة والسيطرة .

المعز بن باديس[1]

لقبه شرف الدولة . ونودى به أميراً يوم السبت الثالث من ذى الحجة سنة ٤٠٦ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام، اشتغل فيها ذوو الرأى من رجالات الدولة بتهدئة الخواطر ، وتهيئة النفوس للموافقة على إمارته ، وعمره إذ ذاك ثمان سنوات وأربعة أشهر . وأخذت له البيعة فى اليوم الثانى والعشرين منه .

وفى سنة ٤١٣ تزوج المعز بن باديس وعاش فى نعيم وملك مقيم ، وكانت له ندوات علمية وأدبية ، منها : أنه كان يوماً جالساً فى مجلسه وعنده جماعة من الأدباء ، وبين يديه أترجّة ذات أصابع ، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً . فعمل أبو الحسن بن رشيق القيروانى الشاعر المشهور بيتين :

أترجّـــة سبطة الأطراف ناعمة　　تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنمـــا بسطت كفاً لخالقها　　تدعـــو بطول بقاء لابن باديس

وفى سنة ٤١٤ جهز خليفة بن ورّو حملة بحرية من طرابلس على فتوح بن القائد . وذلك لما بلغه أن فتوحاً كاتب المعز بن باديس فى الانضمام إليه فجهز له المعز جيوشاً كثيرة وركب بنفسه قاصداً إلى طرابلس . وفى أيامه قويت شوكة زناتة ووقعت بينه وبينهم حروب استمرت سنين كثيرة . وفى سنة ٤٢٨ هزمهم هزيمة منكرة .

ولما تولى المعز إفريقية كان أكثر الناس على مذهب الشيعة الذى يتمذهب به الفاطميون ولا يقدر أحد أن يجاهر بغيره من المذاهب الأخرى ، اللهم إلا الإباضية الذين كانوا بتيهرت وجبل نفوسة وغيرهما من الجهات البعيدة عن نفوذ الفاطميين . فقد بقوا على مذهب عبدالله بن إباض .

---

(١) نعود إلى الكلام على آل زيرى بعد أن استوفينا الكلام على آل خزرون الذين كانوا ينافسون آل زيرى السيادة على طرابلس

وقد تولى تربية المعز بن باديس وزيره أبو الحسن الزّجال ، وكان عالماً فاضلا يؤيد مذهب أهل السنة ، إلا أنه كان يخفى أمره على الشيعة ، فحرص على أن يُنشّئ المعز على مذهب أهل السنة ، ويحاول صرفه عن مذهب الشيعة ما أمكنه ذلك ، ودأب على ذلك فى السرّ ، وفقهه على مذهب مالك ، وقد تم له ما أراد من غير أن يعلم الشيعة بشيء من ذلك .

وفى سنة ٤٣٥ وصلت أخبار إلى الفاطميين بمصر دلت على كراهة المعز لمذهبهم ، فوجدوا عليه وقوّى شكهم فيه أنه أصبح يخاطبهم بغير ما ألفوه من آبائه من ألقاب التعظيم والتفخيم ، وقد اقتنع المعز بفساد مذهب الشيعة . واعتزم القضاء عليه فى إفريقية ولكنه كان يتحين الفرص للتخلص منه . . . وكان يوجد فى عسكر المعز كثير من الشيعة أنصار الفاطميين . . . قال صاحب البيان المغرب : « وكان المعز ذات يوم يسير فى موكبه فكبا به جواده فقال : أبو بكر وعمر ، فسمعها الشيعة فتنادوا لقتله وحال بينهم وبينه أنصاره ومن كان يميل إلى مذهب أهل السنة ويكتم أمره ، ووضعوا السيف فى الشيعة حتى قتل منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف ، حتى سمى ذلك الموضع « بركة الدم » . . . .

ونقل ابن الأثير فى أسباب قتل الشيعة ما هو معقول أكثر مما تقدم ، فقال : « إن المعز بن باديس ركب ومشى فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة ، فسأل عنهم ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » . فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى من القيروان ، وهو مكان يجتمع فيه الشيعة فقتلوا منهم ، وكان ذلك رغبة العسكر وأتباعهم طمعاً فى النهب . وانبسطت أيدى العامة فى الشيعة . وأغراهم عامل القيروان وحرّضهم . وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد ، فبلغه أن المعز بن باديس يريد عزله ، فأراد إفسادها . فقتل من الشيعة خلق كثير ، وأحرقوا بالنار ، ونهبت ديارهم ، وقتلوا فى جميع إفريقية . واجتمع جماعةٌ منهم فى قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم ، فاشتد عليهم الجوع ، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم

وبلجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع ، فقتلوا كلهم .

وكان الشيعة يسمونهم بالمغرب « المشارقة » نسبة إلى عبد الله الشيعى وكان من المشرق . . . اهـ ما ذكره ابن الأثير . وانتشر خبر هذا الحادث بين الناس فتناولوا الشيعة بالقتل فى جميع أنحاء إفريقية .

ولمناسبة الثورة على الشيعة قال فيهم القاسم بن مروان الشاعر :

وسوفَ يُقتّلون بكل أرْضٍ كما قُتلوا بأرض القيروانِ

وقال شاعر آخر :

يا معز الدين عش فى رفعةٍ وسرور واغتباط وجذَلْ

أنت أرضَيتَ النبى المصطفَى وعتيقاً [1] فى الملاعين السّفَلْ

وجعلت القتل فيهم سُنة بأقاصى الأرض فى كل الدول

وقد بلغ من كراهة الناس لمذهب الشيعة العبيديين ، وبدعهم المنكرة أن تركوا صلاة الجمعة وهجرت المساجد . . . وما زال المعز يعمل للقضاء على مذهب الشيعة حتى كانت سنة ٤٤٠ فأعلن انضمامه إلى الدولة العباسية ، وخطب للقائم بأمر الله ، وقطع الخطبة للفاطميين بمصر ، ومزّق أعلامهم وأحرقها ، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التى كانت عليها أسماؤهم [2] ، وضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكتب على الآخر : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . وأمر بلعنهم على المنابر فلعنوا بأقبح أوصافهم ، وقضى على الشيعة ومذهبهم ، وكان هذا مشجعاً للناس على اضطهادهم والفتك بهم كما قضى على مذاهب الصفرية والإباضية [3] والنكارية ، والمعتزلة . وحمل كل الناس على مذهب الإمام مالك . وجاءته المراسيم والخلع من القائم بأمر الله العباسى ببغداد مع أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى ، من بنى هلال الذين كانوا مع القرامطة ،

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه

(٢) ضربت الدنانير بأسمائهم سنة ٢٩٦ ، وأبطلها المعز بن باديس سنة ٤٤١ بعد أن تعامل الناس بها ١٤٥ سنة .

(٣) بقى قليل منهم على مذهبه . . ويظهر أنهم من سكان جبل نفوسة .

وانقطعت صلته بالعبيديين فى مصر . وكان مذهبهم قد انتشر فى برقة وطرابلس وفى كل مكان شمله حكمهم .

وفى سنة ٤٤٣ أرسل الأمير جبارة بن مختار من برقة بطاعته إلى المعز بن باديس ، وأعلمه بأنه هو وأهل برقة قد نبذوا طاعة العبيديين وأحرقوا أعلامهم ولعنوهم على المنابر ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى .

وأول من ثار على مذهب الشيعة فى طرابلس ، ونبذ تقاليدهم الباطلة ، ودعوتهم المضللة هو العلامة الشيخ على بن محمد المنتصر ، وكنيته أبو الحسن ...

ولما قتلت زغبة[1] سعيد بن خزرون سنة ٣٨٢[2] فتح الأستاذ أبو الحسن لخزرون بن خليفة مدينة طرابلس فدخلها . ويدل سياق الكلام على أن خزرون ابن خليفة كان من أعداء العبيديين الشيعة والثائرين عليهم ، ولعله ابن خليفة ابن وُرّو ؛ لأن وُرّو وأولاده كانوا ثائرين على باديس كما تقدم .

ولد الأستاذ أبو الحسن سنة ٣٤٨ وتوفى بغنيمة سنة ٤٣٢ . . . وغنيمة بلد من بلاد مسلاتة .

وكانت أعمال المعز ضد الشيعة العبيديين ونبذ عهدهم مما أوغر صدروهم عليه ، وحملهم على التفكير فى الانتقام منه . . . ولم يجدوا حيلة للانتقام منه ، وإزالة ملكه من إفريقية إلا أن يسلطوا عليه العرب ، ويمدوهم ، بما يساعدهم على محاربته ، وقد تم لهم ذلك فى خبر يأتى ذكره قريباً .

---

(١) زغبة : بزاى مضمومة وغين معجمة و باء بعدها تاء مربوطة : قبيلة من بنى هلال بن عامر ، تغلبوا على نواحى طرابلس وقابس .

أما زغب — بزاى مضمومة وغين معجمة — فهو زغب بن مالك أبو قبيلة من بنى سليم ، انتقلت من الحجاز إلى إفريقية. وذكره فى تاج العروس : زعب — بعين مهملة ، كجلد — أبو قبيلة من بهثة من بنى سليم .

(٢) هكذا يقول التجانى فى رحلته ، وهذه الرواية وما فيها مما يتعلق بأبى الحسن منقولة عنه ، وقد حاولت جهدى تنسيقها وعدم تضاربها مع غيرها ، والعهدة عليه .

دخول العرب إفريقية[١]

جاء فى تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ١٧٠ فى سنة ٤٤٢[٢] قطع المعز بن باديس فى افريقية الخطبة للعلويين . فأرسل له المستنصر العلوى من مصر فى ذلك ، فأغلظ بن باديس فى الجواب . فاتفق المستنصر مع وزيره الحسن ابن على اليازورى[٣] على أن يرسلوا زغبة ورياح إلى ابن باديس فى إفريقية وزغبة ورياح قبيلتان من العرب ، وكانت بينهم حرب ، فأصلح المستنصر بينهم وجهزهم بالأموال وأرسلهم لقتال ابن باديس فى إفريقية .

وذكر غير أبى الفداء أن الوزير اسمه أبو القاسم الجرجرائى .وما أثبتناه أصح .

وليس أحد ينكر شأن العرب فى إفريقية ، وأدوارهم الخطيرة فيها . وقد عرف العرب فى إفريقية منذ أن دخلوها فاتحين سنة ٢١ ، ٢٢ ، وتكرر ترددهم عليها وفتوحاتهم لها فى أزمان مختلفة ذكرنا تواريخها فى مواضعها . ومنذئذ صاروا يتكاثرون فيها شيئاً فشيئاً . . . ونقصد الآن الكلام على أخطر أدوارهم فيها ، وهو دخولهم لها سنة ٤٤٢[٤] ، حينما دخلوها فى تلك الجموع الهائلة بإغراء من المستنصر بالله الفاطمى حاكم مصر للانتقام من المعز بن باديس لما رفض طاعتهم ، ونبذ مذهبهم وانضم إلى الخلافة العباسية فى بغداد ، بعد أن كان أباؤه خلفاء لهم فى إفريقية يجبون لهم أموالها ، ويخطبون لهم على منابرها .

كانت قبائل من العرب كثيرة تسكن على ضفاف النيل بصعيد مصر ، وكانت أبعدت عن مواطنها الأصلية بجزيرة العرب ، وكانوا ممنوعين من الانتقال

---

(١) كانت هذه القبائل لها السيادة فى العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام . ولما استبد الموالى من العجم بالدولة العباسية اعتصموا بصحراء نجد ، ثم انضموا إلى القرامطة أيام دولتهم بالشام . ولما استولى الفاطميون على دولة القرامطة جاءوا بهذه القبائل إلى صعيد مصر ، ومنعوها من الانتقال إلا بإذن منهم . ولما انتقلوا إلى إفريقية كانت الكعوب من بنى سليم من أبرز القبائل فى الرياسة. ولما ظهر فى إفريقية أولاد غانية وقراقش ناصروهم فى الثورة على الحفصيين . وكان بينهم وبين الدولة الحفصية حروب دامت سنين نالوا منها ونالت منهم ، وأقطعت لهم أراضى كثيرة ، وأغدقت عليهم الأموال والرتب الكبيرة استجلاباً لرضاهم ، ولم يتأثروا بذلك ، بل داموا على عداوتها حتى انقرضت .

(٢) هذه رواية أبى الفداء . وتقدم أنها سنة ٤٤٠ .

(٣) يازور من أعمال الرملة بفلسطين .

(٤) وقيل ٤٤٠ . وهذا لا يصح لأن هذا تاريخ قطع الخطبة للفاطميين .

عن الأماكن التى عينت لهم . وقد سبب لهم هذا الحجر ضيقاً فى عيشهم ، فكانوا يتمنون أن لو أتيحت لهم فرصة التنقل : وطبيعة عيش البدوى تحمله دائماً على التنقل . . وفكر المستنصر فى استغلالهم ضد ابن باديس للانتقام منه . فاتصل بشيوخهم ، وصار يصف لهم إفريقية وما فيها من خير ونعيم ، وما فيه ابن باديس من غنى وبذخ ، وصار يهوّن عليهم شأنه ، ويقلل من قوته ومقاومته ، ولا يفتر عن تحريضهم على غزو إفريقية . لأخذ هذا النعيم الكثير والملك الكبير ، ولم ينس أن يمنيهم بالمساعدة وأنهم فى رعايته وعلى بال منه ، وما زال بهم حتى أجابوا دعوته ، ويعلم الله أنه لا يريد من وراء ذلك لهم خيراً . وإنما يريد الانتقام من ابن باديس بهذه الأيدى التى عرفت بممارسة الحروب وإتقان أساليبها بعد أن عجز عن الانتقام منه بنفسه . . . فأعطاهم من المال ما يعينهم على السفر ، وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون ، وقال لهم : « لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرون بعدها » .

فرحلوا عن صعيد مصر سنة ٤٤٢ وكانوا زهاء أربعمائة ألف وقد توقفوا فى برقة برهة من الزمن ، وأرسلوا أحد شيوخهم — وهو مؤنس بن يحيى من بنى مرداس ، من رياح أحد بطون بنى هلال — وكان سيداً فى قومه ، ليرود لهم إفريقية ، فذهب إلى المعز ونزل ضيفاً عليه ، وقد دهش لما فيه المعز من نعيم وأبهة ملك ، وما لاقاه منه من كرم وحسن ضيافة . وقد عرض عليه المعز — بعد أن عرف ما جاء من أجله — أن يتخذ من بنى عمه رياح جنداً له ، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللا ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بهذا الرأى ،

فقال له مؤنس : إنهم قوم لا طاقة لك بهم ،

فقال له المعز : هم دون ذلك ، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب وظن المعز أن مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه وصارحه بذلك ، فأسرها مؤنس فى نفسه ، ورجع إلى العرب فى برقة ، ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم فى الإسراع بالرحيل ، فرحلوا عن برقة ، وانسابوا فى أرض إفريقية فى جموع لا يدرك أولها ولا ينتهى آخرها .

ومن أشهر قبائلهم التى دخلت إفريقية وأكثرها عدداً بنوسليم[١] بن منصور ، وبنو هلال[١] ـ بن عامر . . . ومن الهلاليين زِغبة ، والأثبج ، وعدى ، ورياح[٢] وهم من بنى عامر بن صعصعة. وبنو جشم بن معاوية بن بكر. وهذه القبائل مضرية عدنانية . . . وقبيلة كهلان وهى قحطانية ، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة .

وجاء « فى نهاية الأرب فى فنون الأدب » ما يلى :

« ورحل بنو رياح والأثبج وبنو عدى إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان ، فقال مؤنس : ليس هذا برأى ، والأمر يحتاج إلى تدبير ، فقالوا له : وماذا نصنع ؟ فقال : ائتونى ببساط ، فأتوه به ، فبسطه وقال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه ؟ فقالوا : ومن يقدر على هذا ؟ ، فقال أنا . فطوى البساط وأتى إلى طرفه وفتح منه مقدار ذراع ووقف عليه ، ثم فتح

---

(١) كانت بطون بنى هلال وبنى سليم من مضر ، وكانوا أحياء كثيرة . ومساكنهم فى الحجاز ونجد ، فبنو سليم مما يلى المدينة ، وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف .

ولما ظهر القرامطة وتغلبوا على أمصار الشام انحاز اليهم بنو سليم ، وكثير من ربيعة بن عامر ، وصاروا جنداً بالبحرين وعمان .

ولما تغلبت شيعة عبيد الله المهدى على مصر والشام ردوا القرامطة على أعقابهم إلى مقرهم بالبحرين ونقلوا أشياعهم من العرب ، من بنى هلال وسليم ، وأنزلوهم بصعيد مصر بالعدوة الشرقية . وهذا سبب وجودهم بصعيد مصر .

ولمناسبة ذكر بنى سليم وبنى هلال : نذكر تعريفاً لسليم الذى ينسب اليه بنو سليم . وهلال الذى ينسب اليه بنو هلال فنقول :

هلال بن عامر ، بن صعصعة ، بن معاوية ، ابن بكر ، بن هوازن ، بن منصور ، بن عكرمة بن خصفه ، بن قيس عيلان بن مضر (من العدنانية)

كان بنو هلال يقطنون الحجاز ونجدا حول مكة وفى بسائط الطائف ، ما بينه و بين جبل غزوان .

ثم أقاموا بالشام إلى أن ظعنوا إلى مصر والمغرب :

وسليم هو سليم بن منصور ، بن عكرمة بن خصفه وخصفة بطن من قيس عيلان بن مضر ، من العدنانية.

(٢) رياح من الهلاليين ، جدهم رياح بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال . وكانت قبيلة رياح من أعز قبائل بنى هلال وأكثرهم جمعا عند دخول إفريقية . وكانت رياستهم فى مرداس بن رياح ومرداس بطن من بطون رياح ، ثم انتقلت رياستهم إلى الدواورة أبناء داود بن مرداس بن رياح . ومن البطون التى تنتسب إلى مرداس بنو موسى بن عامر . وبعض النسابة يذكر مرداساً فى بنى سليم ، ولعله مرداس آخر . وذكر ابن خلدون أنه يوجد مرداس فى رياح ، ومرداس فى بنى سليم .

شيئاً آخر ودخل إليه ، وقال هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب ، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأتوها فإنكم تملكونها . فقال له رافع ابن حماد — وهو أحد رؤساء العرب — صدقت يا مؤنس ، والله إنك لشيخ العرب وأميرها ، فقد قدمناك على أنفسنا ، فلسنا نقطع أمراً دونك » .

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لبنى سليم شرقيها : برقة وما حولها ، وقد وجدوها خالية لأن أهلها حاربوا المعز لدين الله ففتك بهم حتى كاد يفنيهم ، وخرج لبنى هلال غربيها : طرابلس وقابس ، وانضم بنو جشم إلى بنى هلال . . . واستقرت زغبة فى طرابلس سنة ٤٦٦ ، واجتازت رياح والأثبج وبنو عدى إلى إفريقية — وهم من بنى هلال — فأضرموها ناراً .

وكان فى العرب كثير من غير بنى هلال وبنى سليم : من فزارة ، وأشجع من بطون غطفان ، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية ، والمعقل من بطون اليمنية ، وكلهم مندرجون فى بنى هلال وفى الأثبج على الخصوص ؛ لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال ، فأدخلوا فيهم .

وكان الأثبج من الهلاليين أوفر عدداً ، وأكثر بطوناً ، وكان التقدم لهم فى حملتهم . وكان منهم الضحاك ، وعياض ، ومقدم ، والعاصم ، ولَطيِّف ، ودريد ، وكرفة ، وغيرهم حسبما يظهر فى نسبهم .

وكان لهم جمع وقوة . وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية .

ومن أشراف رجالات العرب : حسن بن سرحان ، وأخوه بدر ، وفضل ابن ناهض ، وهؤلاء من دريد من الأثبج

ومنهم ماضى بن مقرب ، وسلامة بن رزق فى بنى كبير ، فى بطون كرفة ، من الأثبج . وذياب بن غانم ، وينسبونه فى بنى ثور ، وموسى بن يحيى ، وينسبونه فى مرداس رياح ، لا مرداس سليم . وهو من بنى صقر ، بطن من مرداس رياح .

ومنهم زيد بن زيدان ، وينسبونه فى الضحاك ، وفارس بن أبى الغيث ، وأخوه عامر ، والفضل بن أبى على ، ونسبهم فى مرداس .

قال ابن خلدون : وكل هؤلاء يذكرون فى أشعارهم . ثم قال : وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم : زغبة ، ورياح ، والأثبج ، وقرة . وكلهم من هلال ابن عامر .

ولم يكن كل الهلاليين اجتازوا إلى إفريقية مع جماعات الهلاليين وبنى سليم ، بل كان من الهلاليين جماعة قبل ذلك ببرقة ، أيام الحاكم العبيدى ، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين ببرقة ، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال . (ملخص من ابن خلدون) .

مناسبة

ولمناسبة ذكر بنى هلال نذكر قصة الجازية . كما ذكرها ابن خلدون تلك القصة التى تمثل فيها الحب فى أقوى صفاته وأعنفها . والتى ما زالت تذكر فى مجالس سمر سكان إفريقية .

قال بن خلدون :

الجازية أخت الحسن بن سرحان ، خطبها منه الشريف شكر بن أبى الفتوح الحسن ابن أبى جعفر ، بن هشام محمد بن موسى بن عبد الله من أشراف مكة ، وينتهى نسبه إلى إدريس ، فأعطاها له ، وولدت منه ولداً اسمه محمد . ثم حصلت مغاضبة بين الشريف والحسن أخى جازية ، وأجمعوا الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه فى أخذها ، فطلبت منه الإذن لزيارة أبويها ، فأذن لها ، وذهب معها ، وفى أثناء الرحلة تركوه ، فرجع ، ووجد عليها ، ووجدت عليه حتى ماتت بحبه اهـ .

وحصلت بين العرب وبين المعزبن باديس حروب هائلة وملاحم كادت تقضى على الطرفين . وعبثاً حاول المعز إغراءهم بالمال لمسالمته والانضمام إلى صفه . . . وكانت زناته تقيم بجهات طرابلس فدهمهم العرب بجموعهم ،

واجتازوهم إلى القيروان قوة واقتداراً بعد حروب طاحنة . وقد حشد لهم المعز ما أمكنه من خيل ورجل ، وقابلهم بنفسه فى جيوش جرارة بين قابس والقيروان[١] وثبت له العرب فى جيش لايزيد على ثلاثة آلاف . حدثنا عنه صاحب البيان المغرب أنه لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأن جيش ابن باديس لا يقل عن ثلاثين ألفاً . وظهر الاختلال فى صفوفه ، وهربت صنهاجة وزناتة وبقى المعز فى جنوده السودان وكانوا لا يقلون عن عشرين ألفاً ، وقتل منهم بين يديه خلق كثير ، ووصلت إليه سهام العرب ، فلم يلبث أن دارت عليه الدائرة ، ونجا بنفسه إلى المنصورية فيمن بقى معه من فلول جيشه .

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى ، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر فى سبيل الحصول على الفوز . . . وقد قال الشاعر على بن رزق الرياحى[٢] من قصيدة يصف فيها هذه الملحمة القاسية :

وإن ابن باديس لأحزم مالك ولكن لعمرى ما لديه رجال

ثلاثة آلاف لنا غلبتْ له ثلاثين ألفاً إنّ ذا لنكال[٣]

وكانت الواقعة درساً قاسياً لابن باديس ، أقنعته بألا طاقة له بالعرب ، وأيقن أن العبيديين رموه بداهية دهياء ، فأخذ يفكر فى الإنتقال من القيروان ولم يكن له حصن بعدها إلا المهدية التى كان يتولى أمرها ابنه تميم . وكان القتاتون[٤] سعوا بينهما بالنميمة لقطع الصلة بينهما ، ولكن هذا لم يمنعه من الانتقال إلى المهدية ، فانتقل إليها فى رمضان سنة ٤٤٩ . وتلقاه ابنه الأمير تميم بكل ترحاب . ولما كان يتصف به الأمير تميم من حسن التصرف وأصالة الرأى فوض

---

(١) فى مكان يقال له حيدران . ويقال له الآن « ودران » .

(٢) وقيل على بن زروق .

(٣) هزم المعز بن باديس أمام العرب مرتين كل منهما أشنع من الأخرى : الأولى سنة ٤٤٣ وهى التى قيل فيها هذان البيتان . والثانية سنة ٤٤٤ (نهاية الأرب) .

(٤) النمامون .

له والده الأمر ،وبقى المعز معه بالمهدية إلى أن توفى بها سنة ٤٥٣[١]. وكانت مدة حكمه تسعا وأربعين سنة . وترك وراءه من حسن الأحدوثة والذكر المستطاب ما يغبط عليه .

تميم بن المعز

ولد بالمنصورية فى الثالث من رجب سنة ٤٢٢ . وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥ . ولما كان أبوه المعز بن باديس بالقيروان كان هو قائماً بشئون المهدية وانفرد بشئون إفريقية بعد وفاة أبيه .

وفى أيام الأمير تميم كانت قابس وضواحيها تحت رياسة حمّو بن فلفل البرغواطى[٢] ، وهو من الخزرونيين أعداء الصنهاجيين ، وكانت زغبة من بنى هلال تسكن هذه الناحية ويناصرون حمّو ، فثاروا على الأمير تميم برياسة

---

(١) وقال ابن خلكان : توفى فى الرابع من شعبان سنة ٤٥٤ بالقيروان بمرض ضعف الكبد . والقول الأول أرجح .

(٢) برغواطة ، وقال الأستاذ محمد عنان : (صوابها بلغواطة ، بباء ولام مفتوحتين ، وغين معجمة ساكنة والنسبة إليها بلغواطى) جماعات من البربر أخلاط من عدة قبائل يسكنون ساحل تامسنا وكانوا لادين لهم ، وهم بالمجوس أشبه . . ادعى فيهم النبوة صالح بن طريف فى أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ . وأصل صالح بن طريف من برناط : حصن من عمل شدونة من أعمال الأندلس ونشأ بها ، فكان يقال لمن دخل فى ديانته برناطى ، وحولته العرب إلى برغاطى ، فسموا برغواطة . . وصالح بن طريف يهودى الأصل ، رحل إلى المشرق ، وأخذ عن عبيد الله المعتزلى ، واشتغل بالسحر ، ورجع إلى المغرب ، وعاشر قبائل برغواطة وادعى فيهم النبوة وشرع لهم ديناً من تلقاء نفسه ، وقال لهم : أنا صالح المؤمنين الذى ذكره الله فى القرآن الكريم ، وشرع لهم صيام رجب وإفطار رمضان . وجعل لهم الضحية فى الواحد والعشرين من المحرم . وشرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخاصرة . وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء . وفرض عليهم عشر صلوات خمساً فى الليل وخمساً فى النهار . وأمرهم أن يلحسوا ريقه تبركاً ، فكان يتفل فى أيديهم وهم يلحسون . وجاءهم بقرآن فيه ثمانون سورة ، منها سورة إبليس ، وسورة الحجل وسورة الجراد ، وأمرهم ألا يغتسلوا من الجنابة .

وفى سنة ٤٥١ كان رئيسهم أبا حفص عبد الله بن أبى الأنصارى من نسل صالح بن طريف ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى قتل فى حروبهم فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٤٥١ اهـ . ملخص من الأنيس المطرب لابن أبى زرع .

حمو ، فتغلب عليهم ، وكثرت فى أيامه الثورات وانتشرت الفتن . وفى سنة ٤٦٦ تغلب بنو رياح على زغبة[1] وأجلوهم عن القيروان ، وباعوها إلى الناصر بن علاء الناس بن حماد الصنهاجى الذى كان يقال له (علناس) وكان ينازع تميما السلطة فى إفريقية . . . وقد اصطلح مع تميم سنة ٤٦٧ ، وزوجه تميم ابنته بلارة وولى على طرابلس ابنه مقلداً . وتوفى الناصر بن علناس سنة ٤٧٠ .

وقد وجد الفرنجة — وهم بالمرصاد دائماً للمسلمين — فى كثرة الثورات على تميم فرصة للاستيلاء على المهدية فاستولوا عليها سنة ٤٨٠ . واستولوا على صقلية سنة ٤٨٤ .

كان تميم شجاعاً ، وجواداً يضرب بجوده المثل ، وقد قيل فيه :

أصحّ وأقوى مارَوَيناه فى الندى　　من الخبر المأثور مُنذُ قديم

أحاديثُ ترويها السيول عن الحيا　　عن البحر عن كف الأمير تميم

وكان عالماً فاضلا ، وشاعراً رقيق العاطفة ، ومن شعره :

فإمّا الملك فى شرف وعز　　علىّ التاج فى أعلى السرير

وإما الموتُ بين ظبا العوالى　　فلستُ بخالد أبد الدهور

وقد ترجم بهذين البيتين عما اتصفت به تلك النفس الكبيرة التى لا ترضى بغير الصدارة .

---

(١) كانت زغبة تسكن القيروان . وسيأتى أن بنى رياح أجلوهم عنها وباعوها إلى ابن علاء الناس . ثم إن بنى رياح أجلوا زغبة عن قابس أيضاً . ولا ندرى هل أجلوهم بعد أن أجلاهم الرياحيون عن القيروان ، أو كان قبل أن يجلوهم عن القيروان ، ثم طاردوهم وأجلوهم عن القيروان أيضاً .

وزعبة والرياحيون كلهم هلاليون بنو عمومة . ولما أجلى الرياحيون زعبة عن قابس تولى أمرها بنو جامع أمراء قابس فى عهد الصنهاجيين . وهم محمد ، ومدافع ، وعيسى أبناء رشيد . ورافع بن مكنى . ومكنى ورشيد أخوان ، وهما ابنا كامل ، بن جامع ، بن دهمان ، من بنى على ، بطن من بطون رياح . وقد تولى منهم الإمارة على قابس فى عهد تميم بن المعز : بكر بن كامل بن جامع ، فقام بأمرها واستبد بها على تميم ، ولم يزل أميراً على قومه دهمان إلى أن توفى . . وقام بالأمر بعده رافع ، واستفحل بها ملكه . وكان آخر من ملكها من بنى جامع مدافع بن رشيد بن كامل . . ولما استولى عبد المؤمن على المهدية وصفاقس وطرابلس بعث ابنه عبد الله بجيش إلى قابس ففر مدافع عنها ، وأسلمها إلى الموحدين ، ولحق بعرب طرابلس فأجاروه سنتين ، ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فرضى عنه وهو آخر أمراء بنى جامع . وبتسليمه لعبد المؤمن انقرض حكم بنى جامع .

ومن رقيق شعره :

وَخمر قد شربت َعلى وجــوه إذا وُصفتْ َتجل عن للقياس

ُخدودٌ مثل ورد فى ثغــور كــدر فى شعور مثلِ آس

وكان من فحول الملوك الشعراء .

توفى تميم فى منتصف رجب سنة ٥٠١ وعمره تسع وسبعون سنة . ومدة حكمه ٤٦ سنة ، وعشرة أشهر ، وعشرون يوماً . . . وخلف مائة ولد من الذكور ، وستين بنتاً . على أمثاله رحمة الله .

يحيي بن تميم

ابن المعزبن باديس . عهد إليه أبوه بالولاية فى حياته فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٤٩٧ . واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه ، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر ، وعشرون يوماً . . . وكان عالماً عادلا . غزا فى البحر عدة غزوات فكان موفقاً. توفى يوم عيد الأضحى سنة ٥٠٩ وعمره اثنتان وخمسون سنة ، وخلف من الذكور ثلاثين ولداً ومن الإناث عشرين بنتاً . ومدة ولايته ثمان سنوات وستة أشهر .

على بن يحيي

ابن تميم بن المعز بن باديس . ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩ وولاه والده على صفاقس . وتوفى يوم ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥١٥ .

الحسن بن على

بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس . ولد بسوسة فى رجب سنة ٥٠٢ وتولى بعد وفاة أبيه . وعمره ١٢ سنة وتسعة أشهر .

كان الشمال الإفريقى مهدداً دائماً بالغزو من سكان الجنوب الأوربى .

وخصوصاً الجنوب الإيطالى ؛ لأن العرب كانوا احتلوا صقلية وما جاورها سنة ٢١٢ وقد تألب عليهم السكان وأخرجوهم ، وبقيت العداوة متأصلة بين الفريقين ينتهز كل منهما الفرصة لصاحبه . وقد تمكن رجار الصقلى من احتلال المهدية عاصمة إفريقية إذ ذاك ، فى زمن تميم ابن المعز حينما كثرت عليه الثورات من الخزرونيين بمناصرة العرب ولم يكتف رجار باحتلال المهدية ، بل صار يقوى نفسه ويعدها لاحتلال بقية البلاد الإفريقية . ولما كانت طرابلس من أهم العواصم فى المنطقة الإفريقية الشرقية أراد رجار أن يحتلها ليسيطر على ما بينها وبين المهدية من ذلك الساحل الخصب الجميل . . . وكانت طرابلس تحت حكم الخزرونيين وحاكمها محمد بن خزرون وقد آنس رجار ضعفاً من الحسن ابن على ، وأنه لا يمكنه مهاجمته فى المهدية فاتجهت نيته إلى احتلال طرابلس .

محمد بن خزرون

هو محمد بن خزرون بن خليفة بن وُرّو . . . ولى طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه مشيخة بن مطروح لما لهم من المكانة والنفوذ فى طرابلس ، وأسند إليهم رياسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم . . . واستقل محمد ابن خزرون بطرابلس عن الحسن بن على وناصره على ذلك بنو مطروح ورفضوا دعوة الحسن ، ومنعوا عنه ما كانوا يدفعونه إليه من مال .

رجار [١] يهاجم طرابلس

وفى أيام ولاية محمد بن خزرون أواخر سنة ٥٣٧ وحينما كان الحسن بن على والياً على إفريقية هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا سورها وقد دافع أهلها عنها واستنجدوا بسكان الضواحى من العرب وغيرهم فأنجدوهم ، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً ، وغنم الطرابلسيون منه بعض

---

(١) أو « روجر » كما جاء فى كتاب الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ .

الأسلحة . وبقى ابن خزرون مستقلا بطرابلس يدير شئونها ويدين بالطاعة للعبيديين فى مصر .

المجاعة فى طرابلس :

وفى سنة ٥٤٠ حصل ما لم يكن فى حسبان محمد بن خزرون ، فقد حصلت مجاعة كبيرة فى طرابلس حتى اضطر بعض السكان إلى الجلاء عنها ، وكان محمد بن خزرون شديد الوطأة على السكان قاسياً فى حكمه . ولما حصلت المجاعة وعجز الناس عن تلبية مطالبه اشتدت وطأته عليهم لسد العجز الذى لحق بحكومته ولكن الناس ما كانوا يجدون سبيلا لتلبية طلباته ، فكانوا يضيقون بها ذرعاً ، وهو لا يزداد إلا تعسفاً .

بنو مطروح :

وكان بنو مطروح فى مقدمة وجهاء طرابلس ومن أكبر أعيانها ، وكانوا من أكبر أنصار محمد بن خزرون كما قلنا آنفاً ، ولكنهم ضاقوا به كما ضاق به غيرهم ، ولم يمكنهم أن يخففوا من وطأته ، فجمعوا الناس حولهم وثاروا به ، وأخرجوه هو وشيعته من المدينة واستبدوا بها ، ونقضوا بيعة الحسن بن على . وكان رجار متتبعاً لأحوال طرابلس وما يقع فيها . وقد انتهز فرصة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة ، فاستعد للهجوم على طرابلس .

رجار يهاجم طرابلس مرة ثانية

ما زال رجار مستاء من هزيمته الأولى فى طرابلس سنة ٥٣٧ . ولما لاحت له الفرصة أعاد الكرة للمرة الثانية ، وكان قد استولى على صفاقس بعد أن استولى على المهدية ، فجهز جيشاً وأسطولا عظيمين وهاجم بهما طرابلس . ولم تتفق كلمة السكان على الدفاع لضعف الحامية ، ولما أصاب البلاد من الضائقة المالية نتيجة للمجاعة الشديدة التى أصابتها سنة ٥٤٠ . فدهمها رجار بجيشه وأسطوله ، ولم يجد مقاومة ، فاحتلها بدون عناء سنة ٥٤١

وفر محمد بن خزرون وبعض حاشيته إلى البادية ، واحتموا بسكانها من العرب والبربر . وكان محمد بن خزرون هذا آخر من تولى ولاية طرابلس من بنى خزرون . وبخروجه انقطع أمرهم من طرابلس ودالت دولتهم .

ودخلها قائد أسطول رجار « جرجى بن ميخائيل الأنطاكى »[1] وطلب منه السكان الأمان فأمنهم ، وشرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم .

ولابن خلدون رواية أخرى فى احتلال رجار طرابلس سنة ٥٤١ قد يكون فيها شىء من الزيادة على ما سقناه .

قال ابن خلدون : وأعاد رجار الكرة على طرابلس سنة ٥٤١ وحاصرها برًّا وبحراً ، وقاتلها ثلاثة أيام ... وكان أهل البلد قد اختلفوا قبل مجىء العدو ، وأخرجوا بنى مطروح ، وولوا عليهم واحداً من أمراء لمتونة كان مارًّا بها فى طريقه إلى الحج ، ولكن أنصار بنى مطروح داخل السور انتهزوا فرصة انشغال الناس بقتال الفرنجة وأدخلوهم إلى المدينة ، ونشبت الحرب بينهم وبين بعض السكان — ويفهم من كلام ابن خلدون أن بعض السكان شغل بقتال بنى مطروح وأنصارهم الذين أدخلوهم المدينة ، وبعضهم شغل بقتال الفرنجة الذين هاجموا البلد — وقد أدرك الفرنجة ما وقع بين الأهالى ، وكانوا ما زالوا خارج السور ، فنصبوا عليه السلالم وتسنموه ودخلوا المدينة عنوة وفتحوا أبوابها لبقية جيشهم ، وأفحشوا فى القتل والسلب ، والتجأ كثير من السكان إلى العرب والبربر فى الضواحى . ثم رفع الفرنجة السيف ونادوا بالأمان ، فرجع كثير من السكان إلى المدينة ، وفرضوا عليهم الجزية ، وأقاموا بها ستة أشهر ، وأصلحوا من أسوارها وفنادقها ، وولوا عليها رافع ابن مطروح ، وأخذوا رهائنه بالطاعة ، ورجعوا إلى صقلية وحثوا الناس على الرحيل إلى طرابلس ، فرحل إليها أناس كثيرون وحسنت حالة العمران فيها .

---

[1] تعلم فى أنطاكيا بالشام وغيرها ، وهاجر من المشرق . واصطنعه تميم بن المعز . ولما مات تميم أعمل جرجى الحيلة فى اللحاق برجار فلحق به ، وحظى عنده ، واستعمله على أسطوله . اهـ من ابن خلدون . ج ٦ ص ١٦١ .

ولم يكن فى هذه الرواية ما يستغرب إلا قصة هذا الرجل المتوفى الذى ولاه الطرابلسيون أمرهم وهم لا يعرفون من أمره شيئاً . وقد يكون من المستبعد أن يبلغ الخلاف بين الطرابلسيين إلى أن يسندوا أمورهم إلى رجل عابر سبيل فى طريقه إلى الحج . ولم يذكر ابن خلدون اسم هذا الرجل، ولا ما آل إليه أمره بعد احتلال المدينة وإسناد أمرها إلى ابن مطروح ، كما لم أعثر فى غيره على اسمه ، ولا كيف انتهى أمره . وذكر ابن غلبون فى تاريخه أنه أخذه الفرنج فيمن أخذوا من الرهائن .

وهذه هى المرة الأولى التى يستولى فيها الفرنجة على طرابلس ، أما المرة التى كانت سنة ٥٣٧ فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . . . ويؤكد التجانى ذلك بقوله : « وهذه أول مرة يستولى فيها الفرنجة على طرابلس . وما يشاع لدى الطرابلسيين أن بلدهم احتلت مرة قبل هذه فليس بصحيح » .

ولاية رافع بن مطروح الأولى

كنيته أبو يحيى ، وكان شيخ البلد ، وأسند إليه رجار ولاية طرابلس ، وعين الأستاذ يوسف بن زيرى قاضياً ، وكنيته أبو الحجاج ، وبقيت طرابلس تحت حكم رافع بن مطروح اثنتى عشرة سنة ، وهو يدين لرجار بالطاعة .

وتوفى رجار سنة ٥٤٨ بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس . ما عدا قابس وخلفه فى الحكم ابنه غاليالم ، وسمى نفسه رجار الثانى . وهو الذى ألف له الشريف أبو عبد الله الإدريسى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى الجغرافيا وقويت شوكته فى الشمال الإفريقى . وكان وجود رجار فى طرابلس مما زاد فى هيبته ، وكتب إليه صاحب قابس يطلب الدخول فى طاعته . . وكان غاليالم شديد الوطأة على المسلمين ، فملوا حكمه ، وسئمت نفوسهم البقاء تحت سلطانه وسرت بينهم روح التذمر والنزوع إلى الثورة . وقد ساعدهم على التفكير فى الثورة إنتشار دعوة الموجودين فى إفريقية وقربهم من المهدية .

وفى أيامه سنة ٥٥١ ابتدأت الثورة على غاليالم فى صفاقس ، وانتشرت فى البلاد الساحلية ، ووصلت إلى نواحى طرابلس . وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة ففكر فى إحداث فتنة بين الأهالى لتلهيهم عن التفكير فى الثورة وعن الآتصال بالموحدين ، فأمر الطرابلسيين بالطعن على الموحدين والتكلم فيهم وفى طريقتهم . ورأى الطرابلسيون أن هذا أمر يخالف الدين ، وقد سبق لميخائيل قائد أسطول رجار أن شرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم ، فلجأوا إلى القاضى أبى الحجاج ، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن هذا أمر يخالف الدين ، وقد أمكنه أن يقنعه بذلك ، فأعفاهم من شتم الموحدين والطعن عليهم . وبقى يراقب الحالة ويحاول منع الثورة من الوصول إلى طرابلس ، ولكنه فشل ، وتأهب الطرابلسيون للثورة .

ثورة رافع بن مطروح

لم تكن معاملة غاليالم — رجار الثانى — للطرابلسيين تحمل من الإنصاف والعدالة ما يطمئن النفوس على الحياة ، ويبعث فيها الأمل فى المستقبل ، ويقنعها باحترام الحق والكرامة ، وكلما طال الزمن بالفرنجة فى البلاد الإسلامية كلما تمادوا فى الباطل ولجوا فى الطغيان ، وقد سئم السكان معاشرتهم . . . وكان رافع ابن مطروح رأس الحركة وقائد الثورة ، وقد أعيته الحيلة فى كبح جماح غليالم ، حتى سنحت له الفرصة بقرب الموحدين من طرابلس ، فلم يسعه إلا انتهازها ، وجمع أنصاره ، وثار بغاليالم فى طرابلس سنة ٥٥٣[1] وقتلوا الفرنجة قتلا ذريعاً وأحرقوهم بالنار ، وهرب من لم يدركه القتل وتحررت طرابلس كما تحرر الساحل الإفريقى ما عدا المهدية . وكان نفوذ غاليالم امتد إلى المهدية . وفى الداخل إلى قرب القيروان .

ولاية رافع بن مطروح الثانية

وبعد أن تم طرد الفرنجة من طرابلس اتفقت كلمة الطرابلسيين على تولية رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس . وما كان ينبغى التفكير فى غيره ، لأنه كان قبل الثورة والياً من قبل رجار ، وأيضاً فهو الذى قام بالثورة وقاد الناس إليها ، وأيضاً فإنه فى المكان الأول من الحياة الاجتماعية فى طرابلس ومن وجهائها الممتازين . وبقى رافع بن مطروح يصرف شئون طرابلس. وكانت دعوة الموحدين قد انتشرت فى الشمال الإفريقى ، وبقى يترقبها رافع بن مطروح إلى أن فتحوا المهدية وأجلوا منها غاليالم سنة ٥٥٥ فانضم إليهم ، وسيأتى خبر ذلك .

---

(١) ذكر هذا التاريخ ابن غلبون أيضاً . ولكنه ذكر أن الفرنجة اتفقوا أن يحدثوا فتنة بين الموحدين والطرابلسيين سنة ٥٥٤ هـ. وواضح أن اعتزامهم إحداث الفتنة إنما يكون قبل الثورة عليهم . ويظهر أن اتفاقهم على إحداث الفتنة كان سنة ٥٥٢ فحرف رقم اثنين إلى رقم ٤ .

لقد جرّنا سياق القول إلى ما حصل فى طرابلس أيام الحسن بن على ؛ ونعود إلى الكلام عليه فنقول : إن الحسن بن على هذا هو آخر أمراء صنهاجة . القائمين بدعوة العبيديين فى إفريقية ، وعددهم ثمانية ، وهم : بلكين[1] بن زيرى . . . المنصور بن بلكين . . . باديس بن المنصور . . . المعز بن باديس . . . تميم بن المعز . . . يحيى بن تميم . . . على بن يحيى ... الحسن بن على . وفى أيامه احتل رجار المهدية وانقرض ملك صنهاجة . والدنيا دول . والملك لله الواحد القهار .

دولة الموحدين[2]

أسسها المهدى محمد بن تومرت فى المحرم سنة ٥١٦ . وهو محمد بن عبد الله تومرت ، بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ... وقال ابن خلدون فى التعريف به : هو محمد بن عبد الله ، بن وجيلة ، بن بامصال ، بن حمزة ، بن عيسى.[3] وهو مؤسس دولة الموحدين ، واشتهر بالمهدى ، وأصله من هرغة من بطون المصامدة البربر . واسم أبيه عبد الله ، وتومرت ، وأصله من السوس ، ويعرف بالفقيه السوسى . وكان إماماً فى طريقة الأشعرية ، وهو الذى أدخلها إلى المغرب ، وذكر بعضهم نسبه فى أهل البيت . . . قال ابن خلدون : ويظهر أن سبب هذا كثرة أولاد إدريس الأكبر فى المصامدة . . . ولد بهرغة سنة ٤٩١ . وقد شب على حب العلم والقراءة ، وارتحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومر بالأندلس وكانت إذ ذاك دار علم . ثم ذهب إلى الإسكندرية وحج . وذهب إلى العراق ، واجتمع بفحول العلماء وكبار المناظرين . وأفاد علماً كثيراً ، وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ؛ ورجع إلى المغرب وتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وانتشر صيته ، وسمى الإمام . ولما بايعه

---

(١) وينطق تارة بالكاف المعطشة ، وهى التى تنطق بين الكاف والقاف .

(٢) مدة قيام دولة الموحدين من ظهور ابن تومرت إلى قيام دولة الحفصيين ١٠٩ سنوات .

(٣) قال ابن خلدون ، ذكر هذا النسب ابن رشيق وحققه ابن القطان .

الناس على مناصرته لقبوه المهدى . وكان يسمى أصحابه الطلبة ، ويسمى أهل دعوته الموحدين ... وله من غزارة العلم وقوة الحجة أخبار يطول ذكرها . وله من مضاء العزيمة وقوة الإرادة ما مكنه من إنشاء الدولة التى كان يمنى بها نفسه وقومه .

توفى ليلة الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤ بتينمل ، وبها دفن . ودام حكمه تسعة أعوام إلا ثلاثة أيام .

عبد المؤمن بن على

ابن مخلوف ، بن يملا ، بن مروان ، بن نصر ، بن على ، بن عامر . . . وهو من قبيلة زناتة البربرية ، وقيل هو من أصل عربى مضرى . وكان الموحدون يلقبونه بالشيخ ، ويلقبون المهدى بالإمام . . . وهو أول خليفة للمهدى ، استخلفه فى حياته ، وتولى الحكم بعد وفاته سنة ٥٢٤ . وتغلب على ابن تاشفين ، وأرسل ابنه محمداً بجيش إلى قابس ، وكان بها مدافع بن رشيد من بنى جامع — وهو آخر من تولى قابس من بنى جامع — ففر عنها ودخلها جيش الموحدين ، وفى سنة ٥٥٥ دخلت طرابلس فى طاعته ، كما دخل فيها جبل نفوسة ، وبهذا لم يبق فى الشمال الإفريقى خارج عن طاعته إلا المهدية فقد تحصن بها غاليالم — رجار الثانى — محاولاً أن يستقل بها عن الموحدين ويدفعهم عنها . . . ولم يلبث سكانها أن استنجدوا بعبد المؤمن من ظلم غاليالم ، فاستجاب لنجدتهم ، وهاجمها بجيوشه ، ودخلها فاتحاً يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ ، وبفتح المهدية تم له الأمر فى الشمال الإفريقى ، وخلص له كله ، وسمى هذه السنة سنة الأخماس لأنها وافقت ثلاثة أرقام كل منها خمسة .

وفى هذه السنة ذهب ابن مطروح إلى المهدية فى وفد من الطرابلسيين لمقابلة عبد المؤمن وليقدم له الطاعة مشافهة ويجدد له العهد ، فقبل منهم ، وأكرم وفادتهم ، وأقر ولاية ابن مطروح على طرابلس . . . ومن هذا الوقت دخلت

طرابلس فى عهد جديد ، وأصبحت تابعة للموحدين ، وأصبح رافع بن مطروح والياً عليها من قبلهم . . . وبقى ابن مطروح والياً عليها إلى أن هرم وعجز عن الحكم أيام يوسف بن عبد المؤمن فطلب إليه أن يعفيه من مهامّ الحكم وأن يأذن له بالذهاب إلى مصر ، فأعفاه وأذن له . فسافر بطريق البحر إلى مصر سنة ٥٦٨ ، ووصل الإسكندرية فى رجب من هذه السنة وبقى فيها إلى أن توفى وبقيت ذريته ، وكانت لهم رياسة ، وفيهم علم وأدب .

ولما اشتد به الحنين إلى طرابلس قال :

لوقفــة بين باب البحر ضاحيةً   وباب هــوارة وموقف الغنم

أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن   دَير الزجاج وشاطىء بركة الخدم

وباب البحر ، وباب هوارة ، وموقف الغنم أمكنة بطرابلس، يقول إن الوقوف فيها أشهى إلى نفسه من كسر الخليج ، ودير الزجاج ، وشاطىء بركة الخدم أو الحرم ، وهى أمكنة بالإسكندرية .

وبعد أن فتح عبد المؤمن المهدية دان له المغرب كله . ودخل عليه صاحب قفصة ، ومعه بعض أعيانها لتقديم الطاعة ، وكان معهم الشاعر أبو محمد عبد الله بن أبى العباس التيفاشي ، فأنشد بين يديه قصيدة أولها :

ما هزّ عِطفيه بين البيض والأسل   مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن على

وأراد الإسترسال فى الإنشاد ، فأمره بالتوقف ، واكتفى منه بهذا البيت لبلاغته وأعطاه ألف دينار وقبل طاعتهم ، وكانوا محاصَرين ففك عنهم الحصار .

توفى عبد المؤمن بمدينة سلا فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٥٨ ودفن بتينمل بجوار المهدى . ومدة حكمه ثلاث وثلاثون سنة ، وثمانية أشهر ، و ١٥ يوماً .

يوسف بن عبد المؤمن

كنيته أبو يعقوب . بويع له عقب وفاة أبيه . وتوفى يوم السبت ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ ومدة ملكه ٢١ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٨ أيام .

يعقوب المنصور

كنيته أبو يوسف . بويع له بعد وفاة أبيه . ولد فى أواخر ذى الحجة سنة ٥٥٤ وتوفى يوم ١٢ من ربيع الأول سنة ٥٩٥ ، ومدة حكمه ١٤ سنة و ١١ شهراً ، وأربعة أيام وفى أيامه ظهر أولاد غانية يحيى وعلى .

يحيى بن إسحاق الميورقى

هو يحيى بن إسحاق ، بن حَمُّو ، بن على، الميورْقى ، من بنى غانية ، من المرابطين الملثمين ، من قبيلة صنهاجة الذين كانوا ملوك المغرب .

وعلى الميورْقى والد حَمُّو هو صاحب ميورْقَة . وكان قد سكن الصحراء لنزاع بينه وبين لمتونة . وقد استرجعه يوسف بن تاشفين بعد سنين من إقامته بالصحراء ، وزوّجه إمرأة من أهل بيته تسمى « غانية » كان أبوها عهد إليه بكفالتها . وقد ولدت من على محمداً ويحيى ، وبقيا فى كفالة يوسف ، وبعده فى كفالة ابنه على ومصاحبته ، وعقد على بن يوسف ليحيى على غرب الأندلس ، وأنزله قرطبة . وعقد لمحمد على ميورقة ومنورقة ، ويابسة سنة ٥٢٠ .

هذه غانية التى نسب إليها يحيى وعلى وهما من أحفادها .

خرج يحيى وأخوه علىّ من مَيورْقة فى شعبان سنة ٥٨٠ سعياً وراء الملك ، وطلباً بثأر بنى تاشفين من الموحدين ، فاستوليا على المهدية ، وطردا منها ابن عبد الكريم عامل الموحدين . واستوليا على طرابلس وصفاقس ، وقابس . وفى سنة ٥٨٦ استوليا على تونس ، وطردا منها الموحدين .

وقد استفحل أمر بني غانية في إفريقية ، واشتدت شوكتهم وضيقوا الخناق على دولة الموحدين واغتصبوا منها إفريقية قوة واقتداراً .

شرف الدين قراقش

هو أرمني من الغز ، من مماليك الملك المظفر تقي الدين بن أيوب أخي صلاح الدين . وكان تقي الدين يريد أن يغزو المغرب ، ولكن وقفت في طريقه صعوبات حالت دون تحقيق هذه الرغبة ، وأهم هذه الصعوبات كثرة جموع العرب في إفريقية ، خصوصاً وقد عرفوا بالشجاعة وممارسة الحرب ، وقد شاع خبر سفره بين قواد جيشه وخواصه فرغبوا في ذلك وحبذوا الفكرة ، فلما عدل عن غزو المغرب صعب ذلك على قراقش ، وأصر على تنفيذ الفكرة ولو بمخالفة سيده ، ولما تحقق تصميم سيده على العدول ، جمع أمره سنة ٥٦٨ ، وانضم إليه إبراهيم بن قراتكين سلاح دار تقي الدين ، وكثير من الغز المرتزقة ، وسافروا إلى المغرب لمحاربة الموحدين ، وإحياء دعوة العباسيين .

ولما اجتازوا عقبة السلوم اختلف قراقش وابن قراتكين في الرأي فافترقا ، فسار ابن قراتكين على طريق الساحل وتمكن من الوصول إلى قفصة فقبض عليه المنصور في جماعة وذبحهم جميعاً . . وأما قراقش فسار إلى سيوة ، — وكانت تسمى إذ ذاك « شنترية » — ، فافتتحها ، وخطب فيها لصلاح الدين وكتب إليه بذلك . . . واستولى على أوجلة ، وزويلة وبلاد فزان ، وأزال منها دولة بني خطاب الهواريين — وهم من البربر من قبيلة هوارة — وكانت قاعدة ملكهم زويلة ، ولذلك فهي تعرف بزويلة بني خطاب ، وقبض على ملكهم محمد[1] ابن خطاب وعذبه حتى مات ، وهو آخر ملوك بني خطاب ولما ضربت زويلة انتقلوا إلى فزان . وهكذا استمر قراقش في فتح البلاد ، وكلما فتح بلداً دعا فيه لصلاح الدين وأرسل إلى سيده بذلك حتى وصل طرابلس .

---

(١) محمد بن خطاب ، بن يصليتن ، بن عبد الله ، بن صنفل أو زنفل ، بن خطاب . وأول أمر بني خطاب في زويلة أنهم كانوا عمالا فيها للمنصور بن بلكين في سنة ٣٨١ .

قراقش فى طرابلس

دخل طرابلس بعد أن غادرها أبو يحيى رافع بن مطروح . يقول بعض المؤرخين : إن قراقش احتل طرابلس من رافع بن مطروح سنة ٥٧٩ ودخل رافع فى طاعته . وهذا غير صحيح ؛ لأن رافع ابن مطروح غادر طرابلس إلى الإسكندرية سنة ٥٦٨ .

وكانت خالية من الجند والأقوات . وقبل أن يهاجم طرابلس دعا القبائل العربية الضاربة فى تلك النواحى وحول المدينة للانضمام إليه ، فانضم إليه العرب الذبابيون من بنى سليم ، والشيخ مسعود بن زيان شيخ الدواودة الرياحيين[١] ، وغيرهم كثير من بنى هلال وبنى سليم وكان الشيخ مرغم بن صابر ابن عسكر شيخ الجوارى من الذبابيين أبى أن ينضم إلى قراقش فقبض عليه وباعه إلى حاكم برشلونة النصرانى[٢] ، فاشتراه ، وبقى عنده أسيراً وسيأتى خبره . . وكان ذلك سنة ٥٨٢ ، فقويت بالعرب شوكته ، وكثرت عصابته ، فنهض بهم إلى جبل نفوسة فاستولى عليه ، واستولى فيه على أموال كثيرة ففرقها فيمن معه من العرب استجلاباً لإخلاصهم له . . . وباستيلائه على جبل نفوسة حفظ خط الرجعة لنفسه ، ولم يبق وراءه من يخافه من الشرق والجنوب . . . ثم تقدم فى جموعه إلى طرابلس وحاصرها ، ولم يلبث أن استولى عليها لقلة ما بها من الجند والأقوات ، لأن أهلها ما كانوا ينتظرون هجوم العدو عليهم . . . وأصبح يملك ما بين طرابلس وفزان ، ومن جبل نفوسة إلى حدود برقة الشرقية . . وقد اضطره انضمام العرب إليه إلى كثرة الإنفاق ، فأكثر من فرض الضرائب على السكان حتى أجهدهم ، وأفقرهم ، وتذمرت نفوسهم من قسوته عليهم ، وأضمروا له العداء . . . واتخذ من طرابلس مقرًّا له ، وبنى قصره الذى ما زالت بقاياه بقرية قرقارش ، وهى محرفة عن اسم قراقش . وتوجه إلى إفريقية وهناك التقى

---

(١) وقيل اسمه مسعود بن سلطان البلطة ، وهو من الأمراء المشهورين . وسمى البلطة لشدته .

(٢) ويقال إن الجنويين أسروه وباعوه لحاكم برشلونة .

بأولاد غانية : يحيى وعلى ، فاجتمعوا على الفساد وظلم العباد ، وانضم إليهم كافة بنى سليم ومن ناصرهم من البربر . وكانت رياح ، وجشم والأثبج من بنى هلال مخالفين للموحدين فانضموا إليهم ، وخالفتهم زغبة من بنى هلال فانضمت إلى الموحدين ، واشتد خطرهم على الناس ، فاستغاثوا بالأمير يعقوب المنصور بن عبد المؤمن فى مراكش سنة ٥٨٣ . وفى سنة ٥٨٤ قتل على بن غانية فى حروبه مع نفزاوة بالجريد أصابه سهم غرب فقتله ، وحمل جثمانه إلى ميورقة فدفن بها والسهم الغرب : هى التى لم يقصد بها قتل من أصابته . وفى سنة ٥٨٦ التقت جيوش المنصور بجيوش يحيى بن غانية وقراقش بقرب الحامّة ، فدارت الدائرة عليهم ، وفر ابن غانية وقراقش إلى الصحراء ، وقتل كثير من أصحابهما ، وصبّح المنصور قابس فاستولى عليها ، ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه فى البحر إلى تونس . وخرجت طرابلس من يد قراقش ، ورجع المنصور إلى المغرب .

عثمان أبو دبوس

هو من ذرية أبى دبوس آخر خلفاء بنى عبد المؤمن بمراكش . وقبل أن يغادر المنصور إفريقية ولاه على طرابلس .. ولما انقرضت دولة الموحدين وقامت دولة بنى مرين ذهب عثمان هذا إلى برشلونة ، فأكرمه حاكمها ووجد عنده الشيخ مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوارى الذى كان قراقش باعه إلى حاكم برشلونة سنة ٥٨٢ ، فطلب أبو دبوس من حاكم برشلونة أن يجهز له جيشاً وأسطولا بحريًّا ليسترد دولة الموحدين ، فاشترط عليه شروطاً ، وأن يدفع إليه مالا ، فرضى أبو دبوس ، فجهز له حاكم برشلونة جيشاً وأسطولا ، وأطلق له الشيخ مرغم بن صابر شيخ الجوارى الذى كان أسيراً عنده وعقد بينهما حلفاً على أن ينصر كل منهما الآخر .

ولم نطلع على أعمال أبى دبوس فى طرابلس بعد أن ولاه المنصور عليها . ويظهر أن هناك حلقة مفقودة حدث فيها ما أوجب خروج أبى دبوس من طرابلس ، ولا ندرى أيضاً لم ذهب أبو دبوس إلى حاكم برشلونة ليعينه على

استرداد دولة الموحدين ، ولم يذهب إلى المنصور فى مراكش ، كل هذا شيء ما زال فى الخفاء .

وجاء أبو دبوس والشيخ مرغم بن صابر فى أسطول برشلونة إلى طرابلس ، ورسا أسطولهم عليها سنة ٥٨٨ ، ونزل مرغم إلى البر ، والتقى بقومه ، وحملهم على مناصرة أبى دبوس ، وحاصروا طرابلس من البر والبحر ثلاثة أيام فلم يقدروا عليها ، فرحل الأسطول بمن فيه من جيش برشلونة ، وبقى قريباً من المدينة ينتظر الوفاء بالمال الذى شرطه أبو دبوس على نفسه ، وبقى جيش العرب يحاصر المدينة من جهة البر . وذهب أبو دبوس ومرغم إلى ضواحى طرابلس يجبون الأموال ويفرضون على الناس المغارم ليسددوا ما تعهدوا به لحاكم برشلونة ، ورجع الأسطول إلى برشلونة ، وبقى أبو دبوس يتقلب مع العرب فى الأراضى الطرابلسية إلى أن هلك ولم يتم له أمر .

ولم يلبث قراقش أن جمع أمره وأغار على قابس فاحتلها . وكان بها كثير من مشايخ العرب الذين لم يناصروه وانضموا إلى الموحدين ، فجمع منهم نحو سبعين شيخاً من بنى سليم من الذبابيين والكعوب — جمعهم فى قصر العروسيين وقتلهم جميعاً[1] منهم محمود بن طوق جد المحاميد ، وإليه ينسبون. وحميد بن جارية جد الجوارى وإليه ينسبون . . . وذهب قراقش إلى طرابلس فدخلها بعد حرب مريرة ، وأصبح مستولياً على قابس وطرابلس ، واستولى يحيى بن غانية على القيروان . ولا ندرى من الذى كان يمانع قراقش من دخول المدينة .

عداوة :

وتغيرت الحال بين قراقش ويحيى بن غانية ، وانقلبت المحبة بغضا ، والصداقة عداوة ، وأعلن كل منهما الحرب على صاحبه .

وفى سنة ٥٩١ سار ابن غانية من القيروان إلى طرابلس لمحاربة قراقش

---

(١) فى أيام الدعى أبى عمارة حفر فى هذا القصر لغرض ما ، فعثر على عظام هؤلاء القتلى ، ونقلوا منها نيفاً وستين جمجمة من جماجم رؤوسهم . وهذا القصر فى قابس من قصور بنى دهمان الهلاليين

وطرده منها ، فلما أحس به قراقش جمع له ، وخرج للقائه خارج السور خوفاً من الحصار ، وأناب عنه ياقوتاً المعروف بالافتخار . فالتقوا بوادى محسن ، وهو وادى الهيرة[١] ، من أراضى ورشفانة غربى العزيزية وشماليها ، فانهزم قراقش ، وفر إلى الجبل ، وطارده الميورقى أياماً فلم يظفر به ، وذهب قراقش إلى ودّان وبقى هناك ، وسيأتى خبره .

ياقوت « الافتخار »

استخلفه قراقش على طرابلس حينما خرج لمحاربة ابن غانية . ولما انهزم قراقش ورجع ابن غانية إلى طرابلس تحصن بها ياقوت ولم يسلمها إلى ابن غانية فحاصره بها ، واستمات ياقوت فى الدفاع عنها ، وطال حصارها ، فاستنجد يحيى الميورقى بأخيه عبد الله فى ميورقة ، فأرسل إليه سفينتين فى البحر ، واشتد الحصار على المدينة من البر والبحر ، ولم تلبث أن سقطت فى يد الميورقى فدخلها فعفا عن الأهالى ، وقبض على ياقوت وأرسله إلى ميورقة مكبلا بالحديد ، وبقى مسجوناً بها إلى أن استولى عليها الموحدون فخرج من السجن ، وذهب إلى مراكش ، ومات هناك . . . ولما تم استيلاء الميورقى على طرابلس ولى عليها ابن عمه تاشفين بن الغانى .

وتوفى المنصور فى الثانى من ربيع الأول سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر .

محمد الناصر

كنيته أبو عبد الله . بويع له يوم وفاة أبيه يعقوب المنصور ، وتوفى يوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ ودامت ولايته ١٥ سنة ، وأربعة أشهر ، و١٩ يوماً . . .

واستمر بن غانية فى ثورته حتى تغلب على ابن عبد الكريم حاكم المهدية

---

(١) (الهيرة) بفتح الهاء وسكون الياء : الأرض السهلة . ومن هذا المعنى سمى وادى الهيرة . لأنه يفيض فى أرض سهلة منبسطة . وعلى هذا يقرأ بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت .

واستولى عليها سنة ٥٩٧ . وأرسل ابن عبد الكريم إلى ميورقة فى سفينة مكبلا بالقيود ، فرماه الحراس فى البحر بقيوده ومات غرقاً سنة ٥٩٧ . . . وفى هذه السنة استولى يحيى بن غانية على تونس فى ربيع الآخر ، وامتد سلطانه على تبسّة والقيروان ، والجريد ، وصفاقس ، وقابس ، وطرابلس ، وخطب فى هذه المدن للعباسيين ببغداد . . . وامتنع أهل نفوسة من دفع المغارم المفروضة عليهم ، فذهب إليهم بنفسه ، وأخذ منهم ألف ألف دينار تنكيلا بهم ورجع إلى تونس .

وتعالت شكوى أهل إفريقية من أعمال ابن غانية ، واتصل بالناصر ما حل بهم منه فخف إلى نجدتهم سنة ٦٠١ . وأحس ابن غانية بقدومه إليه ، فذهب إلى قفصه ، وأرسل أهله وأمواله إلى المهدية ، وجمع العرب وأخذ عليهم العهد على نصرته والمحاربة معه ، وأخذ رهائنهم على ذلك .

وفى هذه السنة ثار عليه أهل طرابلس ، وأخرجوا منها عامله تاشفين بن الغانى . ورجع إليهم يحيى بن غانية فاحتل البلد وخربها .

وقدم الناصر فى جموعه ، ونزل حول المهدية ، وأرسل عبد الرحمن بن أبى حفص لقتال الميورقى فأدركه فى جبال تاجرّا بقرب قابس[1] ودارت بينهم الحرب ، فهزم الميورقى ، وقتل فى المعركة أكثر جنده ، ومن بينهم أخوه جبارة وكاتبه على بن اللمطى ، وكثيرٌ من المقربين إليه . . . وفر يحيى بن غانية فى نفر قليل إلى الصحراء . واستولى عبد الرحمن على كل ما تركه ابن غانية ، ورجع به إلى الناصر ، وهو ما يزال محاصراً المهدية . . . وكانت الغنائم فى هذه المعركة ثمانية عشر ألف حمل من المال والمتاع والآلات . وكانت هزيمة ابن غانية فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ وفى هذه الهزيمة المنكرة التى حاقت بابن غانية قال حماد المالقى هذين البيتين :

---

(١) قال التيجانى فى رحلته : قتل على بن غانية فى معركة تاجرّا . وقد تقدم أن أشرنا إلى قتل على بن غانية فى معركة قبل هذه ، ولعلها كانت فى تاجرا أيضاً .

أرى يحيى أمامَ الخلق يأتى   يَفــر أمامَ مَن يأتى إليه
فشبهتُ الشقى بيــاء يَرمى   ولامُ الأمر داخلةٌ عَليــه

واستمر الناصر على حصار المهدية حتى فتحها يوم ٢٧ من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ وكان القائم بالحروب فى المهدية على بن الغانى ابن عم يحيى بن غانية فاستسلم وتم أمر المهدية للناصر ، وزال حكم ابن غانية عن طرابلس ، ودخلت تحت حكم الناصر . وولى على المهدية محمد بن يعمور الهنتاتى (أبا عبد الله)

عبد الله بن إبراهيم بن جامع

ودخلت طرابلس تحت حكم الناصر وولى عليها عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وانتقل الناصر إلى تونس فى ٢٠ من جمادى الآخر سنة ٦٠٢ ، ووصل إليها غرة رجب ، وأقام بها بقية السنة وبعضاً من سنة ٦٠٣ ورجع إلى مراكش وفى هذه المدة ما زال ابن غانية يشن غاراته على الناصر .

وفى أثناء إقامة الناصر بتونس جهز لأخيه السيد أبى إسحاق جيشاً وأمره بمطاردة ابن غانية الميورقى . وحصلت بينه وبين ابن غانية معركة بشَبْرُو فهزم ابن غانية والتجأ إلى الأراضى الطرابلسية . وفى أثناء مطاردته تمكن أبو إسحاق من إخضاع البربر بجبل نفوسة ، واستمر أبو إسحاق يطارده إلى سويقة ابن مذكور بأراضى زليطن ومن هنا رجع السيد أبو إسحاق إلى أخيه الناصر بتونس . واستمر ابن غانية هارباً إلى ما وراء سرت .

وسويقة ابن مذكور أو ابن مكتود كما فى معجم البلدان ، هى من البلدان الطرابلسية القديمة التى نسى اسمها ودرس رسمها . وذكر صاحب نزهة الأنظار أن سويقة ابن مذكور « كانت عامرة وذات أسواق كبيرة مشهورة تبعد عن لبدة إلى جهة الشرق بنحو ثلاثين ميلا » . وعلى هذا الوصف ، فأقرب شىء يشبه أن يكون سويقة ابن مذكور هى تلك الأبنية التى توجد بجهة وادى ماجر الذى يبعد عن بلدة زليطن إلى الجنوب الغربى بنحو ثلاثين ك . م .

وهي أبنية كثيرة ما زالت قائمة ، على ضفاف وادى الحجاج[1] — أحد فروع وادى ماجر — ومنها قصر عظيم ما زالت آثاره ماثلة للعيان يعرف بقصر السوق ، وحوله آثار كثيرة على هيئة الحوانيت . وبقربه على مسافة كم ونصف مكان ما زال يقال له « بومذكرة » . والمكان الذى به قصر السوق يبعد عن لبده بنحو ٦٠ كم . وهى تساوى ثلاثين ميلاً تقريباً كما جاء فى نزهة الأنظار ، ونزهة المشتاق .

وكلمة « السوق » التى أضيف إليها القصر هى من بقايا كلمة سويقة ولا شك ، وقد انقلبت بطول الزمن إلى كلمة السوق ، كما أن كلمة (بومذكرة) التى ما زالت تطلق على مكان معين هناك هى من بقايا كلمة مذكور ، دخلها التحريف فانقلبت إلى « بومذكرة » [2]

وسماها صاحب مراصد الإطلاع : (سويقة مكتود) وقال إنها بليدة فى أوائل بلاد إفريقية وآخر برقة ، فهو يسميها سويقة مكتود . وسماها غيره سويقة مثكود . . .

عبد الواحد بن أبى حفص

كنيته أبو محمد ، وهو جد الأمراء الحفصيين ، وأول أمير منهم عين من قبل الموحدين ، ولاه الناصر بن المنصور الموحدى على إفريقية فى العاشر من شوال سنة ٦٠٣ .

وعاد ابن غانية من صحراء برقة لمحاربة الموحدين فى إفريقية واستولى على سويقة بن مذكور وقبض على صاحبها . وكان كثيراً ما يتمثل بالبيت الذى قيل فى الحجاج بن يوسف :

وقد كان العراق له اضطراباً ... فثقف أمرَه بأخى ثقيف

---

(١) الحجاج : أرض ذات ربى مرتفعة متتابعة . وقد يكون بعضها من التراب والحجارة تحيط بأرض منبسطة تتراءى للناظر أنها تكون شبه دائرة على هذه الأرض .

(٢) هذا ما وفقت إلى تحقيقه بواسطة صديقنا الأستاذ أحمد الصارى وأعتقد أنه هو الحقيقة خلافاً لما جاء فى الطبعة الأولى .

ولما بلغ طرابلس اجتمع عليه العرب من بنى هلال وبنى سليم ، وكان فيهم محمد بن مسعود شيخ الدواودة وقومه من رياح ، فخرج إليه عبد الواحد ابن أبى حفص . ومعه بنو عوف من بنى سليم ، وهم مرداس وعلاق ، وكان ذلك سنة ٦٠٤ فلقيهم بشبرو[١] ، وكانت معركة حامية الوطيس ، أسفرت عن هزيمة يحيى بن غانية وأنصاره ، وفر مجروحاً إلى « أقصامبرة »[٢] بجهة طرابلس .

ولم يلبث ابن غانية أن جمع أنصاره من الملثمين ، وانضم إليه كثير من العرب ، وكان الدواودة من أشد العرب تحمساً لنصرته ، وجعل العرب نساءهم فى المقدمة ، وتحالفوا معه على دخول إفريقية . . . وفى سنة ٦٠٦ خرج إليهم عبد الواحد الحفصى والتقى به فى جبل نفوسة[٣] . . . وكان المقصود من وضع نساء العرب فى المقدمة الاستماتة فى الدفاع عنهن ، فلم يصمدوا لجيوش عبدالواحد وذهبت ريح العرب وسبيت نساؤهم ، ومات فى المعركة خلق كثير من زناتة ، والملثمين والعرب ، وكان من بين القتلى ابن شيخ الدواودة ، وابن عمه حركات .

قال فى الروض المعطار : وحضر تلك الواقعة جملة من رؤساء العرب وأحيائهم من الرياحيين وغيرهم ، وحضرها محمد بن مسعود ، وولده عبد الله ، وبنو عمه ، وذلك أن يحيى بن إسحاق بعد أن هزم فى شبرو سنة ٦٠٤ جمع حوله جماعة من رياح وزعب وعوف والشريد ونفات وغيرهم ودخل بهم إفريقية ، فأراد عبد الواحد أن يقضى عليه قبل أن يستفحل أمره ، فخرج من تونس وجدّ فى السير حتى خرج من حدود إفريقية وتركها خلفه . وتراءى الجمعان بوادى أبى موسى واقتتلوا قتالاً شديداً ، وانجلت المعركة عن هزيمة يحيى وفر

---

(١) قال فى الروض المعطار : شبرو موضع على مقربة من تبسة من البلاد الإفريقية كانت به وقعة للشيخ أبى محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص ملك إفريقية على يحيى بن إسحاق المسوفى الميورقى فى آخر ذى القعدة سنة ٦٠٤ .

(٢) هذا الاسم غير معروف ، ويظهر أنه محرف .

(٣) قال فى الروض المعطار : وتراءى الجمعان بوادى أبى موسى . وقال : ووادى أبى موسى موضع بمقربة من جبل نفوسة .

لا يلوى على شيء . واغتيل فى هذه المعركة محمد الغازى ابن عم يحيى ، وحركات بن أبى الشيخ ، ومحمد بن مسعود وجمع من أعيان العرب الرياحيين ، وزعب ، وشداد ، وكثير من مشاهير العرب وأنجادها وأمرائها .

وجاء فى الروض المعطار أن هذه الواقعة كانت فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٠٥ .

وفى هذه المدة كان قراقش يقيم بودّان ، وكان بينه وبين يحيى بن غانية عداوة تقدم ذكر أسبابها ، فخاف يحيى أن يأتيه من الخلف ، فذهب إليه مع جماعة من العرب الذبابيين — وكان بينهم وبين قراقش عداوة — فحاصروه فى ودان إلى أن فنى ما عنده من القوت ، ثم استسلم ، وطلب من العرب أن يقتلوه قبل ولده — وكان شديد المحبة له — فلما أخرجوه هو وولده ، قال له ولده : يا أبت إلى أين يذهبون بنا ؟ فقال له : إلى حيث ذهبنا بآبائهم . ثم قتلوه وقتلوا ابنه بعده . وصلبه الميورقى بظاهر ودان سنة ٦٠٩ .

وترك قراقش ولداً ، وكان شجاعاً كريماً ، وألحقه المستنصر بأجناده فى تونس ، فحدثته نفسه بالثورة ، وأن ينسج على منوال والده ، ويطالب بثأره . فلحق بودان ، وأشعلها ناراً ، فأرسل إليه حاكم كانم من قتله ، وحمل رأسه إليه ، وأراح الناس من شره ، وكان ذلك سنة ٦٥٦ .

وتوفى الناصر سنة ٦١٠ .

يوسف المستنصر

تولى بعد وفاة الناصر . . . وبقى ابن غانية ينتهز الفرصة للإغارة على أطراف إفريقية بعد أن خلا له الجو من قراقش. وبقى عبد الواحد فى أيامه عاملا على إفريقية إلى أن توفى بتونس غرة المحرم سنة ٦١٨ .

السيد إدريس بن يوسف

هو السيد إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين ، وكنيته أبو العلاء . . .
تولى إفريقية سنة ٦١٨ ، وكانت له مع الميورقى وقائع هزم فيها الميورقى . . .
وتوفى السيد إدريس فى شعبان سنة ٦٢٠ .

عبد الله بن عبد الواحد

كنيته أبو محمد ، ولقبه « عبُّو » . ولى إفريقية بعد وفاة السيد إدريس .
وفى أوائل سنة ٦٢١ ثار يحيى بن غانية بظاهر تونس ، فأرسل إليه أبا زيد
فهزمه . واعتقل عبو فى ١٤ من رجب سنة ٦٢٥ ، وهو آخر أمراء بنى عبد المؤمن
على إفريقية .

الدولة الحفصية

أسسها يحيى بن عبد الواحد فى ٢٦ من رجب سنة ٦٢٥ ، ودام ملكها
إلى اليوم السادس من جمادى الأولى سنة ٩٨١ . ومدة ملكها ٣٥٥ سنة ، وأحد عشر
شهراً . وهى فرع من دولة الموحدين ينتمى إلى يحيى بن عمر الهنتاتى . وهنتاتة قبيلة
بربرية تلتحق بالمصامدة التى هى من أكبر قبائل البربر بالمغرب الأقصى .

يحيى بن عبد الواحد

كنيته أبو زكرياء[1] . وهو مؤسس الدولة الحفصية وأول أمرائها[2] ولى
إفريقية عاملا من قبل الموحدين يوم الأربعاء ٢٦ من رجب سنة ٦٢٥ . ولكنه
ما لبث أن أعلن استقلاله عليهم سنة ٦٢٦ ، وهو من كبار الأمراء الذين

---

(١) كان للأمير أبى زكريا أخ اسمه محمد ويعرف باللحيانى لطول لحيته .

(٢) أما ولاية والده عبد الرحمن ، وأخيه عبو ، والسيد إدريس فكانت من قبل الموحدين ،
ويعدون من أمراء دولة الموحدين .

أنجبتهم إفريقية . وعنى بمحاربة يحي بن غانية ، واشتد فى مطاردته ، ولم يمهله ينزل بمكان حتى ينقضّ عليه ، وما زال به حتى فرق شمله ، ومات شريداً مطروداً فى برية تلمسان سنة ٦٣١[١] . وكانت مدته من خروجه من ميورقة إلى أن مات ثلاثاً وخمسين سنة . وقد طاف بالبلاد الإفريقية طولا وعرضاً من سجلماسة إلى حدود مصر ، وقضى من عمره ثلاثاً وخمسين سنة فى حروب متواصلة ، بين نصر تارة ، وهزيمة أخرى ، ولم يذق فى هذه المدة الطويلة طعم الراحة ، إرضاء لنفسه الكبيرة فيما تتوق إليه من المجد وحسن الأحدوثة وأبهة الملك .

وبموته انقرض أمر الملثمين من إفريقية والمغرب والأندلس . وانقطع ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره ، وقد عفى أثره ولم يعرف له قبر .

وترك يحي بن غانية ثلاث بنات ، وأوصى بهنّ إلى الأمير يحي بن عبد الواحد ، وترك خادما اسمه جابر ، فأوصلهن إلى عبد الواحد وأبلغه وصية سيده إليه ببناته ، فتقبلهن قبولا حسناً ، وأحسن كفالتهن ، وبنى لهن قصراً بجواره بقين فيه حتى متن عوانس ، ولم يتزوجن ، وما زال يعرف بقصر البنات .

قال ابن خلدون : أخبرنى والدى أنه أدرك واحدة منهن فى العشر الأول من المائة الثامنة تناهز التسعين ، ولقيها ، وكانت من أشرف النساء وأسراهن خُلقاً .

يعقوب بن أبى يعقوب الهرغى

كنيته أبو عبد الرحمن . كان والياً على طرابلس من قبل الأمير أبى زكريا . واشتهر بالشجاعة . وقد سولت له نفسه أن يستقل بطرابلس . وعلم أعيان طرابلس بذلك فتشاوروا فى الأمر ، فاتفقوا على القبض عليه . وفى الليلة التى يريد أن ينفذ فى صبيحتها ما بيته قبضوا عليه هو وأخيه ومن معهما ، واستشاروا فى أمرهم أبا زكريا

---

(١) وقيل فى أواخر شوال سنة ٦٣٣ (نزهة) .

فأمرهم بقتلهم فقتلوا جميعاً ، وصلبت جثثهم على باب هوارة ، وأرسلت رؤوسهم إلى تونس .

وتوفى الأمير يحيى (أبو زكريا) ليلة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ وعمره ٤٩ سنة . ودامت ولايته ٢٢ سنة .

محمد بن عيسى الهنتاتى

وفى سنة ٦٤٦ توفى عبد الله بن إبراهيم ابن جامع ، وولى بعده على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتى ، وكان يعرف بعنق الفضة ، واستقلّ بها عن الحفصيين وتوفى سنة ٦٨٤ .

مناسبة :

ننقل ما يلى ملخصاً من رحلة التجانى[1] .

كانت زنزور أيام محمد بن عيسى الهنتاتى من أملاك أهل مدينة طرابلس ولما وقعت فتنة الميورقى وطالت مدتها انقطعت الصلة بينها وبين أصحابها بالمدينة ولم ينتفعوا بشىء من غلالتها ، فزهدوا فيها وباعوها لقبيلة من البربر تسمى مجريس وهذا أصل تملك المجرسيين لها .

ومجريس فخذ من قبيلة هوارة البربرية سموا باسم أمهم « مجريس » واسم أبيهم « وخيعن » وله زوج أخرى اسمها « تاسا » ينسب إليها التاسيون ، وهم قبيلة من البربر أيضاً ، فمجريس والتاسيون إخوة لأب .

وكانت لمجريس قوة ومنعة ، وكان بينهم وبين العرب نزاع دائم . ولما ظهر مرغم بن صابر شيخ الجوارى ، وأصبح صاحب النفوذ فى هذه المنطقة استبد بهم ، واستعبدهم حتى كاد يفنيهم ، وأصبحت السيطرة فى هذه المنطقة للعرب .

---

(١) هو عبد الله بن محمد التجانى رئيس كتبة الأمير زكريا اللحيانى ، ورفيقه فى أسفاره . ويكفى رحلته فخراً أنها أصل من الأصول التى اعتمد عليها ابن خلدون فى كتابة تاريخه . وهى من أحسن ما ألف فى الرحلات الإفريقية . توفى فى حدود سنة ٧٢٥ .

وقد طلب مرغم بن صابر من السلطان [1] أن يعطيه قرية زنزور ، وأن يكتب له بها ظهيرا « حجة » فاعطاها له فى أوائل سنة ٦٧٦ وكتب له بذلك حجة . . . ويقول التجانى : فأخبرنى صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد ابن عبد السلام الأموى التاجورى : لما وصل مرغم بن صابر إلى طرابلس أرانى الظهير « الحجة » ، وسألنى هل هو صحيح ؟ ، فقلت إنه صحيح ، وهو بالعلامة الجارية . قال فحينئذ أيقن بتملكها ، ولم يكن يصدق بذلك .

وقد تقاسمهم المراغمة من الجوارى كل على حسب رتبته ، واتخذوهم خدماً لهم ، وكانوا يتبايعونهم ، فيباع الواحد من مجريس بأرضه ونسائه وأولاده بما يتفق عليه البائع والمشترى ، ويكون المجريسى وأولاده خداماً فى أرضهم يزرعونها ويعطون الغلة للذى اشتراهم ، وهو ينفق عليهم كما ينفق على الخدم ، وإذا لم ينصحوا فى العمل باعهم لغيره بأرضهم ، وهكذا دواليك .

ويقول التجانى : إنه كان بزنزور جامع يقال إن عمرو بن العاص هو الذى بناه ، واقتطع من الجامع موضع دفنت فيه أم سالم بن مرغم وكثير من ولده . وبجوار الجامع قصر خرب يقال له القصر القديم ، ويقال إنه أول قصر بنى بزنزور . وأهل البلد يحترمون بقايا هذا القصر ، ويتفاءلون بوجوده ، ويعتقدون أن بقاء بلادهم مربوط ببقاء هذا القصر ، ويجتمعون تحت بقايا حوائطه ا هـ .

محمد بن يحيى

هو ابن عبد الواحد . ولقبه المستنصر بالله . بويع له بعد وفاة أبيه آخر جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ .وهو ثانى الأمراء الحفصيين. وفى أيامه انقرضت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو التترى . . وقد رأى أمراء مكة وأشراف الحرمين الشريفين أنه لم يبق فى البلاد العربية من هو أكبر منه شأناً ، ولا أقدر منه على جمع كلمة المسلمين ، فأرسلوا إليه البيعة بالخلافة سنة ٦٥٧ فنودى به خليفة

توفى ليلة الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٦٧٥ . وعمره خمسون سنة . ولايته ٢٨ عاماً ، وخمسة أشهر ، و ٢١ يوماً .

(١) الذى يظهر أنه محمد بن عيسى الهنتاتى .

يحيى بن محمد بن يحيى

لقبه الواثق . ولى بعد وفاة أبيه ، وخلع سنة ٦٧٧ . وقتل فى صفر سنة ٦٧٩.

إبراهيم بن أبى زكريا

كنيته أبو إسحاق . بويع له خارج تونس بعد خلع ابن أخيه يحيى بن محمد . ودخل تونس سنة٦٧٨. وقتل ببجاية فى آخر ربيع الأول سنة٦٨٢ أو٦٨٣.

أحمد بن مرزوق المسيلى

كنيته أبو عمارة ، ولقبه « الدعى » وكان خامل الذكر لا يؤبه به . وكان أمره محل عجب ، حتى قال فيه بن الخطيب الأندلسى :

غريبةٌ من لعب الليالى   ما خطرت لعاقل ببال

نشأ ببجاية ، وكان يحترف الخياطة ، مغموراً فى السوقة من الناس لاشأن له ولد بسلجلماسة سنة ٦٤٢ ، وكانت تحدثه نفسه بالملك ، فترك بجاية وحرفة الخياطة والتحق بصحراء سجلماسة ، وانتسب إلى أهل البيت وشرع يعمل لما كانت تحدثه به نفسه ، وادعى عند أغمار الناس وسوقتهم أنه المهدى المنتظر. واستعمل كل ما أمكنه من أنواع الشعوذة لاستمالتهم . ولما لم تنطل حيله عليهم ذهب يتقلب فى الأرض حتى وصل طرابلس ، ونزل على عرب ذباب من بنى سليم ، وما زال يحاورهم بشعوذته حتى بايعوه على النصرة . فأعلن عصيانه لإبراهيم بن أبى زكريا وثورته عليه . وقام بأمره فى طرابلس أمير ذباب . وأغار على طرابلس . . . وكان الحاكم عليها محمد بن عيسى الهنتاتى .

فدافع دونها ولم يتمكن ابن مرزوق من دخولها ، فتركها ، وعاث فى ضواحيها ، وجبى الأموال من زنزور ولماية ، وأغرم نفوسة وغريان ، وهوارة أموالاً كثيرة. وقد ترك طرابلس محاصرة وذهب إلى قابس فيمن معه من جموع العرب ، فبايعه حاكمها

عبد الملك بن مكى سنة ٦٨١ ، وانضم إليه الكعوب من بنى سليم ، وجاءته البيعة من جربة ، والحامّة ، ونفزاوة . وزحف إلى توزر ، وقفصة ، فاستسلم أهلها له . . . ولما استفحل أمره جهز له أبو إسحاق جيشاً من تونس بقيادة ابنه أبى فارس. وقبل أن يلتقى أبو فارس بالدعى انتقض عليه الجيش ، فرجع إلى تونس، وتقدم الدعىّ إلى القيروان فاحتلها وبايعه أهلها . وبايعه أهل المهدية وصفاقس وسوسة ، واضطرب أمر تونس، وغادرها أبو إسحاق إلى بجاية فى شوال سنة ٦٨١ ؛ واستولى أبو عمارة على تونس ، وتنازل أبو إسحاق عن الحكم لابنه أبى فارس . .

وجمع أبو فارس للملاقاة أبى عمارة فزحف إليه أبو عمارة من تونس فى صفر سنة ٦٨٢ ، والتقى الجمعان ثالث ربيع الأول من هذه السنة ، وأسفرت الحرب عن قتل أبى فارس وانتهب معسكره ، وقتل إخوته وبعث برؤوسهم إلى تونس .

وساءت سيرة الدعى وكثر ظلمه وجوره ، وقد بنى أمره على التجبر والقتل . وكان ممن نجا من معسكر أبى فارس الأمير عمر بن أبى زكريا ، فتسامع به الناس والتفوا حوله ، وثاروا على الدعىّ أبى عمارة سنة ٦٨٣ وتخلوا عنه ، ودخل الأمير عمر تونس .

عمر بن أبى زكريا

كنيته أبو حفص . دخل تونس سنة ٦٨٣ على أثر انهيار حكم الدعى وتخلّى الناس عنه. وبويع له بالإمارة . . . واختفى الدعى خوفاً من القتل . وعثر عليه بعد ليال من دخول أبى حفص تونس فى دار بعض السوقة ، فهدمت الدار وأخذ إلى الأمير عمر ، فأهين أمام الناس ، وعذب فى غير رحمة ، ثم قتل فى جمادى الأولى سنة ٦٨٣ ، وطيف بشلوه فى شوارع المدينة تشهيراً به ، ثم قطع رأسه وعلق أمام الناس ، وذهب غير مأسوف عليه ، وأرسل محمد بن عيسى الهنتاتى بطاعته من طرابلس إلى الأمير عمر ، ودخلت طرابلس فى حكمه . . وتوفى الأمير عمر آخر ذى الحجة سنة ٦٩٤ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة ولايته إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر .

يوسف بن طاهر اليربوعى

وفى سنة ٦٨٤ ولى طرابلس يوسف بن طاهر اليربوعى عقب وفاة محمد ابن عيسى الهنتاتى واستبد بطرابلس عن الحفصيين . . . واضطرب أمر إفريقية وكثرت فيها الثورات .

محمد بن الواثق[1]

لقبه أبو عصيدة ، وهو ابن جارية . ولما قتل والده الواثق كانت أمه حاملا به ، ففرت إلى بيت أبى محمد المرجانى — وكان رجلا صالحاً — ولما ولدته سماه محمداً ، وعق عليه ، وأطعم الفقراء عصيدة القمح ، وبذلك قيل له أبو عصيدة . بويع بالإمارة فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٩٤ ولقب المستنصر بالله . . . وتوفى يوم ١٠ من ربيع الآخر سنة ٧٠٩ ، وكانت ولايته ١٤ سنة ، وثلاثة أشهر ، و ١٧ يوماً .

نقل صاحب نزهة الأنظار ما ملخصه :

« الوزير جعفر المنصورى : وزير الأمير أبى حفص عمر أمير طرابلس . أخذ الوزير أموال الأمير وهرب إلى صفاقس ، واحتمى بزاوية سيدى على أبى الحسن بصفاقس فأرسل الأمير فى طلبه نحو ثلاثين فارساً ، فعثروا عليه بالزاوية ، وأبوا إلا أخذه ولو بالقوة ، وحاول الشيخ إقناعهم بتركه فأبوا . وأرادوا اقتحام حرم الزاوية للقبض عليه فغضب الشيخ ودعا عليهم ، فأصيبوا بشىء أخافهم ، فرجعوا هاربين إلى طرابلس .

وذكر أن ما نقله منقول عن ثبت مدون فى أوراق بخط محمد بن محمد الرقيق بتاريخ أواسط صفر سنة ٧٠٥

---

(١) تقدم أن الواثق لقب ليحيى بن محمد بن يحيى ، وقتل فى صفر سنة ٦٧٩ .

ولم نعثر فى أمراء طرابلس عمن اسمه أبو حفص عمر ويوجد فى أمراء تونس عمر بن أبى زكريا ، وكنيته أبو حفص . وفى أيامه كان الوالى على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتى .

زكريا بن أحمد اللحيانى[1]

كنيته أبو يحيى . قدم طرابلس أيام أبى عصيدة فأقام بها من منتصف سنة ٧٠٧ إلى أواخر سنة ٧٠٨ . ومر عليه ركب الحاج فسافر معه ، وسيأتى خبر رجوعه .

أبو بكر الشهيد

هو أبو بكر بن أبى الخطاب عبد الرحمن بن أبى بكر . ولقبه الشهيد بويع بالإمارة بعد وفاة أبى عصيدة ، وقتل فى ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٧٠٩ ودامت ولايته ١٧ يوماً .

خالد بن أبى زكريا

كنيته أبو البقاء . بويع بالإمارة يوم قتل أبى بكر الشهيد ، وكان ضعيف الرأى لا حزم عنده . ثار عليه أخوه أبو بكر .

زكريا بن أحمد اللحيانى

تقدم أن كنيته أبو يحيى ، وأنه سافر من طرابلس إلى الحج أواخر سنة ٧٠٨ وقد عاد من الحج فى أوائل سنة ٧٠٩. وكانت عودته أيام خالد بن أبى زكريا . ولما وصل طرابلس ، وجد إفريقية مضطربة لضعف أبى البقاء عن ضبطها وإدارة أمورها فدعا لنفسه فى طرابلس . وانضم إليه الكعوب : أولاد أبى الليل

---

(١) كان جدهم محمد أخو الأمير أبى زكريا ذا لحية كبيرة فلقب اللحيانى ، وتوارث عنه هذا اللقب أبناؤه وأحفاده وهو الذى كان بصحبته الأستاذ التجانى صاحب الرحلة .

من بنى سليم وبايعوه بالإمارة . . . وكان أبو بكر أخو أبى البقاء ثائراً عليه ، فكاتب اللحيانى بطرابلس ، وأرسل إليه بعض الهدايا فوعده بالمناصرة على أخيه . وأرسل اللحيانى أولاد أبى الليل مع أبى عبد الله محمد المزدورى[1] إلى تونس ، لطرد خالد بن أبى زكريا منها ، فدخلوها غرة جمادى الأولى سنة ٧١١ ، ولم يقدر خالد عن الدفاع عن نفسه ، فأعلن خلع نفسه ، وقتل فى ٨ من جمادى الآخرة سنة ٧١١ . وكانت ولايته سنتين ، و ١٣ يوماً . وحضر اللحيانى إلى تونس ، وأخذ له المزدورى البيعة العامة بالإمارة فى اليوم الثانى من رجب سنة ٧١١ .

أبو بكر بن أبى زكريا

هو أبو بكر ، بن يحيى ، بن إبراهيم ، بن أبى زكريا الأول ، أمير قسنطينة ، وكنيته أبو يحيى ، ولقبه المتوكل على الله . . . ولد بقسنطينة فى شعبان سنة ٦٩٢ وهو أخو خالد أبى البقاء المتقدم ذكره ، وكان ثائراً عليه . وتقدم أنه كاتب اللحيانى ووعده اللحيانى بنصرته على أخيه خالد . ولما احتل اللحيانى تونس اعتبرها أبو بكر عدم وفاء من اللحيانى فثار عليه .

وقد رأى اللحيانى من نفسه العجز عن القيام بالحرب وإدارة الحكم لكبر سنه فاستعان فى أموره ببعض رؤساء العرب ، فلم يزدد أمره إلا اضطراباً ، فرأى من الحكمة الرجوع إلى طرابلس ، فجمع من تونس أموالا كثيرة ، قالوا إنها تربى على عشرين قنطاراً ، وجوالين من حصى الدر والياقوت . وأناب عنه فى تونس محمد بن أبى عمران ، ورجع إلى طرابلس سنة ٧١٧ وبنى فيها قصراً

---

(١) كان المزدورى رئيس حكومة اللحيانى . وقد اضطر فى بعض ظروف حياته إلى الخروج من تونس وسكن قرية وذرف . وهى غربى قابس بنحو مرحلة ، وبها عيون ماء وقصر قديم ، ولمناسبة وجوده فى هذه القرية قال :

هذى عيـــون وذرف دع العيـــون تذرف
بدلت من أرضى بهـــا وا أســـفى وا أســـفى

عظيماً سماه « الطارمة » وهو يقع تحت السور القبلي مما يلي البحر[١] ، وقد بناه بالجليز[٢] والرخام وكان معه محمد بن يعقوب ، وهجرس بن مرغم شيخ الجواري ، وانضم إليه آل سالم ، وآل سليمان من عرب ذباب ، وكثرت جموعه من العرب . وكانت هناك فتن في الضواحي فتغلب عليها . واستقر في طرابلس . ومدة حكمه بتونس ستة أعوام وثلاثة أشهر ونصف . . . واستمر أبو بكر أمير قسنطينة في ثورته على الحكومة القائمة في تونس . وكان شجاعاً . ووقعت حروب بينه وبين بني هلال وبني سليم فتغلب عليهم .

محمد بن زكريا اللحياني

كنيته أبو ضربة . وكان الموحدون من أنصاره . بويع له بالإمارة من الموحدين والعرب بعد فرار والده إلى طرابلس في منتصف شعبان سنة ٧١٧ ولقب المنتصر . وفي سنة ٧١٨ ثار عليه أبو بكر أمير قسنطينة كما ثار على والده من قبل فاستنجد بوالده في طرابلس ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة وزيره زكريا بن يعقوب وأموالا كثيرة ، ففرق الأموال في العرب استجلاباً لنصرتهم ، فلم يغن عنه شيئاً جيش والده وأمواله . وفشل أبو ضربة في مقاومة أبي بكر ، ففرّ إلى طرابلس مستنجداً بوالده مرة ثانية ، فأمده والده بالمال والرجال وجمع جيشاً كبيراً من بني سليم وبني هلال ، والتقى بالأمير أبي بكر في فج النعام[٣] فانهزم أبو ضربة وجيشه والتجأ إلى المهدية ، فأدرك فيها وقتل في ربيع الآخر سنة ٧١٨ ودخل أبو بكر تونس في الثامن من هذا الشهر . ودامت إمارة أبي ضربة في تونس تسعة أشهر ونصفاً .

---

(١) ينسب صاحب المنهل العذب هذا القصر إلى عبد الواحد اللحياني . ويقول إنه لما مات والده أبو يحيى في مصر سنة ٧٣٢ رجع إلى المغرب يحاول أسباب الملك . وقدم طرابلس فأوطن بها وبنى بها مقعداً إلى آخره . وستأتي بعض أخباره .

(٢) هو البلاط المزخرف من القيشاني .

(٣) ويقال له أيضاً فج القيروان .

وبلغت أخبار هزيمة أبي ضربة وقتله إلى والده فى طرابلس ، فأجر أسطولا وشحن فيه أمواله وأهله ، وهرب إلى مصر سنة ٧١٨ خوفاً أن ينزل به ما نزل بابنه ، ونزل ضيفاً على محمد بن قلاوون سلطان مصر إذ ذاك فأكرم نزله ، وبقى بمصر إلى أن توفى سنة ٧٢٨ .

محمد بن أبي عمران

هو من نسل أبي عمران موسى بن إبراهيم بن الشيخ أبي حفص ، استخلفه اللحيانى على تونس لما خرج منها إلى طرابلس . ولما سافر اللحيانى من طرابلس إلى الإسكندرية أناب عنه محمد بن أبي عمران فى طرابلس . . ويظهر أن ابن أبي عمران التحق بطرابلس لما بايع العرب والموحدون أبا ضربة فى تونس ، أو لما تغلب الأمير أبو بكر على أبي ضربة ، وبقى ابن أبي عمران فى طرابلس نائباً عن اللحيانى مستقلا بها عن أمير تونس أبي بكر بن أبي زكريا الذى أخرج أبا ضربة من تونس وقتله .

واجتمع رؤساء العرب الضاربين حول طرابلس ، وفى مقدمتهم حمزة بن أبي الليل ، وأغروه بالهجوم على تونس . وقد استجاب لدعوتهم ، وجمع منهم جيشاً وأغار به على تونس ، فاستولى عليها سنة ٧٢١ ، وأخرج منها أبا بكر ابن أبي زكريا ، وبقى بها إلى أوائل سنة ٧٢٣ . وفى هذه المدة كان أبو بكر يعد نفسه لاستردادها منه . وفى صفر سنة ٧٢٣ تغلب أبو بكر على ابن أبي عمران وأخرجه من تونس واستولى عليها ، فاضطر ابن أبي عمران إلى الرجوع إلى طرابلس ، غير أنه لم يجد من الأهالى الإقبال الذى كان يجده منهم قبل هجومه على تونس وبلغ من تبرمهم به أن ثاروا عليه سنة ٧٢٤ ، وأخرجوه من المدينة ، فلحق بالعرب خارجها ، وأغار بهم على تونس مراراً ، وفى كل مرة يتركونه وحده ، وقد يئس من انتصاره بهم ، فلحق بتلمسان ، وكان أبو تاشفين حاكماً عليها فبقى ضيفاً عنده .

بنو ثابت

هم عرب وشاحيون من بنى سليم من الأسر الطرابلسية التى تسكن المدينة ، ولهم مكانة بين الطرابلسيين .

وقد استقلوا بحكم طرابلس نحو ٧٩ سنة . وكان لهم فيها أعمال يجدها القارئ فيما سنقصه من أخبارهم .

وأول حاكم منهم على طرابلس هو ثابت بن محمد بن ثابت تولاها سنة ٧٢٤ وآخر حاكم منهم عليها يحيى بن أبى بكر بن ثابت عزل عن حكمها سنة ٨٠٣ .

ثابت بن محمد بن ثابت

لما أخرج الطرابلسيون محمد بن أبى عمران ولوا عليهم ثابت بن محمد بن ثابت بن عمران سنة ٧٢٤ واستمر والياً إلى أن توفى سنة ٧٣٠ .

الوشاحيون

ويقول ابن خلدون : وفى أوائل المائة الثامنة كثرت مشاغبة المحاميد والجوارى للدولة الحفصية بتونس ، وما زال هذا شأنهم حتى تقلص ظلها عن قابس وطرابلس ، فاستبدلوا برياسة الضواحى ، وتولى بنو مكى رياسة قابس ، وبنو ثابت رياسة طرابلس ، وبهذا انقسمت رياسة أولاد وشاح إلى قسمين ، فتولى الجوارى طرابلس وضواحيها ، وزنزور ، وغريان . وتولى المحاميد بلاد قابس ، وبلاد نفوسة . ا هـ .

ويلاحظ أنه منذ ظهور زكريا بن أحمد اللحيانى قلت الأخبار عن طرابلس مما يدل على أنها بعدت عن تونس ، لأنه كلما كانت طرابلس تابعة لتونس كثر ذكر المؤرخين لأحوالها وتطورات الأمور فيها .

وفى سنة ٧٢٩ قدم وفد بنى سليم — أعداء الحفصيين — على أبى تاشفين بتلمسان يستعدونه على الحفصيين ، فأرسل معهم محمد بن أبى عمران لمحاربة

الحفصيين بتونس . فجمع ابن ابى عمران جموعاً كثيرة من العرب ، وأغار على الحفصيين بتونس فى أواخر سنة ٧٢٩ ، وضيق عليها الحصار . وفى صفر سنة ٧٣٠ استولى عليها ، وأفلت الأمير أبو بكر الحفصى جريحاً وقتل أكثر أتباعه ، ثم طُرد منها ابن أبى عمران فى رجب من هذه السنة .

وتوفى الأمير أبو بكر يوم الأربعاء الثانى من رجب سنة ٧٤٧ ، وعمره ٥٥ سنة إلا شهراً . ومدة ولايته من حين ولى فى المرة الأولى ٢٩ سنة ، وعشرة أشهر ، و ٢٥ يوماً .

محمد بن ثابت

ولى طرابلس بعد وفاة أبيه ثابت سنة ٧٣٠ . وغزا جربة فى أسطول عظيم وحاصرها ، ولقى مشقة فى فتحها . وما زال يشدد عليها الحصار حتى استولى عليها وأصبحت تابعة لطرابلس .

ولما تولى عمر بن أبى بكر على تونس سنة ٧٤٧ أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه الفضل ، وكان البحر الذى يفصلها عن البر قليل العمق ، فخاضه الجيش على أرجلهم حتى وصلوا سور البلد وحاصروها ، فتخلى عنها محمد بن ثابت ورجع إلى طرابلس .

عمر بن أبى بكر

كنيته أبو حفص . بويع له يوم وفاة أبيه أبى بكر .

وكان أبو الحسن عثمان المرينى أمير تلمسان يتوق دائماً إلى الاستيلاء على إفريقية . وفى أيام الأمير عمر أراد أن يحقق هذه الرغبة ، فرحل من تلمسان فى صفر سنة ٧٤٨ . وجمع عليه رؤساء العرب من الكعوب وغيرهم ، وأخذ بيعتهم له ، فقويت بهم شوكته ، وأرسل إليه محمد بن ثابت أمير طرابلس بيعته ، فعظم أمره ، وقصد إلى تونس فى هذا الجيش الجرار . ولما سمع به أميرها عمر ابن أبى بكر وأيقن أنه لاقبل له به فرّ هارباً ، فسمع به عثمان المرينى فأرسل

فى إثره من قتله . ودخل تونس فى جمادى الآخرة سنة ٧٤٨ . وأقر عثمان المرينى محمدبن ثابت على طرابلس ، وبقى بها إلى أن توفى سنة ٧٥٠ . وتوفى المرينى فى ٢٣ من ربيع الآخر سنة ٧٥٢ وبقى فى إفريقية سنتين ونصفاً .

عبد الواحد اللحيانى

هو ابن زكريا بن أحمد اللحيانى ، وهو أخو أبى ضربة . . . ولما مات والده بمصر سنة ٧٢٨ رجع إلى المغرب ليسعى لاسترداد نفوذهم ، ووصل إلى إفريقية وانضم إليه كثير من العرب ، وعبد الملك بن مكى حاكم قابس ، وهاجم تونس فرد خائباً ، ولحق بأبى تاشفين فى تلمسان . فأرسله إلى طرابلس . ولكن البلاد قد أصيبت بطاعون جارف [1] فى هذه السنة فمات به عبد الواحد قبل أن يصل إلى طرابلس .

ثابت بن محمد بن ثابت (الثانى)

تقدم أن محمد بن ثابت توفى سنة ٧٥٠ . وبعد وفاته ولى طرابلس ابنه ثابت من قبل إبراهيم بن أبى بكر الحفصى [2]، ولكن ثابتاً ما لبث أن استبد بها عن الحفصيين ، وقطع صلته بهم .

احتلال الجنويين طرابلس

جنوة من البلاد الإيطالية . ولقرب الساحل الإيطالى من طرابلس ، كان الطليان كثيرى التردد على طرابلس للتجارة ، وهى أكبر سوق لتجارتهم ، ولهذا

---

(١) قال فى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٢ فى سنة ٧٤٩ حصل وباء فى أوربا والشرق ، ووقع بأرض برقة إلى الإسكندرية ، وكثر الموت حتى إنه صلى فى الجامع على سبعمائة جنازة دفعة واحدة . وقدم الإسكندرية مركب فيه إفرنج فأخبروا أنهم رأوا بجزيرة طرابلس الغرب مركباً عليه طير تحوم فى غاية الكثرة ، فقصدوه فإذا جميع من فيها ميت والطير تأكلهم . وقد مات من الطير أيضاً شىء كثير اهـ .

(٢) تولى بعد وفاة أخيه الفضل سنة ٧٥١ . وتوفى فى رجب سنة ٧٧٠

كانوا أكثر الناس علماً بأحوالها واطلاعاً على عوراتها، وكانوا دائمى التربص بها . وكلما آنسوا منها ضعفاً غزوها . وتاريخهم فى هذا قديم ، وحوادثهم متكررة منذ الفتح الإسلامى إلى يومنا هذا .

وفى أيام محمد بن ثابت أخذت الأمور تستقر فيها ، ونشطت التجارة ، فأعجبتهم حالها ، فبيتوا غزوها وأعدوا لها من الجيش والأسطول ما رأوا فيه الكفاية.

ويقول عنه ابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » : إنه كان شابًّا غرّاء . فاحتال عليه الفرنج، فقدمت منهم طائفة : فى عدة مراكب بصفتهم تجاراً ، وهم مقاتلة ، فراسلوا من فى المدينة من الإفرنج وأطلعوهم على سرهم ، وأرسلوا من عندهم ترجماناً شيخاً مجرباً ، فرأى فى البلد غلاء لقلة الحب عندهم ، وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التى مع الجند ، ويجعلها عنده فى القلعة ليطمئن إليه تجار الفرنج ، وينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع . وذكر له أن الخمس الذى يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير ، وينتفع الناس بما معهم من المأكولات ، ففعل ، فلما تحقق الفرنج ذلك أنزلوا من مراكبهم بعض البضائع التى معهم ، ففرح أهل البلد بها وتسارعوا إلى شرائها منهم ، فلما اطمأن الفرنج إليهم تسوروا عليهم السور ليلا، وهجموا على البلد دفعة واحدة سحرًا وأهلها غافلون فقتلوا منهم كيف شاءوا ، وحاصروا القلعة ، فهرب ثابت — تدلى بعمامته من القصر — واستولى الفرنج على البلد وكان ذلك فى سنة ٧٥٥ حتى اشتراها منهم أبو العباس أحمد بن على صاحب قابس وجربة بخمسين ألف مثقال من الذهب .

وفى العاشر من ربيع الأول سنة ٧٥٥ صبحوها على غرة، وتسلقوا السور ، وما شعر الأهالى إلا والعدو فى الشوارع وعلى أبواب البيوت ، وحيل بين الأهالى وبين أسباب الدفاع ، وغلبوا على أمرهم ، فملكوا البلاد واستولوا على ما فيها من متاع وأموال ، وأسروا الرجال والنساء ، ونقلوا كل ما استولوا عليه إلى جنوة حتى الأسرى . ولم يتمكن محمد بن ثابت من الدفاع عنها ففر إلى قبيلة الجوارى خارج السور ليحتمى بها .

ويقول ابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة » : إنه تدلى من القصر بعمامته . . .
وديارهم معروفة الآن بجهة النواحى الأربعة جنوبى المدينة . . . والجوارى من
ذباب إحدى بطون بنى سليم ، فلم يحموه ، بل قتلوه لدم يطالبونه به . وفر أخوه
أبو بكر بن محمد إلى مصر .

بنو مكى

كانوا حكام قابس . وهم من البربر ، ونسبهم فى لواتة . وجدهم مكىّ بن
فرح ، بن زيادة الله بن أبى الحسن ، بن محمد ، بن زيادة الله ، بن الحسين
اللواتى .

أحمد بن مكى

لما احتل الجنويون طرابلس سنة ٧٥٥ كان أحمد بن مكى حاكم قابس ، فتوسط
لديهم فى فدائها ، فشرطوا عليه خمسين ألف مثقال من الذهب العين ، فقبل ؛ وأرسل
إلى السلطان أبى عنان فى تونس يستنهض همته فى دفع المبلغ ، فلم يسرع فى
الإجابة ، وألحّ الجنويون على ابن مكى فى الطلب ، فأخرج ما عنده ، واستوهب
أهل قابس والجريد والحامّة فوهبوه ما بقى ، ودفع المبلغ للجنويين وسلموا له
طرابلس بعد أن مكثوا فيها حوالى خمسة أشهر . وقد أرسل إليه أبو عنان المال
ليرده على أهله فاعتذر عن أخذه ، وإنها لرجولة منه تمثل الشهامة والنخوة ،
وأنبل عاطفة إنسانية .

وكانت قابس تابعة لتونس . فعقد له أبو عنان على طرابلس فتولاها وجعلها
دار إمارته . . . وبقى أميراً عليها إلى أن توفى سنة ٧٦٦ . . . وتوفى أبو عنان فى
الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٥٩ ، وعمره ثلاثون سنة ومدة حكمه عشر
سنوات .

عبد الرحمن بن أحمد بن مكى

ولى طرابلس بعد وفاة أبيه أحمد بن مكى . وكان عبد الرحمن سيئ التدبير عاجز الرأى مستبداً . كرهه الناس وسئموا حكمه .

أبو بكر بن محمد بن ثابت

تقدم أن محمد بن ثابت فر إلى الجوارى فقتلوه ، وفر أخوه أبو بكر إلى مصر . وفى سنة ٧٧٢ رجع إلى طرابلس بطريق البحر ومعه أسطول فأغار به على طرابلس ، وحاصرها به من جهة البحر ، وأنزل رجاله إلى البر ، واتصل بسكان الضواحى من العرب والبربر ، وألبهم على عبد الرحمن بن أحمد وأصبحت المدينة محاصرة من البحر والبر ، وكان عبد الرحمن مكروهاً من الأهالى لسوء سلوكه وتجبره على الأهالى ، وقد وجدوا فرصة للخلاص منه ، فثاروا عليه ، وفتحوا المدينة لأبى بكر فدخلها ، وقبضوا على عبد الرحمن وسلموه لأحد رؤساء ذباب فأجاره ، وأوصله إلى قابس ، وكان بها عمه عبد الملك بن مكى . وملك أبو بكر طرابلس . وأرسل هدايا كثيرة إلى أمير تونس أحمد بن محمد[1] وكان فيها كثير من الرقيق وأنواع المتاع وقدم له الطاعة فقبلها وأقره على ولاية طرابلس، ولم يزل أبو بكر والياً عليها إلى أن توفى سنة ٧٩٢

على بن عمران بن محمد بن ثابت

ولى طرابلس بعد وفاة عمه أبى بكر بن محمد سنة ٧٩٢ .

ولم يستقر بنو ثابت على حال ، فتارة يتبعون تونس ، وتارة يستقلون بطرابلس. وفى أيام على هذا اضطربت أحوالهم ، وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم فالتجأ رئيسهم أبو خلف إلى أمير تونس أحمد بن محمد الحفصى يستنجد به وطلب

---

(١) تولى إمارة تونس فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ٧٧٢ وتوفى يوم الثالث من شعبان سنة ٧٩٦ ومدة إمارته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر ونصف .

منه المعونة على غزو طرابلس ، وإخراج على بن عمران منها ، فاستجاب لطلبه وأرسل معه ابنه عمر سنة ٧٩٤ فى جيش ، وهاجموها ، وقد دافع عنها واليها على ابن عمران حتى أيسوا من اقتحامها عليه فلجأوا إلى طريق الحصار وأقاموا عليها سنة يمنعون عنها الأقوات ويشنون عليها الغارات وقد سئم عمر بن أحمد طول البقاء ، وسئم المحاصرون طول الحصار . وأخيراً اتفقوا مع عمر بن أحمد على أن يدفعوا له غرامة ويرتحل عنهم ، فدفعوا له ما اتفقوا عليه ورحل سنة ٧٩٥ وبقى على ابن عمران والياً على طرابلس .

ولم يسلم على بن عمران من المنافسة على ولاية طرابلس . فقد كان ابنا عمه يحيي وعبد الواحد ينافسانه الولاية ، ويسعيان للاستيلاء على طرابلس . ولما تولى عبد العزيز بن أبى العباس[1] استنجد به يحيي وعبد الواحد على ابن عمهما على بن عمران . فأجاب طلبهما ، وجهز جيشاً ، وسار معهما سنة ٨٠٠ لطرد على بن عمران من طرابلس وتسليمها لهما . وكان له ما أراد ، فامتلك طرابلس وقبض على واليها على بن عمران .

يحيي بن أبى بكر بن ثابت

ولاه عبد العزيز على طرابلس بعد أن احتلها ، وعقد لأخيه عبد الواحد على الجند ، وأمكنهما من السلطة على طرابلس ورجع إلى تونس . وقد اتضح لعبد العزيز أن يحيي وعبد الواحد لا يمكنهما القيام بحكم طرابلس ، ويظهر أنه أحس منهما ما يهدد نفوذه على طرابلس ، ويمكنهما من الاستقلال بها . ويقال إنه علل ما اتضح له بخوفه من هجوم الفرنجة عليها ، فسار إليها سنة ٨٠٣ وعزل يحيي وعبد الواحد ، وولى عليها من قبله أحد رجاله الذين يثق فيهم[2] ، وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بنى ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها.

---

(١) وكنيته أبو فارس ، واشتهر بعزوز . بويع له بالإمارة سنة ٧٩٦ حارب المفسدين من شيوخ العرب وأجبرهم على الطاعة وثار عليه عمال الجريد فطاردهم إلى درج غدامس . وامتد ملكه من طرابلس إلى أقصى المغرب وتوفى يوم عيد الأضحى سنة ٨٣٧ ودام حكمه إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام

(٢) قال فى المنهل العذب : اسمه عبد العزيز ، ولم يزل والياً على طرابلس إلى أن توفى سنة ٨٢٣.

محمد بن عبد العزيز

لقبه المنصور. وفى أوائل سنة ٨٠٣ حاصر عبد العزيز طرابلس . واضطرته شدة المقاومة إلى أن يطيل حصارها . وفى اليوم السادس من رجب من السنة المذكورة تغلب عليها ، ودخلها فاتحاً وعين ابنه المنصور والياً عليها . وتوفى المنصور فى طرابلس سنة ٨٣٣ . ومدة حكمه عشر سنوات ، ونقل جثمانه إلى تونس ، ودفن إلى جوار سيدى محمد بن خلف .

عبد الواحد بن حفص

كنيته أبو محمد . عقد له أبو فارس على طرابلس بعد وفاة ابنه محمد المنصور سنة ٨٣٣ . وكان أبو محمد هذا حازماً فى أموره ذا رأى صائب قوى الإرادة .

ولما عرضت عليه الإمارة اشترط لقبولها شروطاً : أولا : أن يبقى والياً على البلاد ، ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من الغنى والراحة. ثانياً : أن يستقل بالإدارة ، ولا يرد أمره فى شىء . ثالثاً : أن يتخذ لنفسه جنداً حسبما يريد . وقد قبلت كل شروطه على رضى من الأمير عبد العزيز .

ومنذ أن أسندت إليه أمور طرابلس أخذ يعمل لاستتباب الأمن ، واطمئنان الناس على أموالهم وأرواحهم . وضرب على أيدى الأشقياء من الأعراب العابثين بالأمن . وسلك معهم طريق الترغيب تارة، والترهيب أخرى حتى قضى عليهم وأقام العدل بين الناس فيما ولاه الله منهم . فملك ناصية الأمور ، ونعمت البلاد فى أيامه بالراحة . واتسعت تجارتها ، وكثرت الأموال . وبقى والياً عليها إلى أن توفى سنة ٨٥٨ [1] . ومدة حكمه ٢٥ سنة كانت من أهنأ السنين على البلاد راحة ورغد عيش .

---

(١) يقول الأستاذ بيرم تولى بعده ابنه ، ولم نعثر على اسم هذا الابن ولم يذكره هو .

وقد أقره على ولاية طرابلس محمد المنتصر[1] بن محمد المنصور ، وعثمان ابن محمد المنصور.

أبو بكر بن عثمان

ولاه والده عثمان[2] بن محمد على طرابلس سنة ٨٥٨ عقب وفاة عبد الواحد ولم يحدث فى زمنه ما يكدر صفو البلاد ، لأن عبد الواحد مهّد له السبيل ، وأقام فيها من العدل ما حفظها من الفتن أيام أبي بكر.

وفى أيامه سنة ٨٦٢ جاء والده عثمان إلى طرابلس ليتفقد أحوالها ورجع إلى تونس .

يحيى بن محمد المسعود

هو حفيد عثمان . وقد توفى والده محمد المسعود فى حياة جده عثمان سنة ٨٧٥ فأوصى له جده بالإمارة بعد وفاته ، واسندت إليه فى أواخر رمضان سنة ٨٩٣[3] وكان عمه أبو بكر والياً على طرابلس فأقره على ولايتها . ولكن أبا بكر لم تسترح نفسه لإسناد الإمارة لابن أخيه ، ويرى أنه أولى بها منه ، وأن فى تخطى والده له وإسنادها لابن أخيه غمطاً لحقه وحطًّا من كرامته . فشق على ابن أخيه عصا الطاعة ، وحاول أن يستقل عليه بطرابلس ، وطلب من أهلها أن يؤيدوه ، ويبايعوه بولايتها مستقلا بها عن تونس . ولكن أهل طرابلس لم يوافقوه .

---

(١) بويع له بالإمارة بعد وفاة جده عزوز يوم عاشوراء سنة ٨٣٨ وتوفى يوم ١٢ من صفر سنة ٨٣٩

(٢) بويع لعثمان بعد وفاة أخيه محمد المنتصر يوم ١٣ من صفر سنة ٨٣٩ . وفى أيامه سنة ٨٤١ توفى أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن حلولو الزليطنى . ولى قضاء طرابلس ورجع إلى تونس . وهو شارح جمع الجوامع . ومختصر خليل وتنقيح القرافى . وإشارات الباجى . وعقيدة الرسالة . وتوفى عثمان سنة ٨٩٣ .

(٣) توفى يحيى بالطاعون فى ٩ من شعبان سنة ٨٩٩ ، ومدة إمارته ست سنين إلا أربعين يوماً .

ثورة بنى غراب

ثار بنو غراب على أبى بكر ، وناصره بعض السكان ، ووقعت حرب بين الفريقين انتهت بالقبض على أبى بكر وإرساله لابن أخيه فى تونس فسجنه أياماً ثم قتله . وبقيت طرابلس تعانى شر الانقسام والتحزب . وقد قام من بينهم رجل يقال له منصور فسعى بين الفريقين بالخير فاستمعوا لنصائحه ، فهدأت الفتنة . وقد جازاه الطرابلسيون خير جزاء فاختاروه حاكماً للمدينة عليهم بدلا من الحاكم الحفصى أبى بكر . وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور [١] حاكماً على المدينة ، فجاءته البيعة من غريان ، وترهونة ، ومسلاته وبنى وليد [١] .

وما لبث الشيخ منصور أن تغيرت حاله ، وأصبح جباراً ظالماً فقتله أحد أقاربه حوالى سنة ٨٧٦ هـ . وخلفه فى الحكم رجل يقال له يوسف [١] ، ومات بالطاعون سنة ٨٨٥ هـ . وخلفه فى الحكم مامى [١] وبقى فى الحكم نحو اثنتى عشرة سنة ، وتوفى سنة ٨٩٨ هـ . . واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف [١] فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلا يميل إلى العبادة والزهد فى الدنيا حتى لقب بالمرابط . وقد تغلبت عليه هذه الناحية الروحية ، فلم يكن عنده اهتمام بتحصين البلاد ، وتقوية أبراجها وأسوارها ، ولا بإعداد الجند الكافى للدفاع عنها ، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء .

ولم تكن ثورة بنى غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد . وقد دام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة استطاع فيها السكان أن يضيفوا إلى ثروتهم ما فقد منها أيام ثورة بنى غراب .

ويمكننا القول بأن طرابلس — منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣ — إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦ — كانت فى رخاء مستمر وأمن شامل،

---

(١) تعيين هذه الأسماء منقول عن رسالة الأستاذ عمر البارونى .

وأمكنها فى هذه المده — وهى لا تقل عن ٨٣ سنة — أن تجمع ثروة هائلة كانت مضرب المثل فى الشمال الإفريقى ، وذهب أهلها فى متع الحياة مذاهب شتى أدت بهم إلى أن أفسد الترف عزائمهم ، وانصرفوا إلى ملذاتهم عن كل شىء يذكى فيهم روح الشهامة ، ويحملهم على اتخاذ الأسباب لتحصين بلادهم ، والدفاع عن حريمهم ، وعن هذه الثروة الهائلة التى شاع ذكرها فى جميع البلاد الأوربية ، والتى كانت سبباً فى تكالب الفرنجة على استعبادهم .

احتلال الأسبان لطرابلس

بعد أن سقطت الأندلس فى أيدى الأسبان ازدادوا حمية ورغبة فى مطاردة العرب للتنكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامى ومطاردة معتنقيه أينما وجدوا . وانضم إلى هذه الحركة أنصار البابوية فى روما ، وشاركت فيها كل الطوائف النصرانية، إلا أن الكاثوليك كانوا فى المقدمة. وعلى جهودهم تقوم حركة مطاردة الإسلام ومعتنقيه . وكان أكبر ميدان لهذه الحركة هو الشمال الإفريقى بعد الأندلس لقربه من بلاد الأندلس وهى زعيمة هذه الحركة ، ومن جنوب أوربا الذى يناصرها سكانه ، وهو يعتبر مهد الكاثوليكية ومنبعها .

ولم يكن يجرؤ أحد من الأوربيين على مزاحمة الأسبان فى زعامة هذه الحركة ، لأن بيئتهم تأثرت بحضارة العرب ، ونفوسهم تشبعت بعلومهم وآدابهم ، واقتبسوا عنهم خطط الحرب وخداعها ، وكيف ينال النصر وتتقى الهزيمة ، فكانوا فى مقدمة الأوربيين الذين استضاءوا بنور الحضارة الأندلسية ، وأيضاً فهم الذين طردوا العرب من الأندلس ، لهذا وذاك كان الأسبان أولى بزعامة الحركة التى تهدف إلى إبادة العرب والقضاء على الإسلام .

وابتدأت الحركة باحتلال الجزائر . ففى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٨١٤ احتل الكونت بدرو نافارّو وهران عاصمة الجزائر . . . وفى ٥ من رمضان سنة ٩١٥ احتل بجاية .

وازداد تكالب الأسبان على احتلال الساحل الإفريقى تكالباً شجعهم عليه ضعف الدولة الحفصية ، وما أحرزوه من نصر فى احتلال وهران ، وبجاية .

وكانت رغبة الانتقام من المسلمين ، والعرب على الأخص تدفعهم دفعاً ، وتبدو واضحة فى أعمالهم الهمجية التى يرتكبونها فى كل بلد تمكنوا من احتلاله وأوقعه سوء حظه تحت سيطرتهم . . . فما كانوا يوقرون شيخاً ، ولا يرحمون ضعيفاً ولا يترفعون عن قتل الأطفال ، وبقر بطون الحوامل ، وهتك الحرمات ، وأعمال السلب والنهب .

وفى أثناء ما كان الأسبان يحتلون الشمال الإفريقى كانت الدولة العثمانية ظهرت إلى الوجود ، وتركزت فى الآستانة ، وكانت دولة مسلمة يهمها من أمر الإسلام ما يهم كل مسلم يحترم دينه ، وكان لحوادث الأندلس وقع سيئ على نفس هذه الدولة الفتية ، وامتد نفوذها إلى شرقى البحر المتوسط .

ولم يهمل الأسبان من حسابهم هذه الدولة الناشئة التى تدين بالإسلام الذى جردوا للقضاء عليه كل ما يملكون من نفس ونفيس . وقد أصبح لها أسطول ، ونفوذ فى البحر المتوسط . وأيقنوا أنهم إذا لم يتقوا هذا الخطر بما يحول بينهم وبينه ، أو بما يحد من نشاطه أدركهم لامحالة ، وقضى على مشروعاتهم العدوانية ضد الإسلام .

وكانت طرابلس أقوى مركز يتخذ لمواجهة الخطر العثمانى فى البحر المتوسط لأنها أكبر مدينة فى شرق الشمال الإفريقى ، وأقوى نقطة للدفاع عنه من الهجوم عليه من الشرق ، وأقرب نقطة لتموين ونجدة الجيوش التى تغزو الشرق . وقد كانت طرابلس فى السنين الأربعين التى تقدمت احتلال الأسبان امتازت بنصيب وافر من الثروة ورفاهة العيش . فكان مركزها الجغرافى والطمع فى الاستيلاء على ثروتها يدفعان إلى التعجيل باحتلالها . وفى السيطرة على ثروتها فائدة أخرى ، وهى أنها لا ينتفع بها فى إنشاء الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التى قد تحول بينهم وبين احتلالها وحينئذ يصبح مركز مالطة بل وكل الشمال الإفريقى فى خطر .

ومن أقوى الأسباب التى هيأت للأسبان احتلال طرابلس هو ضعف الحامية فيها ، وانصراف الناس إلى تنمية المال ، وإلى متع الحياة عن الاهتمام بتقوية الجيش وتحصين القلاع .

ومن المناسبات التى انتهزها الأسبان للتعجيل باحتلال طرابلس أنه فى سنة ٩١٦ – وهى سنة الاحتلال – وقع خلاف بين أحمد الحفصى وبين والده الناصر ، فذهب إلى الأسبان يستنجد بهم على أبيه، واتفق أن جاء تجار من الأسبان كانوا فى طرابلس ، فأخذوا يغرون حكومتهم بطرابلس ويقللون من شأنها ، ويصفون لها ما فيها من الثروة الهائلة ، وما فيه أهلها من التنعم الذى أدى إلى انحلال رجولتهم ، وتركهم كل ما يستعمل فى الحرب حتى المدى ، وقالوا له : ما رأينا بلداً أكثر منها مالا ، وأقل سلاحاً ، وأعجز عن مدافعة العدو ، فكان هذا الوصف مشجعاً للأسبان على التعجيل باحتلالها .

وهذا وصف للحملة الأسبانية مختصر من رسالة : « الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس » للأستاذ عمر محمد البارونى.

وكان الأسبان قد استعدوا لغزو طرابلس ، فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية ، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة ، وشحنت بخمسة عشر ألف جندى من الأسبان ، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين . وفى ٨ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . أقلع الأسطول من فافينيانا ، ومر بجزيرة قوزو بمالطة فتزود منها بالماء . وانضم إلى الجيش خبير مالطى اسمه جوليانو بيلا له معرفة بطرابلس . وقد أعدت هذه الحملة بإشراف نائب الملك فى صقلية . وبإعانة الجيوش الصقلية والإيطالية .

وقد تسربت أخبار هذه الحملة إلى طرابلس قبل حركتها بنحو شهر ، فأخذ الناس فى الهجرة منها إلى غريان ، وتاجورة ، ومسلاتة ، وأخذوا معهم كل ما كان مهماً من أموالهم ، وما أمكنهم من أثقال متاعهم ، ولم يبق بالمدينة إلا المحاربون ، وشيخ المدينة وأهله ، واسمه عبد الله بن شرف وبعض

السكان الذين لم يقدروا على الفرار ، وانحازوا إلى قصر الحكومة والجامع الكبير. وصعد المحاربون فوق الأسوار وعلى القلاع .

واقترب الأسطول الأسبانى من المدينة ، ورسا على مينائها ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠ م . وهو اليوم الذى يوافق يوم القديس جاك الرسول ، وهو يوم محترم عند الأسبان . وبات القائد العام الكونت بدرو نافارّو يرتب الجيش ويصدر إليه الأوامر . . . وكلف أربعة آلاف جندى منه بمهاجمة العرب خارج المدينة لقطع الاتصال بينهم وبين من بداخلها ، وكلف باقى الجيش بمهاجمة داخل المدينة ، ومن على الأسوار وداخل القلاع .

وأنزلت الجيوش فى القوارب وكانت بقيادة « بييترو نافارّو » . وفى الساعة التاسعة صباحاً ابتدأ الهجوم ، وأطلقت السفن مدافعها على الأسوار وقصر الحكومة . ونزل الجيش المكلف بمنع العرب من الاتصال بالمدينة إلى البر بجهة سيدى الشعاب لمنع الاتصال بالمدينة . . واندفع الجيش الأسبانى نحو المدينة تحميه مدافع الأسطول ، فاحتل البرج القائم على باب العرب وبعض الأسوار . وتمكن الأسبان من فتح باب السور ، واتصل الجيش الخارجى بالجيش الداخلى واستبسل الطرابلسيون فى الدفاع . وجاء فى رسالة القائد نافارّو أنه لم يخل موضع قدم فى المدينة من قتيل[1] ، ويقدر عدد القتلى بخمسة آلاف ، والأسرى بأكثر من ستة آلاف . وتغلب الأسبان على مقاومة العرب العنيفة . واحتل قصر الحكومة عنوة ، وأسر فيه شيخ المدينة الشيخ عبد الله بن شرف هو وزوجه وأبناؤه . وقد حمى وطيس المعركة حينما تمكن حامل العلم الأسبانى من نصبه على برج القصر .

وأبدى من التجأوا إلى الجامع الكبير مقاومة شديدة ، فقتل منهم نحو ألفى طرابلسى بين رجال ونساء وأطفال . . . ويقول بعض من نقل عنهم السيد عمر البارونى : إن القتلى من الأسبان كانوا ثلاثمائة رجل . وكان من بين الموتى

---

(١) رسالة الأستاذ عمر البارونى .

كولونيل كبير فى الجيش ، وأميرال الأسطول ، وشخصية أخرى كبيرة من النبلاء .

وقبل أن تغرب شمس يوم ١٨ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . سقطت مدينة طرابلس فى يد الأسبان . سقطت مدينة طرابلس العربية المسلمة فى يد أعداء الإنسانية الأسبان والطليان ، أعداء الفضيلة والحق . سقطت بعد أن أريقت دماء الطرابلسيين فى كل بقعة منها ، وعلى كل منفذ وطريق ، وفوق كل قلعة وبرج ، وفى صحن الجامع وعند المحراب — دفاعاً عنها ، وعن عفاف النساء وطهارة المحجبات ، فحيثما توجهت تعثرت رجلاك فى جثث أطفال لم يرث لصراخهم ، وفى أجسام نساء مبقورات البطون مقطوعات الأثداء لم ترع حرمتهن ، وفى أشلاء شيوخ لم تحترم شيخوختهم ولكثرة القتلى فقد ألقيت جثثهم فى صهاريج الجوامع وفى البحر وأحرق بعضها بالنار . وأخذ شيخ المدينة عبد الله ابن شرف هو وأولاده وحريمه أسرى إلى بلرمو ، وبقوا هناك نحو عشر سنوات كل ذلك من أجل الصليب ، وفى مرضاة الصليب .

هذا موجز ما جاء فى رسالة الأستاذ البارونى عن حملة الأسبان على طرابلس ولا شك أن الحامل على التمثيل بالنساء والأطفال هو الانتقام من العرب ، والتعصب ضد الإسلام للقضاء عليه فى الشمال الإفريقى ، وكل حرب اشتملت على مثل هذه الشناعات سماها الأوربيون الحرب المقدسة ، وأن ما ارتكبه الطليان من فظائع فى طرابلس لما احتلوها سنة ١٣٢٩ هـ . ١٩١١ م . لهو صورة معادة من هذا الانتقام الصليبى الذى يتقرب به الأوربيون إلى الصليب كلما تمكنوا من الاستيلاء على بلد عربى أو إسلامى ، ويرونه من صفاتهم الإنسانية الكاملة التى يتباهون بالاتصاف بها ، ويتقربون بها زلفى إلى الصليب .

قصة عجيبة

اقترن هذا الاحتلال بقصة عجيبة ، صيغت فى قالب يبدو أنه مغرق فى الخيال إلى أبعد حد ، وقد أجمعت كل الكتب التى ألفت بعد هذا الاحتلال على ذكر هذه القصة وما اشتملت عليه من غرابة بدون أن ينتقدها أحد أو يعلق عليها برأى مما يجعل النفس لا تستغرب أن يكون لها ظل من الحقيقة .

ذلك أن طرابلس توالت عليها الفتن فى تاريخها القديم ، فما تكاد تنتهى فيها ثورة حتى تقوم أخرى . ودامت على هذه الحال مئات السنين ، وهى مسرح للملاحم السياسية والعسكرية التى كانت تثيرها الخلافات بين الحكام والأمراء وبعض النزعات المذهبية ، وقد استمرت هذه الحال من القرن الثانى الهجرى ما عدا فترات قليلة لا تعدّ شيئاً فى مئات السنين ، حتى أتت هذه الحروب المتواصلة على الرجال والثروة ، وكان لها أسوأ الأثر على تأخر الثقافة العربية فيها ، حتى قال بعض المؤرخين : إن طرابلس كانت تعتمد فى ثقافتها — خلال هذه المدة — على من يفد عليها من الحجاج وطلاب العلم مغرّبين ومشرقين ، وعلى من يستصحبهم أمراء إفريقية معهم فى طريقهم إلى الحج من أهل العلم والفضل . وكان السكان يعيشون فى حياة مضطربة ، توارثها الأبناء عن الآباء ، وورثها الآباء عن الأجداد ، لا أمن على الحياة ، ولا أمل فى ادخار رزق أو تنمية مال ، وقد عانت المدينة أكبر قسط من هذا الاضطراب . وفى سنة ٨٣٣ تولى عليها عبد الواحد بن حفص من قبل أمير تونس عبد العزيز بن حفص المشهور بعزوز وقد اتصف هذان الرجلان بالحزم والشجاعة ، والعدل وقوة الإرادة . وأطلقت الحرية لعبد الواحد فى إصلاح البلاد كيفما شاء بدون معارض فبذل من حزمه وسديد رأيه ما يبذله المخلصون القادرون على الإصلاح . فاستتب الأمن فى طرابلس ، وشعر الناس بالطمأنينة ، فاندفعوا بكل قواهم إلى العمل فى التجارة ، والزراعة ، والصناعة . ووجدوا من رعاية هذا الرجل المصلح ما أبدل خوفهم أمناً ، وفقرهم غنى . وبقوا فى حكم عبد الواحد ٢٥ سنة ذاقوا فيها

من ألوان السعادة ما لم ير أجدادهم قريباً منه فى مئات السنين الماضية ، وجاء بعد عبد الواحد أبو بكر بن عثمان فبقى معهم ٣٥ سنة لم يحدث فيها ما يكدر الصفو بما مهد له عبد الواحد بعدله وقوة عزيمته مما كان خير عون له على الحكم الصالح .

وفى هذه المدة الطويلة أثرى الطرابلسيون إثراء لا مزيد عليه ، وانغمسوا فى الرفاهية وبُلهنية العيش ، ولم يقفوا عند حد فى إشباع رغباتهم من نعيم الحياة تعويضاً لما فاتهم فى تلك السنين القاسية الطويلة .

وقد انتهى بهم هذا الرفه إلى تلك النتيجة التى تنتظر ذوى الرفاهة وهى انحلال العزائم ، وميوعة الرجولة التى جرت سنة الله أن تكون دائماً سبباً فى انهيار كل أمة مترفهة .

وبما أن طرابلس على صلة دائماً بشواطئ البحر المتوسط الشمالية فقد لفت إليهم ما تأثروا به من ميوعة الترف أنظار أوربا عامة ، والإيطاليين والأسبانيين خاصة فجعلوا يفكرون فى احتلال هذا البلد الذى أفسدت الرفاهية رجولة أهله ، وحلت عزائمهم ، فبيتوا الأمر ، وتزعم الأسبان المؤامرة ، وأشركوا معهم النابليين ، والصقليين ، والمالطيين واحتلوا مدينة طرابلس فى المحرم سنة ٩١٦ كما ذكرناه آنفاً .

وإلى هنا لا نجد فى الأمر غريباً من قوم جربوا بؤس الحياة وويلات الحرب أجيالا ، ثم لما بسط عليهم العدل جناحه جدوا فى كسب الثروة ، وانغمسوا فى نعيم الحياة حتى وصلوا إلى نتيجة هذا الانغماس ، وهى الانحلال ثم الاستعباد.

ولكن الغريب فى الأمر هو ما ذكرهُ الأستاذ بيرم الخامس(١) وغيره من المؤلفين وجعلوه سبباً فى هذا الاحتلال .

---

(١) ذكره فى كتابه : « صفوة الاعتبار » . وذكره الأستاذ محمود مقديش الصفاقسى فى كتابه « نزهة الأنظار » . وهو من أهل القرن الثانى عشر هـ وتوفى سنة ١٢٢٨ وأما الأستاذ بيرم فقد ولد سنة ١٢٥٥ وذكر هذه القصة ابن غلبون ، وهو من أهل القرن الثانى عشر . ورجع من الأزهر إلى مصراتة سنة ١١٣٣ هـ . وذكرت فى المنهل العذب .

لؤلؤة ودلاعة[1]

قال الأستاذ بيرم : ولطول ما تقلبت على الطرابلسيين الأحوال ، وتعاقبت عليهم دول الاحتلال سئموا الحرب ، وصار حمل السلاح عندهم ممقوتاً وأثروا إثراء عجيباً ومالوا إلى الدعة .

وقد حدث أن جاءت إلى طرابلس سفينتان أسبانيتان محملتان بالبضائع ، فاشتراهما تاجر واحد ، ودفع ثمنهما نقداً ، فعجب أصحاب السفينتين لذلك ثم دعاهم آخر للضيافة ، فأقام لهم مائدة فاخرة مما زاد فى إعجابهم . وقد دفع هذا التاجر غروره بالمال إلى أن أخذ لؤلؤة ثمينة ودقها دقاً ناعماً ، وذرها على الطعام على مرءاً من الضيوف ، وقال لهم هذا مقام الفلفل ، ثم أحضر (دلاعة) بطيخة خضراء ، ولكنه لم يجد سكيناً يقطعها بها ، فسألهم سكيناً فلم يجد عندهم ، فسأل جيرانه فلم يجد ، فذهب إلى السوق واشترى سكيناً . ولما سألوه عن عدم وجود السكين قال لهم : إن الأهالى كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلا ونهاراً أيام الظلم والعدوان . ولما استقر الأمن والعدل صار حمل السلاح بيننا أمراً معيباً ، ومن حمله يعرض نفسه للإهانة . فتعجب الأسبان مما رأوا ، وأخبروا دولتهم بذلك فطمعت فى طرابلس ، واحتلتها سنة ٩١٦ . . . هذا ما ذكره الأستاذ بيرم ، وذكر قصة أحمد الحفصى التى ذكرناها آنفاً ، والتى لم نطلع عليها لغيره .

فاللؤلؤة الثمينة التى دفع الغرور بصاحبها إلى أن يسحقها ويذرها على الطعام حباً فى الظهور بمظهر الغنى . . . وعدم وجود السكين فى بيوت هؤلاء الأغنياء : لا لسبب سوى كراهتهم للحرب . هذان الأمران هما محل الغرابة من كثير من الناس ، والانتقاد من القراء للمؤلفين الذين يسوقون مثل هذه الغريبات ولا يعلقون عليها بكلمة .

---

(١) الدلاعة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء وهى معروفة عند البربر فى الشمال الإفريقى منذ القدم ، وعرفها عنهم العرب منذ دخولهم إفريقية . وقد ذكر المؤرخون فى سبب قتل إدريس بن عبد الله أنه سم فى (دلاعة) سنة ١٧٥ هـ .

ورأيي : أما عن الياقوتة ، فإن الغرور قد يدفع بصاحبه إلى أكثر من هذا فهو لا يقف بصاحبه عند حد ، وصاحبه لا يفكر فيما وراء ما تحدثه به نفسه.

وأما عن عدم وجود السكين ، فأنا فى شك من هذا الخيال المرتب كما يشك غيرى . وكراهة اقتناء السلاح الناتجة عن كراهة الحرب لا تنتج عدم وجود السكين فى البيوت ، لأن السكين ليست من آلات الحرب التى تقابل بها مدافع الأسبان وبنادقهم وسيوفهم ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن السكين من ضروريات البيوت التى لا يمكن الاستغناء عنها . ولا أقل من أن توجد سكين فى المطبخ لتقطيع البصل وما يحتاج إليه الطعام ، وخصوصاً فى بيوت الأغنياء ، فمن المتعذر على العقل التصديق بصحة هذه الخرافة .

* * *

وابتهجت أوربا بسقوط طرابلس ، وأقام نائب البابا احتفالات الفرح بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية فى أيدى المسيحيين . كما استاء المسلمون لهذا الاحتلال ، وقابله الطرابلسيون المقيمون فى الإسكندرية إذ ذاك بعمل عدائى ضد الأسبان فى الإسكندرية وأحرقوا لهم فندقاً[١] .

وأرسل القسيس أمريكو دامبواس رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا إلى فرديناند ملك أسبانيا تهنئة ، ويرجوه أن يتابع فتوحاته فى إفريقية[٢] .

وأراد الكونت بييترو نافارّو أن يتخذ من طرابلس قاعدة لغزو الشمال الإفريقى ، فأقلع أسطوله يوم ٢٢ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . فى ١٢ سفينة قاصداً جربة . ولكن فظائع الأسبان فى طرابلس سبقت نافارّو إلى جربة ، فكانت من أشد ما حمل أهلها على الاستماتة فى الدفاع وأيقن الكونت نافارّو بهذا العزم فعدل عن الاشتباك فى حرب مع جزيرة جربة وأقلع راجعاً إلى طرابلس ، فى جمادى الأولى من هذه السنة . وجمع قواه مرة ثانية ، واستعان بأسطول طليطلة الأسبانى ، وجيش بجاية ، وزحف على جزيرة جربة مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة ٩١٦ هـ . فهزم فيها

---

(١) رسالة الأستاذ عمر البارونى .

شر هزيمة وأقلع عن جربة فى ٢٧ منه ورجع إلى طرابلس يجر أذيال الخيبة بعد أن ترك من جيشه ثلاثة آلاف قتيل ، وعدداً كبيراً من الأسرى .

وانتهز الطرابلسيون المعسكرون خارج السور غياب نافارّو وأسطوله وانقضوا على المدينة ، وتسلقوا السور ، ولكنهم لم يوفقوا فرجعوا أدراجهم . . .

ويقول الأستاذ البارونى : إن هذه الكوارث لم تفت فى عضد الطرابلسيين بل دأبوا على الدفاع ، واستعانوا بإخوانهم فى الدواخل ، وتألفت مراكز للمقاومة فى الجبل الغربى وغريان وتاجورة . اهـ .

ولم يغفل محمد بن حسن الحفصى إعانة طرابلس فجمع جيشاً كبيراً بقيادة محمد أبى الحداد[1] قائد توزر ، وكان من أكبر قواده ، ووصل إلى طرابلس ونزل خارج السور وانضم إلى هذا الجيش المحاربون الطرابلسيون ، وهاجموا المدينة فى ذى الحجة سنة ٩١٦ هـ . فبراير سنة ١٥١١ ولكنهم لم يظفروا منها بطائل .

ويقول صاحب المؤنس[2] : إنه حصلت مبارزة بين أبى الحداد وأحد قواد الأسبان ، فاحتضنه أبو الحداد وأخذه أسيراً . ودام حصار أبى الحداد لطرابلس سبعة أشهر ، ثم مات أبو الحداد وتفرق جيشه[3] .

وكان من الضرورى أن يبعث أمير تونس محمد بن الحسن بهذا الجيش لمساعدة الطرابلسيين ، لأنه علم أن الأسبان ينصبون له الشباك ويتآمرون عليه ولو قدر له أن ينجح فى طرد الأسبان من طرابلس لكان فى هذا نصر له كبير ، وتقوية لمركزه .

---

(١) سماه الأستاذ البارونى محمد أبو شداد .

(٢) تأليف الأستاذ محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى .

(٣) ذكر فى المنهل العذب اسماً آخر غير أبى الحداد ، وذكر لموته قصة الله أعلم بصحتها ، مع ما فيها من عدم ارتباط الحوادث .

العهد الأسبانى

كان العهد الأسبانى فى طرابلس عهد استبداد وظلم ، وشغلتهم جباية الأموال وفرض الضرائب عن القيام بأى إصلاح فى البلاد . وشغل الناس بأمر الأسبان عن أعمالهم ، ومتابعة نشاطهم فى الزراعة والصناعة والتجارة فعم الخراب والفقر البلاد والعباد . وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الطرابلسيين فلا العرب أمكنهم أن يقتحموا المدينة على الأسبان ، ولا الأسبان أمكنهم أن يجلوا العرب عن تاجورة. وقد طال المقام بالأسبان على هذا الوضع المائع . وإذا استثنينا بعض الإصلاحات التى أحدثوها فى قصر الحكومة وبعض الأسوار زيادة فى تقوية الحصون سنة ٩٢٤ هـ . ١٥١٨ م . أمكننا أن نؤكد أنهم لم يقوموا بأى إصلاح فى البلاد ، بل أفسحوا الطريق للخراب يعبث بجميع أنواع النشاط المادى والأدبى . وكان الحصار المضروب حول أسوار المدينة من الطرابلسيين ، وفداحة الضرائب[١] التى فرضوها على التجارة الواردة إليها من البحر من أكبر العوامل التى جعلت سكان المدينة فى فقر مدقع ، وجعلت أسواقها فى كساد مستمر ، وتجارتها فى بوار ، فانصرف عنها الموردون إلى غيرها من موانى البحر الأبيض ، وانقطع منها المصدرون لفناء الثروة وإنقطاع العمل .

تحول فى السياسة الأسبانية

كانت أخبار نشاط الأسطول العثمانى فى شرق حوض البحر الأبيض قد انتشرت . وامتدت أطماع الترك إلى الناحية الغربية من هذا البحر ، وأسندت قيادة الأسطول التركى إلى رجال ذوى مقدرة وشهامة مثل خير الدين برباروسا وغيره . وكانت روحهم متشعبة بالدفاع عن حوزة الإسلام وكرامة معتنقيه . . . ووصلت بعض قطع الأسطول التركى إلى المياه الطرابلسية سنة ٩١٨ هـ . ١٥١٢م

(١) يقول الأستاذ البارونى إنها كانت ٥٠ ٪ .

فكان لما أبداه من جرءة ، ولما لاقاه الأسبان من عدم النجاح فى التغلب على الطرابلسيين رد فعل كبير فيما كان يبديه الأسبان من تحمس لامتلاك طرابلس يضاف إلى هذا الهزائم الشنيعة التى لاقوها فى فتح جزيرتى جربة وقرقنه ، فكانت هذه الأسباب مجتمعة ومتفرقة من الأسباب التى حملت ساسة الأسبان على التفكير فى تغيير سياستهم نحو طرابلس ، بل ونحو الشمال الإفريقى كله .

وأول بوادر هذا التحول إلحاق طرابلس بصقلية فى الإدارة .

ففى سنة ٩١٩ هـ . . تنازل ملك إسبانيا عن إدارة طرابلس إلى نائب الملك فى صقلية ، وأصبحت مدينة طرابلس تابعة فى الإدارة لصقلية . وأرسل نائب الملك إلى طرابلس جوان فرنشيسكو والياً عليها . وشجع نائب الملك بعض الأسر الصقلية على الهجرة إلى طرابلس لتعميرها ، ووعدهم بإعفائهم من الضرائب ، وإعطائهم بيوتاً يسكنونها ، وأرضاً يزرعونها ، وذلك ليبعث فيها روح النشاط التجارى والصناعى الذى فقدته بسبب جلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان .

وزيادة فى الترغيب وعدهم بالعفو عن أصحاب الجرائم منهم .

ولما مات الملك فرديناند ملك الأسبان سنة ٩٢٢هـ خلفه الإمبراطور المقدس شارل الخامس ، وبدأ التحول واضحاً فى سياسة شارل ، ويظهر أنه اضطر إلى تغيير سياسته اضطراراً ، لأن الحروب الداخلية التى انتشرت فى إيطاليا والخلاف القائم بينه وبين فرانسوا الأول لم يمكناه من مواصلة سياسة خلفه فى طرابلس.

وانتشر اسم خير الدين باربروسا بين الممالك الأوربية ، وهاجم بأسطوله بجاية سنة ٩٢٠ هـ وأعاد الكرة عليها سنة ٩٢١ هـ ، وأصبح يهدد أسبانيا فى كل ممتلكاتها الإفريقية .

وقد ضاق الحال بالأسبان فى طرابلس ، وأفلست سياسة العنف التى كانوا يستعملونها فى داخل المدينة وخارجها ، ولم يبد من الطرابلسيين أى فتور فى الدفاع عن بلادهم ، فعمد الأسبان إلى محاولة جديدة وهى العفو عن الشيخ عبد الله ابن شرف شيخ المدينة السابق ، فأطلقوا سراحه حوالى سنة ٩٢٧ بعد

أن قضى فى منفاه هو وأسرته نحو عشر سنوات . وحاولوا أن يستغلوا نفوذه فى إخضاع الطرابلسيين ... ويقول الأستاذ البارونى : ورجع على إثر رجوعه خمسمائة عائلة طرابلسية . ولكنه لم يجد فى معاملة الأسبان ما يشجعه على البقاء معهم ، ولم يلبث أن فرّ ، والتحق بالمجاهدين فى تاجورة ا . ه . وقد توقعوا من هروب الشيخ عبد الله أن ينظم صفوف المجاهدين ويذكى روح المقاومة فيهم . وكانوا يحسبون أكبر حساب لهجوم الأسطول التركى ، فصاروا يحسبون أيضاً حساب الشيخ عبد الله والعرب .

وقد حملهم هذا الخوف على إجراء بعض الإصلاحات فى القلاع والحصون وقصر الحكومة والميناء . وكانوا فى حاجة إلى الحجارة فهدموا بيوت بعض المهاجرين واستعملوا حجارتها فى البناء . وكان اهتمامهم بالناحية الجنوبية من السور أكثر لأنهم كانوا يحسبون حساب التل الجنوبى الذى يسمونه الآن الظهرة لأنه مكان مرتفع فإذا وضع عليه مدفع أصبحت المدينة فى خطر .

وكل هذه التحصينات لم تهدّئ من روع الأسبان ، ولم تبعث فى نفوسهم الطمأنينة إلى البقاء فى طرابلس . ولذلك ما كادت منظمة فرسان القديس يوحنا تطلب ضمها إليها حتى أجيبت إلى طلبها .

منظمة فرسان القديس

ابتدأت هذه المنظمة حياتها بالدعوة إلى الخير والتمسك بالدين ، ومدّ يد المساعدة إلى ذوى الحاجة والمعوزين . وقبل الحروب الصليبية كان مقرها القدس . ولما نشبت الحروب الصليبية اتخذت لها مهمة الصليب الأحمر عندنا اليوم ، وظهر تحيزها ضد المسلمين . وما كادت الحرب الصليبية تنتهى حتى طردها صلاح الدين من القدس فلجأت إلى عكا . ثم طردوا منها إلى رودس . وأمكنها أن تقنع ملوك أوربا بحمايتها فكان لها ما أرادت ، وأسست فى رودس حكومة مسيحية تحت حمايتهم . وضمت إليها جزر الدوديكانيز ، وشملها البابا بعطفه لما رآه فيها من التعصب للمسيحية والعمل على إبادة الإسلام والمسلمين ، وقد اتخذت لها

من الدعوة إلى الدين وحب الخير شعاراً ما لبث أن تكشف عن حقيقة هى التعصب على الإسلام والمسلمين ، وإثارة الحرب ، وإراقة الدماء ، وإباحة القتل .

وأول ما بدأوا بعرقلة حركات الأسطول العثمانى ، وسلكوا مسلك القراصنة الجبناء . وفى رمضان سنة ٩٢٨ . دهمهم السلطان سليم بأسطول وجيش عظيمين ، وبعد حصار جزيرة رودس ستة أشهر سقطت فى يد الجيش العثمانى فى السابع من صفر سنة ٩٢٩ هـ . وقد شملهم المسلمون بعفوهم وحفظوا عليهم أرواحهم وأموالهم ، ولم يقابلوا أعمالهم الوحشية بمثلها ، وطلبوا منهم أن يغادروا الجزيرة إلى حيث يشاءون . وفى ١٨ من صفر سنة ٩٢٩ هـ يناير سنة ١٥٢٣ م غادر فرسان القديس جزيرة رودس إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع . . . وقد رأى رئيس المنظمة الأب فيليب أن يطلب إلى شارل الخامس إمبراطور المملكة الرومانية منحه جزيرة مالطة وقوزو لأنهم رأوا أنهما أليق مكان لغزو البلاد الإسلامية الذى يتعطشون له دائماً . وهنا سنحت الفرصة لشارل للتخلص من طرابلس التى طالما تحين لها الفرص ، فقبل طلب الفرسان على شرط أن يقوموا بالدفاع عن مدينة طرابلس . . . ومن هنا ابتدأت قصة فرسان القديس فى طرابلس .

أدرك فرسان القديس أنهم إذا قبلوا هذا الشرط فسيتعرضون لحرب طويلة من الطرابلسيين ، وهجوم شديد من الترك سيكون مصيرهم فيه مصير هجوم رودس . ولم يجدوا بداً من القبول ، فقبلوا على كره ، وعلى علم بما ينتظرهم من العاقبة السيئة إرضاء للإمبراطور شارل .

ويقول الأستاذ البارونى : « ووافق مجلس منظمة الفرسان على الوثيقة القيصرية فى (٢٥ من يوليه سنة ١٥٣٥ م [1] وجاء وفد منهم إلى طرابلس ليتسلم المدينة من واليها « فرديناند ألركون » [2]

---

(١) يوافق ٢٤ من المحرم ٩٤٢ هـ .

(٢) يقول الأستاذ العسلى فى ترجمته كتاب « ليبيا » وفى سنة ١٥٣٠ م تنازل عنها كارلو الخامس ملك أسبانيا إلى فرسان سان جوفانى وأضيفت إلى مالطة . وفى هذا الوقت أعيد بناء السراى وزيد فى حجمه ، وأصلحت أسوار المدينة ، ووسائل الدفاع عن الميناء التى كانت دائماً هدفاً لمناوشات العرب والأتراك .

وإلى هنا انتهى حكم الأسبان فى طرابلس ، بعد أن دام عشرين سنة لم يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ، وقاسى فيها الطرابلسيون شر ما يقاسيه محكوم من حاكم . وذهب الأسبان إلى غير رجعة ، ولم يتركوا فى طرابلس ما يشرف إنساناً أو يمت إلى الخير بصلة ، ولولا ما شغل به الأسبان من أحداث فى أوربا لما أبقوا فى طرابلس مسلماً .

فرسان القديس فى طرابلس

تسلم فرسان القديس طرابلس فى المحرم سنة ٩٤٢ « يولية سنة ١٥٣٥ »[1] وعينوا عليها والياً هو القسيس «جسبارى دى سنقوسا» وهو أول وال من هذه المنظمة على طرابلس . وكانت مهمة الدفاع عن طرابلس مهمة شاقة ؛ لأن الفرسان يواجهون عدة أعداء فى طرابلس : كراهة العرب فى الداخل ، والعرب المحاربين فى الخارج ، والأسطول التركى فى البحر ، ولم يكن لديهم من المال ما يكفى لما تتطلبه مهمتهم لإصلاح ما تركه الأسبان من الخراب فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وأبدى الفرسان بعض النشاط فاستولوا على زنزور ، والمنصورية (صياد) ولماية والحشان والزاوية ، وصبراتة ، وكانوا يجبون أموالها ويفرضون عليها المغارم ، ويأخذون رهائنها خوف الانتقاض عليهم . وقد اضطر أهل الجهة الغربية للخضوع لأنهم فى طريق الجيوش التونسية التى كانت تأتى لنصرة فرسان القديس على طريق البر . بخلاف الجهة الشرقية فقد احتفظت بنفسها بواسطة مشايخها . وقد وجد منها مراد أغا معاونة فعالة فى محاربة فرسان القديس وبعث أمير تونس إلى والى طرابلس يطلب منه صداقة منظمة القديس يوحنا وعقد معاهدة صداقة ودفاع معها ، فرد عليه بأنه سيستشير حكومته ، ويرجوه ألا يرسل معونة إلى العرب بتاجورة حتى تتم المعاهدة بين مؤسسة القديس وبينه .

وبلغت أخبار هذه المعاهدة خير الدين بربروسا فجهز أسطولاً ونزل على

---

(١) انظر ما نقلناه عن ترجمة الأستاذ العسلى هامش ص ٢٨٣ .

تاچورة واحتلها سنة ٩٣٧ هـ وطرد منهـــا أنصار الحسن أمير تونس ومؤيديه ، وأبقى فى تاچورة أحد قواده ، واسمه خير الدين كرمان ، وأبقى معه بعض القطع الحربية وجنوداً وأسلحة) ،وكانت ميناء تاچورة غير صالحة لرسو السفن فأسرع كرمان لإعداد حوض فيها لسفنه ، وبنى برجاً ليدافع به عن السفن الراسية فى هذا الميناء .

وأعلن خير الدين كرمان الحرب على الفرسان فى البر والبحر، واستولى على على سفينتين للفرسان بكل ما فيهما وضعف نفوذهم خارج السور ، وامتنع سكان زنزور وغيرهم من دفع الضرائب وتخلصوا من حكم الفرسان .

وقد كان لغزو الترك تونس أثر سيئ على أميرها مما حمله على الالتجاء إلى فرسان القديس ومعاونتهم على الترك ، وعقد معاهدة دفاعية ضد الترك . وسنرى كيف أنه ساق جيشاً على طرابلس بطريق البر مساعدة لفرسان القديس .

وسمع الحسن أمير تونس بأعمال خير الدين فى تاچورة . فجهز جيشاً فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩٣٨ هـ يناير سنة ١٥٣٢ م لمحاصرة تاچورة وقاده بنفسه .وقد تأكد الحسن من مساعدة فرسان القديس بالمدافع والعتاد الحربى بناء على وعدهم إياه بهذه المساعدة .

وزحف الحسن على طرابلس وحاصر جيش خير الدين فى زواغة وتاجورة وعند البرج القائم على الميناء ، وبعث إلى والى طرابلس يطلب منه وفاء الوعد بالنجدة ، فلم يف بوعده . وجاءت نجدة إلى خير الدين كرمان من برباروسا ، وبلغ عدد أسطوله فى تاچورة ١٥ قطعة كبيرة . واستطاع كرمان أن يدافع عن تاجورة .

وجاء خير الدين بارباروسا فى حملة كبيرة نجدة لتاچورة ، ونزل على صفاقس أولا واحتلها فى شوال سنة ٩٤٠ هـ (أبريل سنة ١٥٣٤) . وعلم الحسن بهذه النجدة ، فرحل عن تاجورة . وذهب لملاقاة خير الدين فى صفاقس ، وانكسرت حملة الحسن وخاب فأله . وخاف الفرسان من تقدم كرمان إلى طرابلس فالتجأوا إلى إصلاح الحصون والقلاع ، وأعوزهم المال فأرهقوا الناس بالضرائب

وفى سنة ٩٤٠ هـ . و ١٥٣٤ م . دعى بارباروسا إلى الآستانة ، وأسندت إليه قيادة الأسطول العثمانى كله ، فازداد خوف الفرسان . وخرج بارباروسا بأسطوله على سواحل إيطاليا ، واحتل تونس . وعين حسن أغا على قسم من الأسطول وأرسله إلى طرابلس .

ورجع كرمان إلى تاجورة — وكان قد ذهب إلى صفاقس — ومعه كتاب من بارباروسا يأمرهم فيه بمساعدته والالتفاف حوله ، فانضمت إليه القبائل الطرابلسية ودفعت إليه خراج أراضيها وضرائب أشجارها وحيواناتها ، وضرائب تجارتها . وحاصر طرابلس ، وضيق على أهلها حتى أصبحوا لا يقدرون على فتح الأبواب . وانتشرت قوات خير الدين حول طرابلس . وبنى قلعة على بعد ميل من سور المدينة إلى الجنوب وكانت تعرف بقلعة القائد ، وكانت بالظهرة ، ونصب عليها المدافع ، وكانت قنابلها تصل قريباً من الأسوار ، وتضايق الفرسان من هذه القلعة أشد المضايقة .

وتهيأ كرمان لاحتلال طرابلس ، وكان ذا عزم وقوة إرادة ، وحشد جنده ورجاله ، وانضم إليه المتطوعون من لماية وزنزور ، وتقدم الجيش نحو أسوار المدينة ومعه حملة السلالم ، ونشبت الحرب ، واختلطت أصوات التكبير والتهليل بأصوات البنادق والمدافع ونصبت السلالم على الأسوار ، وحمى وطيس الحرب . وضاقت الدنيا فى وجوه الفرسان وظنوا ألا مناص من الأسر أو القتل ، وكادوا يرفعون الأعلام البيضاء علامة الاستسلام . وفى آخر لحظة واتاهم النصر بسبب انتشار خبر وفاة خير الدين بين الجنود فأخذوا يتسللون تاركين مواقع الدفاع ليتحصنوا بقلعة الظهرة ، وكسب الفرسان المعركة .

وجاء المدد إلى فرسان القديس من مالطة . وأمكنهم ، من طريق التحايل وبث الفتنة بين سكان المنشية ، أن يستميلوا بعضاً منهم ، وانضموا إلى صفوفهم . ويقول الأستاذ البارونى : « فجاءوا أفواجاً ، وملأوا الميادين ليحاربوا إخوانهم » . وبلغ خبر انضمام هؤلاء النفر للفرسان إلى خير الدين كرمان فاستعد للقائهم . . . وتقدم جيش الفرسان نحو قلعة القائد بالظهرة . ورابط جيش خير الدين

فى قبيلة أبى دبوس. ولم يحاول كرمان أن يتعرض لزحف الفرسان وخلى بينهم وبين القلعة . واشتد الحصار على القلعة ، وأيس المحاصرون من إغاثة خير الدين ، فاستماتوا فى القتال ، وأبو الاستسلام فنسفت القلعة بمن فيها ، وذهبت أجسامهم فى الفضاء تذروها الرياح . ورحمة الله ورضوانه على من أدى للوطن واجبه . . .
ولم يبق أمام الفرسان إلا خير الدين الذى يعسكر فى قبيلة أبى دبوس التى تبعد عن المدينة بخمسة أميال ، فانتقل من مكانه إلى تاجورة . وتقدم الفرسان إلى هذه القبيلة فنهبوها ، وأسروا من فيها ، وأضرموا فيها النار . وإلى هنا انقطعت أخبار خير الدين كرمان . ويقال إنه قتل فى هذه المعارك . وهيأت الظروف إلى دور آخر هو استيلاء الترك على طرابلس ، وطرد حكومة القسس منها إلى غير رجعة ، وكان ما سنقصه .

الترك فى طرابلس

بعد أن اختفى خير الدين كرمان من تاجورة ولم يسمع له ذكر بقى العرب وفرسان القديس وجهاً لوجه. ولم تكن لدى العرب قوة تكافئ قوة الفرسان، وأصبح من المستحيل التفاهم لاستحكام العداوة بين الفريقين ، فلهذا اضطر العرب فى تاجورة أن يستعينوا بدولة تنقذهم من هذا الموقف الحرج . ولم تكن إذ ذاك دولة مسلمة يمكن الالتجاء إليها إلا دولة بنى عثمان ، فقد ظهرت فى رودس والجزائر ، وتونس ، والبحر الأبيض ، وكان خير الدين كرمان تولى أمورهم فى تاجورة حوالى ١٦ سنة ، وفوق كل هذا فهى دولة إسلامية تعمل لرفعة شأن الإسلام وحماية المسلمين ، لهذا كله لم يفكروا فى الاحتماء بغيرها ، وأرسلوا وفداً منهم إلى الآستانة سنة ٩٢٦ ليعرض الأمر على السلطان سليم ، ويطلب منه إنقاذهم من فرسان القديس . وقابل السلطان سليم الوفد واستجاب إلى طلبه . . .
وهنا يروى ابن غلبون فى تاريخه أنه أرسل معهم مراد أغا أحد خصيان القصر فى نفر قليل من العساكر . . .

ويؤكد الأستاذ البارونى أن مراد أغا « انضم إلى بارباروسا سنة ١٥٣٨م[1] ، وكان يثق فيه ويعتمد عليه ، وهوالذى أرسله إلى تاجورة ليستأنف ما بدأه خير الدين كرمان ويترأس الغزو على طرابلس وأمده بالسفن والرجال والعتاد الحربى »

والأستاذ البارونى يريد أن يشكك فى إرسال الوفد إلى الآستانة ، ولكنه يقر وجود مراد أغا فى تاچورة ، فى زمن متأخر عن الزمن الذى ذكر فى المنهل العذب بنحو عشرين سنة لم يأت فيها ذكر لمراد أغا ،وينسب وجوده فى تاجورة إلى أسباب غير التى ذكرها بن غلبون وتابعه فيها أحمد بك النائب .

وقد يكون ما اشتهر به ابن غلبون والنائب من عدم التحرى فى الرّواية ومناقشة غير المقبول منها — يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ البارونى . يضاف إلى هذا وجود الأسطول العثمانى فى البحر الأبيض ، ووجود القواد العثمانيين وحروبهم فى الشمال الإفريقى ، وفى تاچورة . وهذا ما يجعل النجدة قريبة توفر على الطرابلسيين مشقة الذهاب إلى الآستانة . . .

ومراد أغا ولد فى راقوسا من البلاد الإيطالية ، وأسره القراصنة وباعوه فى سوق النخاسة ، وآل أمره إلى قصر السلطان سليم وأجريت له عملية الخصى ، لأن القصور الملكية إذ ذاك لا يباشر فيها خدمة النساء إلا الخصيان .

وقام مراد أغا فى بادئ الأمر بمناوشات يقصد منها عدم تمكين فرسان القديس من الحشد والتجمع .

وكان لدى الفرسان رهائن من سكان الجهة الغربية فهربوا ، فبعثوا فى إثرهم رسلا ، فقبض عليهم أهل لماية وباعوهم لمراد أغا ، فاستاء الفرسان لذلك، وأرادوا الانتقام من أهل هذه الجهات فجهزوا أسطولا من ثمان قطع بحرية وشحنوه بخيرة المقاتلة عندهم ، وأرسلوا جيشاً بريًّا وأخذ طريقه إلى لماية على الساحل ،وغادر الجيشان طرابلس فى جمادى الأولى سنة ٩٥٢ هـ . يولية سنة ١٥٤٥م

---

(١) يوافق سنة ٩٤٥ هـ . وفى المنهل العذب أن مراد أغا جاء إلى طرابلس سنة ٩٢٦ والفرق شاسع بين التاريخين .

وترأس على الجيش البرى أحد أعيان سوق الجمعة وكان متحالفاً مع الفرسان. وسار الجيشان فى جنح الظلام ، ونزل جيش الأسطول إلى البر قبالة لماية وقبيل الفجر وصل الجيش البرى . . . وقد شعر سكان لماية بهذا العدو الزاحف ، فانتبهوا مذعورين وفروا إلى الجنوب حيث البادية والأرض متسعة وزحف الجيش على لماية فأسروا فيها نحو أربعمائة وغنموا كل ما فيها ونسم على رجال الجيش ، وحمل الأسرى إلى مدينة طرابلس مكبلين فى الأغلال . . . ورجع أهل لماية إلى بلادهم فوجدوها خاوية خالية ، وقد نهبت جميع أرزاقهم ووجدوا من جثث القتلى كثيراً وكثيراً .

وفى سنة ٩٥٣ هـ . — سنة ١٥٤٦ م . كان الأب جوان والياً على طرابلس ، فاقترح على منظمة الفرسان أن تنقل مركزها إلى طرابلس نظراً لضيق مجال مالطة ، واتساع هذا المجال فى طرابلس . ولكنه لم يجد موافقة على هذا الرأى ، ويعللون عدم الموافقة عليه بأن الطرابلسيين ما زالوا مصممين على الدفاع ولن تلين قناتهم مهما طال الزمن ، وأيضاً فإن الأسطول التركى الذى ملأ البحر الأبيض ، والسياسة التركية التى امتدت إلى شواطئ إفريقية ، وهى تتحفز للوثوب على طرابلس ، كل هذا حمل المعارضين على التمسك برأيهم .

طورغود [1]

توفى خير الدين بارباروسا ليلة ٥ من جمادى الأولى سنة ٩٥٣ هـ — ٤ يولية سنة١٥٤٦م . وهو أميرال الأسطول التركى العظيم ... وكان ذكر طورغود مقروناً دائماً بذكر انتصارات الأسطول التركى فى البحر الأبيض مما جعله فى مقدمة القواد البحريين الأتراك .

ولطورغود تاريخ حافل بجلائل الأعمال ، والمغامرات البحرية العظيمة .

(١) أصله من بلاد الأناضول ، والتحق من صغره بخدمة الأسطول العسكرية مع خير الدين باشا . واشتهر فى قيادته حتى نال الرياسة العليا ، وله غزوات كثيرة فى البحر المتوسط . واستشهد فى معارك مالطة سنة ٩٧٣ .

وكان جريئاً مقداماً لا يهاب الموت ، ولا يخاف العدو . وكان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة تحمّل فى إرضائها كثيراً من المخاطر والأهوال ، ورفعته أعماله إلى ذروة المجد من غير أن يستند إلى أحد . وكان موفقاً فى العمل للانتقام من المسيحية وإنقاذ المسلمين من شرورها . وبدأ طورغود أعماله فى الشمال الإفريقى ، فطرد الأسبان من سوسة ، والمنستير ، وصفاقس . وفى سنة ٩٥٧ .ه و ١٥٥٠م. احتل المهدية . ووجدت أوربا نفسها أمام هذا الأسد البحرى يهددها بالاستيلاء عليها فتجمعت ضده ، وأرادت أن تغالبه فغلبها وتولاه الله بنصره فانتصر .

وفى أثناء ما كان طورغود يقوم بعملياته الحربية فى شمالى افريقية كان مراد أغا فى طرابلس فى شبه انتظار لنجدة الأسطول التركى. وقد فقد مراد أغا بموت برباروسا صديقاً. ومعيناً وتوقفت الإمدادات التى كانت تأتيه أيام خير الدين برباروسا . وفى سنة ٩٥٦هـ و١٥٤٩م جاء مراد أغا لزيارة عبدالقادر بن شوشانة فى المنشية ، فسمع به الفرسان فهاجموه للقبض عليه ، ولكن ابن شوشانة دافع دونه هو ورجاله حتى نجا وأسر ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة. وأطلق الفرسان ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة على أمل أن يستعينوا بنفوذهما على إخضاع القبائل ، ولكن ابن شوشانة تعاقد مع مراد سرًّا على قتال الفرسان وتطهير البلاد منهم . وبلغ الخبر والى طرابلس فقبض على ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهرة ومعهما نحو تسعة آخرين وأرسلهم إلى مالطة لمحاكمتهم . وحيث لم تثبت إدانتهم أطلقوا ورجعوا إلى طرابلس .

حشد الأسطول التركى

كان فرسان القديس يحسبون ألف حساب لهجوم الأسطول التركى على طرابلس . وقد أقض هذا الخوف مضاجعهم واستولى على نفوسهم حتى أصبحوا يتوقعون زوال ملكهم من طرابلس على يديه .

وكانت هذه المنظمة منذ أن وطئت أقدامها طرابلس تشعر بضعف فى المقاومة ، وبعجز عن الحصول على مستلزمات الدفاع : من كثرة الجند ، وتوفير المال لإصلاح القلاع والأسوار . . . وكان وجودها فى طرابلس يرتكز على وعود ملوك أوربا بمدها بما يلزم للمحافظة على كيانها وتوطيد نفوذها ، ولكن ملوك أوربا لم يكونوا عند ظنها بهم ، ولم يفوا بوعدهم لها كما كانت تنتظر ، فتحرج مركزها ووقعت فى حيص بيص ، وأحاطت بها المخاوف ، وفشلت جميع محاولاتها لتغطية مركزها المزعزع . . . ولو كانت قوة الطرابلسيين متكافئة مع قوة الفرسان أو قريبة منها لما أمكنهم أن يبقوا فى طرابلس نحو عشرين سنة .

وما كاد الفرسان يعلمون بحشد سفن الأسطول التركى فى شرقى البحر الأبيض حتى توجسوا شرًّا ، واشتد خوفهم على مصيرهم ، وشرعوا فى تقوية السور والأبراج ، واستصرخوا ملوك أوربا ، واستجدوا معونتهم جاعلين فى مقدمة ما ينتحلونه من أسباب لاستدرار إحسانهم — دفع ما يتهدد المسيحية من خطر . . ولكن أوربا لم تكن مستعدة لسماع هذه الصيحات بالقدر الذى يطلبه الفرسان لتقوية مركزهم فى طرابلس ، ولإقناع المسيحية بنجاحهم فى مهمة الدفاع عنها ، فباءت جهودهم بالفشل . وكان عزم الترك على تخليص إفريقية من قراصنة المسيحية ، وقوة أسطولهم الذى لم يعد له مثيل فى البحر الأبيض — لا تؤثر عليهما صيحات اليأس وحركات المذبوح .

تجمع الأسطول التركى فى شرقى البحر الأبيض . وكان مجموع سفنه مائة وخمسين سفينة ، وركب فيها ١٧ ألف جندى ، وستمائة فارس . وكان

سنان باشا القائد الأعلى لهذا الأسطول . وظهر هذا الأسطول الضخم أمام مالطة يوم ١٤ رجب سنة ٩٥٨ هـ . ١٨ يوليه سنة ١٥٥١ م . وكان طورغود فى هذه الحملة . وخوفاً من أن يقتضى احتلال مالطة كلها زمناً طويلا نظراً لمناعتها الطبيعية قد تفوت معه الفائدة من التعجيل باحتلال الشمال الإفريقى فقد اكتفى سنان باشا باحتلال قوزو إحدى جزر مالطة فى ٢٦ من رجب المذكور ، وأسر منها نحو سبعة آلاف ، وأقلع عنها الأسطول قاصداً إلى طرابلس .

ورسا الأسطول أمام طرابلس ، ونزل سنان باشا على تاجورة حيث يقيم مراد أغا . وأرسل سنان باشا رسولا عربيًّا يحمل علماً أبيض ومعه رسالة إلى الفرسان يطلب منهم أن يسلموا المدينة ، ويعدهم بأن يبقى على حياتهم وأموالهم .

وأخذ سنان باشا فى إنزال الجيوش والمدافع إلى البر و رتب الجيش فى مضاربه ، وأحاط بالمدينة من كل ناحية ، وحفرت الخنادق . ونصبت المدافع البرية قرب سيدى الشعاب . واتخذ الأسطول مواضعه من البحر ، وتمت جميع الاستعدادات . ولم يصدر الأمر بالهجوم انتظاراً لرد الفرسان .

وفى أثناء ما كان سنان يقوم بترتيب الجيش جاء السفير الفرنساوى دارمون ، ورست سفينته على ساحل تاجورة وطلب مقابلة سنان . فأجيب لذلك. وفى أثناء محادثته رجاه أن يعدل عن احتلال طرابلس وأن يتركها للفرسان ، وتوسل لديه فى قضاء مهمته بما بين فرنسا والسلطان سليمان من صداقة ، و بما يتمتع به الفرسان من رعاية دول أوربا لهم .

ولم يجد سنان باشا فى هذه الوساطة ما يبررها ، واعتذر للسفير بأنه مأمور من قبل السلطان باحتلال طرابلس وطرد الفرسان منها . وهذا التصريح من سنان بأنه مأمور من السلطان بأخذ طرابلس من فرسان القديس يرد ما جاء فى تاريخ ابن غلبون ، وتاريخ النائب من أن مراد أغا طلب من سنان مساعدته بالأسطول على فك المدينة ، فاعتذر سنان بعدم الإذن له فى ذلك ، وبعد توسلات مراد أغا وتحمله كل مسئولية تنتج عن ذلك أجاب سنان باشا طلبه .

وصدرت أوامر سنان بعدم مغادرة سفير فرنسا تاجورة خوفاً من اتصاله بالآستانة ، أو بفرسان القديس فى طرابلس لعرقلة أعماله . ورد الفرسان على الباشا بعدم التسليم ، وبالإصرار على المقاومة إلى النهاية .

الهجوم على مدينة طرابلس

وفى يوم ٦ من شعبان سنة ٩٥٨ هـ ٩ من شهر أغسطس سنة ١٥٥١م . صدرت الأوامر إلى الجيش التركى بالهجوم ، وأطلقت المدافع على الأبراج والأسوار ، وعلى قصر الحكومة ، وأحرزت المدفعية نجاحاً فتقدمت ، ونصبت على مسافة ١٥٠ متراً من قصر الحكومة . . . وكان ضرب المدافع قويًّا ومحكماً وكان الجنود يصوّبون بنادقهم إلى المرابطين فى رؤوس الأسوار وغيرهم .

وعمت الفوضى جنود الفرسان ، وألحوا على ضباطهم فى طلب الصلح ، وطلب بعضهم السفر إلى مالطة . واعتقد حاكم المدينة فاليرا أن سقوط المدينة فى يد الأتراك أمر لا مفر منه ، فأرسل إلى سنان باشا يطلب منه المفاوضة فى الصلح على شرط أن يترك الفرسان يخرجون إلى مالطة بسلاحهم وأمتعتهم ، ورفض سنان باشا هذا الشرط إلا إذا دفعوا ثمن كل ما أنفقه على هذه الحملة غرامة حربية ، فرفضوا شرطه لأنه لا يوجد عندهم شىء من المال . . . وتجددت الحرب ، وتجددت معها ثورة الجنود فى داخل المدينة ، وسخطهم على الوالى ومطالبتهم بتسليم المدينة . . . وطلب سنان باشا فاليرا حاكم المدينة للتحدث إليه مشافهة فى شأن الصلح ، فخرج إلى الباشا ومعه أحد مساعديه . وعرض عليه سنان : إما أن يدفع الخسارة الحربية ، أو يأسر جميع الفرسان ، ويبيعهم فى الأسواق لرد نفقات الحرب . واستاء فاليرا من قوله يبيعهم فى الأسواق ، فخرج عن صوابه وأغلظ فى القول . فأمر سنان باشا بحجزه ، وأرجع مساعده إلى المدينة لينذر من فيها بالفناء إذا ما توانوا فى فتح الأبواب وتسليم المدينة . وانقض هذا الخبر على رؤوس المحاربين كالصاعقة ، وأخذ الخوف من نفوسهم كل مأخذ . وكانت المدافع ترمى حممها على القلاع والأسوار فى عنف لا هوادة معه حتى تهدم أكثرها . وأرسل سنان منادياً ينادى حول الأسوار بالأمان لكل من ألقى سلاحه واستسلم . واغتنم جنود الفرسان المذعورون هذه الفرصة ، فألقوا بسلاحهم ، وهرعوا إلى

الأبواب ففتحوها بدون أن ينتظروا أمراً أو يستشيروا أحداً . ودخلها سنان الفاتح وجيشه المظفر ، وفى المقدمة مراد أغا ، وطورغود بك .

ووفى لهم سنان بما وعد، ورفع عنهم القتل، ووهب لهم أرواحهم وأموالهم .

الاحتفال بفتح طرابلس

وفى يوم ١٣ من شهر شعبان سنة ٩٥٨ هـ و ١٦ من أغسطس سنة ١٥٥١م احتفل بفتح طرابلس إحتفالا رائعاً حضره المسيو دراموند سفير فرنسا الذى حجزه الباشا فى تاجورة . ورئيس الفرسان فاليبرا الذى كان حاكماً على طرابلس . . . وكان يوم ٦ ، ٧ ، ٨ من شعبان و ٩ ، ١٠ ، ١١ من أغسطس أشد أيام الحرب . . . وتكرم سنان باشا على الفرسان فأذن لهم فى السفر إلى مالطة فسافروا يوم ١٥ من شعبان سنة ٩٥٨ هـ ١٨ من أغسطس سنة ١٥٥١ على سفن تحمل الراية الفرنسية . . . ولم تستغرق العمليات الحربية — منذ أن شرع فى الهجوم إلى أن سافر الفرسان إلى مالطة — أكثر من عشرة أيام [(١)] . .

ولم يترك الفرسان فى طرابلس ما يذكرون به سوى الخراب ، وأخبار تلك الفظائع والمجازر . وسافروا من البلاد مشيعين باللعنات بعد أن قضوا فيها ١٨ سنة .

وما كان الفرسان يستحقون هذا العطف من سنان لو كانت المعاملة بالمثل فقد كانوا فى معاملتهم للطرابلسيين قساة القلوب ، متحجرى العواطف ، حملهم التعصب للمسيحية على ارتكاب كل نقيصة مع العرب والمسلمين ، وكان وجودهم فى طرابلس حلقة من سلسلة فظائع الأسبان فى الأندلس . ولكن بشاشة الإسلام ملأت قلب سنان باشا رحمة وإنسانية ، فعفا بعد قدرة ، وسامح بعد استحقاق العقوبة ، وهكذا نحن المسلمين دائماً ، ولن نعدل عن هذه الفضيلة الإنسانية .

---

(١) ويرمز لتاريخ هذا الاحتلال بكلمة « جاء الترك بس » على طريقة أبجدية المغاربة .

ولاية مراد أغا

عين سنان باشا مراد أغا والياً على طرابلس مدى الحياة . وبعد أن استقر لأمن فى البلاد سافر سنان باشا بأسطوله إلى الغرب ، وأبقى مع مراد أغا حامية صغيرة من الجند .

وكانت طرابلس قد عمها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان لشأنها ، فشغل بتعميرها ، وجلب لها كثيراً من السكان من تاجورة ومن المهاجرين الذين هاجروا أيام الأسبان لأن الحروب أتت على كثير من سكانها ، وشجع الناس على الزراعة والصناعة ، وإنشاء البساتين واستثمار الأرض . وقد استردت البلاد فى أيامه كثيراً مما فقدته أيام الأسبان وفرسان القديس ، وأخذت الحياة تدب فى جميع مرافقها .

وقد أمكنه أن يخضع البلاد للنفوذ التركى . وبقيت زوارة تحاول التخلص من نفوذه ، فلم يتركها تسترسل فى ذلك . واضطرته ظروف عنادهم إلى أن يغزوهم بجيش فيه نحو ٣٦٠٠ جندى . وكان هذا الجيش يحاصر زوارة فى شعبان سنة ٩٥٩ هـ . وأغسطس سنة ١٥٥٢ م .

وقد اتفق أن فرسان القديس جهزوا أسطولا فيه ست عشرة سفينة عليها ألفا جندى لغزو زوارة لأنها بعيدة عن المدينة ، وظنوا أن نفوذ مراد أغا لم يصلها وذهب هذا الجيش إلى زوارة ، ووصلها يوم ٥ من شعبان من السنة المذكورة.

وكان جيش مراد أغا موجوداً فى زوارة يحاصرها . وزحف جيش الفرسان إلى زوارة ، وعاث فيها قتلا وسبياً ، ولم يكن يشعر بوجود جيش مراد أغا . وأخذ جيش الفرسان فى الرجوع إلى الأسطول ، فلم يشعر إلا وانقض عليه جيش مراد أغا ، وانقض عليه من كل صوب . وضاق على جيش الفرسان الفرار فتشتتوا وتركوا كل ما غنموه من أموال ، وما استولوا عليه من أسرى . واضطر الفرسان إلى أن يلقوا بأنفسهم فى البحر ومات كثير منهم غرقاً

قبل وصولهم إلى السفن ، وأقلع الأسطول يجر أذيال الخيبة ، وكانت هزيمة منكرة له وللجيش [١] .

ولم يحدث فى أيام مراد أغا غير هذا الحادث الذى اعتبره الفرسان أقسى عليهم من حادث جزيرة رودس .

ولاية طورغود باشا

بعد احتلال طرابلس قويت شوكة الأسطول التركى فى البحر الأبيض بقيادة طورغود بك . ومن حسن الحظ الذى صادف الفرسان أن نجا أسطولهم الذى غزا زوارة من الوقوع فى أسر أسطول طورغود .

وكان طورغود يتمنى لو أسندت إليه ولاية طرابلس بعد احتلالها بدلا من مراد أغا . ولكن سنان باشا عدل عنه إلى مراد فيبقيت أمنية فى نفسه تتوق إلى الفوز بها . . . وفى شعبان سنة ٩٥٩ هـ — وأغسطس سنة ١٥٥٢ م [٢] سافر إلى الآستانة ليقدم للجهات المختصة تقريراً سنويًّا عن أعماله البحرية . واغتنم طورغود وجوده فى الآستانة ليسعى للحصول على ولاية طرابلس ، فسعى لدى السلطان سليمان ، وذكر له من شيخوخة مراد وضعفه عن الإدارة وعجزه عن الاحتفاظ بالسلطة التركية فى طرابلس ما رآه مبرراً لاختياره لهذا المنصب بدلا عن مراد .

ونظراً لمكانة طورغود ، ولما امتاز بهمن جلائل الأعمال ، ونظراً كذلك لموقع طرابلس وأهميتها للمحافظة على سواحل إفريقية اقتنع السلطان بوجهة نظر طورغود وأصدر أمره بتعيينه والياً على طرابلس .

وقدم طورغود إلى طرابلس فى ربيع الآخر سنة ٩٦٠ هـ — ومارس سنة ١٥٥٣ م [٢] ، وبيده أمر تعيينه والياً على طرابلس . وقابله مراد فيمن قابله . وفرح الجيش والعرب بمقدمه وتعيينه والياً لما يعلمونه عنه من المقدرة والكفاية . وبلغ مراد أغا أمر تعيينه فامتثل الأمر وسلمه مهام الحكم وشئون البلاد .

---

(١) ملخص من رسالة الأستاذ الباروفى .

(٢) هذه التواريخ تخالف ما ذكره النائب .

انتقل مراد أغا إلى تاجورة بعد أن سلم أمور طرابلس إلى طورغود ليريح نفسه فيما بقي له من أيام حياته . وقد تولى طرابلس سنة واحدة ، وسبعة أشهر ونصفاً[١] ونقل معه إلى تاجورة أمواله الكثيرة ، وبعض المسيحيين الذين كان أسرهم وملكهم ملك الرقيق . وبنى جامعه الكبير فى تاجورة بواسطة هؤلاء الأسرى ، ووعدهم بإطلاق سراحهم إذا أتموه على أكمل وجه . وقد أقامه على ٤٨ عموداً وأقام عليها أقواساً بديعة الصنع على شكل نعال الفرس ، وأقام على هذه الأقواس قباباً كثيرة . . . وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالى ٤٢,٦٠ متراً وعرضه ٣٥,٢٠ متراً . وإلى جانب المسجد قبر مراد أغا فى مبنى صغير ، وعليه قبة واحدة ، وقد بذل مراد أغا فى تعمير طرابلس وإصلاحها جهداً مشكوراً عليه رحمة الله . .

وتسلم طورغود مهام الحكم فى طرابلس وما زالت فى حاجة إلى إصلاح ما أفسده الأسبانيون وفرسان القديس من أسوارها وأبراجها ، وما زالت كذلك فى حاجة إلى تشجيع الزراعة ، وإحياء الصناعة ، وإنعاش التجارة وإيجاد الأيدى العاملة التى قلت بسبب الحروب الطويلة ، وإسعاف السكان بما ينعش حياتهم ويرفه عنهم شظف العيش . . . وقد تناول طورغود كل هذا بما عرف من عزمه وقوة إرادته . وكان يعتمد فى جل نفقاته على الغنائم التى يأتى بها الأسطول فى غزواته على البلاد الأوربية . وكان يتحصل على مقدار كبير منها . . وقد استنجد به أهل القيروان من ظلم حاكمهم محمد بن أبى الطيب الشابى[٢] ، فذهب إلى القيروان وقتل محمد بن الطيب وشرد قومه ، واستخلف على القيروان حيدر باشا ورجع إلى طرابلس . . وفى هذه المدة كان المكنى حاكماً على صفاقس ، فانضم إلى طورغود ودخل تحت نفوذه ، وأصبحت صفاقس تابعة لطرابلس .

---

(١) هذه المدة غير التى قضاها فى تاجورة قبل فتح طرابلس وتوليه عليها من قبل سنان باشا .

(٢) الشابى نسبة إلى الشابة ، وهى قرية قرب القيروان قبالة المهدية « مؤنس » .

الصفاقسيون فى طرابلس

اشتهر الصفاقسيون بالنشاط فى العمل ، والدراية بالصناعات إذ ذاك . وقد كانت طرابلس فى حاجة إلى الأيدى العاملة للنهوض بها من كبوتها التى أوقعها فيها الأسبان وفرسان القديس . . . وبعد أن انضمت صفاقس إلى طرابلس أشار المكنى على طورغود بنقل بعض الأسر الصفاقسية إلى طرابلس لتستفيد البلاد من نشاطهم التجارى والصناعى ، فاستصوب طورغود هذا الرأى ووكل إليه الأمر فى اختيار من يراه . . وما كان رأى المكنى خالصاً لوجه الله : ولكن كانت بينه وبين بعض الأسر الصفاقسية ضغائن ، فاقترح على طورغود هذا الرأى حتى إذا ماوافقه اختارهم ليجليهم عن بلادهم تنكيلا بهم ، وعمد المكنى إلى اختيار نحو أربعين أسرة للانتقال إلى طرابلس وكتب أسماءها فى قائمة ، فوافق عليها طورغود ، وكلفه أن يكون رئيساً عليهم ، فوقع فيما وقع فيه غيره وأبلغهم الخبر فوافقوا على كره . . . ولما وصلوا إلى طرابلس فرح بهم السكان وأنزلوهم فى محل الكرامة ، وأصبح المكنى من أعضاء مجلس الوالى المقربين لديه[1] .

وسار طورغود باشا فى حكم طرابلس على نظام الدايات الذى كان متبعاً فى الجزائر وتونس . واهتم ببناء السفن حتى أصبحت له قوة بحرية عظيمة كانت تغزو البحر وتأتى بالغنائم مما تستولى عليه من سفن الأوربيين . واهتم بتوسيع حدود طرابلس حتى شمل حكمه صفاقس وامتد نفوذه على الساحل إلى مسافة أكثر من ٧٥٠٠ ميل ، وشمل برقة إلى الحدود المصرية .

وكان للسفن الطرابلسية المقام الأول فى البحر الأبيض ، وفى غزو مالطة حينما أعلنت عليها الدولة العثمانية الحرب سنة ٩٧٢ .

---

(١) قال صاحب نزهة الأنظار : كنت فى ساحل طرابلس سنة ١١٧٤ فرأيت داراً عظيمة وحولها أطفال عليهم آثار النعمة ، فسألت عن الدار فقيل لى هذه دار المكنى . ويقال إن المكنى هذا هو الذى بنى قصر الجفارة القديم .

وقد تمتعت طرابلس بالأمن فى أيام طورغود وانتعشت فيها الصناعات ، وبذل طورغود فى تعميرها ما أمكنه من جهد ، وفى التقدم بها ما وسعته قدرته .

ولم ينس الأسبان وفرسان القديس ما أصيبوا به من نكبات وهزائم فى طرابلس وغيرها على يد الأتراك والعرب . ولم يفتر فرسان القديس عن تحريض دول أوربا على المسلمين والتنكيل بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . . . فى سنة ٩٧١ اتفقت حكومات أسبانيا ، وجنوة وفرسان القديس فى مالطة على أخذ إفريقية وانتزاع الإسلام منها ، فأرسلت الحكومة العثمانية سنة ٩٧٢ أسطولا كبيراً إلى مالطة وحاصرها حصاراً شديداً ، وطال حصارهم لها . وكان طورغود فى طرابلس فاستنجدوا به فذهب إليهم فى اثنتى عشرة سفينة ، واشترك معهم فى حصار مالطة واشتدت المعارك بين الطرفين ، ولم يمكن التغلب على حصون مالطة ، واستشهد طورغود فى إحدى المعارك سنة ٩٧٣ ، وجىء بجثته إلى طرابلس[1] ودفنت فى تربة خاصة ، وما زال قبره يزار باعتباره أحد الشهداء ومن أكبر المجاهدين .

عليه رحمة الله ورضوانه .

---

(١) ويقال إنه جىء برأسه فقط ، وذلك لأنه أصيب بقنبلة من مدفع يقال إنها فتتت جسمه ولم يبق إلا رأسه .

خاتمة

انتهيت من جمع ما قصدت إليه من تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . وأرجو أن أكون قد هيأت فرصة لكل مواطن يريد البحث عما بقى مجهولا من تاريخ ليبيا . . وأعتقد أن هذا المجهول كثير ، وجد كثير . . . وقد لا يطول جهله — إذا ما تضافرت الجهود على البحث عنه — حتى يبدو للعيان واضحاً جلياً ، وحتى يكون فى متناول كل ليبى أن يعرف ما لليبيا من كمال فيبنى عليه ، أو نقص فيكمله .

والله ولى التوفيق ، ومنه الإعانة على ما يقصد إليه المخلصون من خير .

الطاهر أحمد الزاوى
الطرابلسى

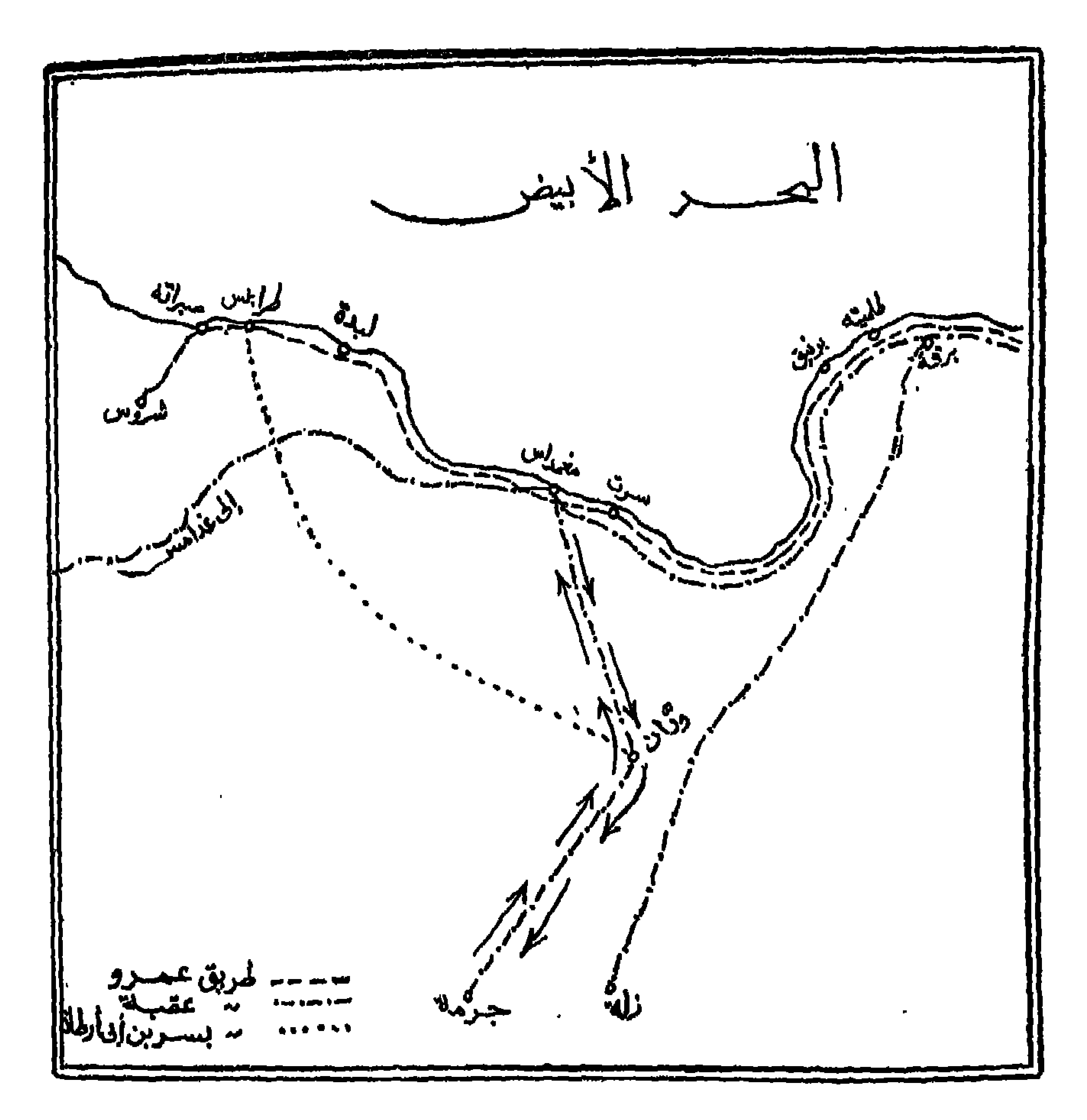
جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣
فـــبراير سنة ١٩٥٤

المؤلف

الطاهر بن أحمد الزاوى . ولد سنة ١٨٩٠ فى الحرشا، إحدى قرى مدينة الزاوية بطرابلس الغرب ، وحفظت القرآن ببلدى الحرشا ، بجامع سيدى على بن عبد الحميد العوسجى ، على أستاذى الفقيه محمد الصالح رحمه الله . وأخذت بعض العلوم فى زاوية الابشات على أساتذتى : الشيخ الطاهر بن الشيخ محمد بن عبد الرزاق البشتى ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتى .

والتحقت بالأزهر الشريف لإتمام دراستى سنة ١٩١٢ . وأخذت العلم عن أساتذتى الشيخ أحمد مصطفى الشريف ، الفقيه المحدث . والشيخ محمود خطاب الصوفى الواعظ . والشيخ الدسوقى العربى ، شيخ المعقول فى عصره . والشيخ على الجهانى المصراتى الطرابلسى ، وغيرهم من أساتذة الأزهر .

ورجعت إلى طرابلس سنة ١٩١٩ . وبقيت مع المجاهدين إلى أواخر سنة ١٩٢٣ . وفى هذه السنة تغلب الطليان على الطرابلسيين ، فهاجرت إلى مصر فى يناير سنة ١٩٢٤ ، والتحقت بالأزهر مرة ثانية فى يونيه سنة ١٩٢٤ ، وأخذت الشهادة العالمية سنة ١٩٣٨ وتجنست بالجنسية المصرية فى إبريل سنة ١٩٤٠ ، ووظفت بوزارة الأوقاف فى منتصف مايو من هذه السنة .



خريطة الفتح العربي في ليبيا

تبين الطرق التي سلكتها الجيوش العربية في ذهابها إلى ليبيا لفتحها . انظر ص ٩٨

المراجع

فتوح مصر والمغرب	للعلامة عبد الرحمن بن عبد الحكم
فتوح البلدان	لأحمد بن يحيي البلاذرى
المسالك والممالك	لأبى عبيد الله البكرى
البيان المُغرب فى أخبار المغرب	لابن عذارى المراكشى
كتاب العبر	لابن خلدون
نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق	للإدريسى (جغرافيا)
رياض النفوس	لأبى بكر محمد بن عبد الله المالكى
رحلة التجانى	لأبى محمد عبد الله التجانى (جغرافيا)
رحلة العياشى	لأبى سالم عبد الله العياشى (جغرافيا)
الخلاصة النقية	للأستاذ محمد الباجى التونسى
صفة المغرب	مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبى
التذكار	لابن غلبون الطرابلسى
الدرر الكامنة	لابن حجر العسقلانى
معجم البلدان	للحموى
كتاب السير	للأستاذ أحمد الشماخى الطرابلسى
الأزهار الرياضية	للشيخ سليمان باشا البارونى
دائرة المعارف الإيطالية	تعريب ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتى
الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس	للأستاذ عمر البارونى الطرابلسى
التبيان فى تخطيط البلدان	لإسماعيل رأفت بك
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك	لأبى عبيد الله البكرى (جغرافيا)
فتح العرب للمغرب	للأستاذ حسين مؤنس

الكتاب	المؤلف
نزهة الأنظار ، فى عجائب التواريخ والأخبار	للأستاذ محمود بن مقديش الصفاقسى
طبقات علماء إفريقية وتونس	لأبى العرب محمد بن أحمد التميمى
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس	لمحمد بن أبى القاسم الرعينى
خلاصة تاريخ تونس	للأستاذ حسن حسنى
لب التاريخ	للأستاذ محمد الحبيب التونسى
الأنيس المطرب	لابن أبى زرع
المعز لدين الله	للأستاذ حسن إبراهيم
ليبيا تأليف (كاكيا)	تعريب الأستاذ العسلى
دائرة المعارف	للبستانى
المنهل العذب	للأستاذ النائب الطرابلسى
جمهرة الأنساب	لابن حزم
المسألة الشرقية	للأستاذ عبد الله حسين
مروج الذهب	للمسعودى
المجتمع التونسى على عهد الأغالبة	للأستاذ عثمان الكعاك التونسى
مراصد الاطلاع	لياقوت الحموى
معارك الإسلام الكبرى	لجمال الدين حماد
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	لعبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩
البداية والنهاية	لابن كثير
سيرة جوذر	
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	اختصار يوحنا الراهب نسخة مطبوعة فى لوحة ، فى مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة
الروض المعطار فى أخبار الأقطار[1]	لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم بن عبد النور الحميرى

(١) من نسخة مخطوطة فى مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

الفهرست

ب

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

تاريخ الفتح العربى فى ليبيا

إن أخبار الفتح الإسلامى العربى فى ليبيا مبعثرة فى المصادر والمراجع العربية ، متناثرة فى كتب كثيرة لا يكاد يلمها شمل . ولقد حرص المؤلف على أن يجمع فى هذا الكتاب ما تفرق من أخبار هذا الفتح وأن ينسقه تنسيقاً يجعل من موضوع الفتح الإسلامى لليبيا وحدة متماسكة الأطراف حتى يقف المسلمون اليوم على البطولات التى قام بها آباؤهم فى العصور الأولى للإسلام . إن على كل عربى واجباً أن يقرأ هذا الكتاب فيقرأ فيه صفحات ناصعة مشرقة من تاريخ العرب الأمجاد .

٦٥٠ م

